383.4953
Sa12n A

نظام البريد في الدولة الإسلامية

تأليف
دكتور نظير حسان سعداوي
مدرس أول المواد الاجتماعية
بمدرسة المعادي الثانوية النموذجية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٥٣ م — ١٣٧٢ هـ

يطلب من مكتبة مصر بالفجالة والمكتبات الشهيرة

ص
٣٠

دار مصر للطباعة
٤٠ شارع كامل صدقي (الفجالة)

Cat.
4.54

تصـــدير

للأستاذ عبد الحميد العبادى

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية سابقا

أما بعد فهذا كتاب فى « نظام البريد فى الدولة الإسلامية » تقدم به مؤلفه الأستاذ نظير حسان سعداوى منذ نحو عشر سنوات على هيئة رسالة علمية لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ولقد أنالته الرسالة المذكورة الدرجة التى تطلع إليها ثم سنحت به همته أخيرا إلى أن ينشرها ليعم بها النفع ، فنشرها لأول مرة فى هذا الكتاب بعد أن استدرك أشياء كانت قد فاتته عند إعداد الرسالة .

وغير خاف أن نظام البريد كان من أهم أنظمة الدولة الإسلامية القديمة ، عنى به الخلفاء والسلاطين من أول أمرهم حتى نهايته أعظم العناية ، وكانوا فى ذلك إنما يحذون حذو أكاسرة الفرس وقياصرة الروم الذين كانوا يرون فى هذا النظام دعامة من أقوى دعائم ملكهم العظيم .

ومع أن الكتاب باكورة بحث المؤلف فقد ألم فيه بأطراف الموضوع ، واستعان فى جمع مادته بأمهات المراجع والمظان بين عربية وأجنبية ، وأدرك منزلة نظام البريد من إدارة الدولة الإسلامية ، ثم عرض خلاصة إطلاعه وبحثه عرضا شيقا جذابا .

وإنى لأرجو أن يتابع الأستاذ المؤلف البحث فى نواح من « نظام البريد » لم يتسع المقام لاستيفاء بحثها فى هذا الكتاب ، ففى ذلك استكمال للموضوع الأصلى ، وإسهام منه فى تجلية جانب من جوانب الحضارة الإسلامية الخالدة ؟

رمل الإسكندرية

٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٧٢ هـ

٣١ يوليـــة سنة ١٩٥٣ م

عبد الحميد العبادى

نظام البريد فى الدولة الإسلامية

تمهيـــد

عندما قررت الشروع فى الاستعداد لكتابة رسالتى التى أتقدم بها اليوم للحصول على درجة الماجستير اتجه فكرى إلى اختيار حادثة تاريخية مشهورة ، أو شخصية فذة من شخصيات التاريخ الإسلامى أجعلها موضوعا لرسالتى ، لما فى ذلك من السهولة من ناحية والمتعة من ناحية أخرى ، فضلا عن غزارة المادة التى يمكن الإنسان أن يستعين بها . . . غير أن حضرة أستاذى الجليل عبد الحميد العبادى عميد كلية الآداب بالإسكندرية والمشرف على البحث اقترح على موضوع رسالتى وأعنى به « نظام البريد فى الدولة الإسلامية » وظل متمسكا باقتراحه وهو « نظام البريد . . . » وراح يعدد لى أهمية الموضوع وما فيه من جدة وطرافة . وكانت حجته الكبرى أننا لن نتقدم فى دراستنا العلمية إذا ظل الطلاب يتخيرون السهل من الموضوعات وينصرفون عن الهام منها بدعوى صعوبته . كما أنه رأى أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى هذا النوع من البحوث وأعنى بها البحوث التى تكشف لنا عن كنوز الحضارة الإسلامية فى عز العرب، وما أحوجنا إلى الرجوع إلى ينابيع وأصول تلك الحضارة ونحن فى بدء نهضتنا العلمية التى تعتبر فى دور طفولتها الأولى . . . وأخيرا انتهيت إلى الاقتناع باختيار هذا الموضوع وتبدد ترددى وبدأت مباحثى تحت إرشاد أستاذى ، ولكنى لم أكد أمضى فى هذه المباحث التمهيدية حتى عدت إلى ازوراری عن الموضوع وتمنى الخلاص منه — ذلك أنى لم أجد إلا عبارات مختصرة وكلمات مقتضبة هنا وهناك لا تكاد تشفى غليلا . . . وبدا الموضوع بالنسبة إلى جافا وسقيما عندما شرعت أستعرض كتب المسالك التى تشير إلى مراحل الأسفار المختلفة والمسافات بين بلد وأخرى ومقدارها وعددها واختلاف وحدة القياس باختلاف الكتب . . . وهى لا تكاد تنتهى وكأنه لا أول لها ولا آخر وهى تسير على نمط واحد وأسلوب ممل وعلى هذا القياس تجرى صفحات طويلة عريضة بل وفصول كاملة تؤلف مجلدات — هنا ويجب أن أعترف أنى بدأت أقف فى الخط تماما واعتزمت عزما نهائيا أن أترك هذا الموضوع وأبحث عن موضوع آخر وأن أعلن لأستاذى عجزى عن الاستمرار فى الموضوع الأول فبدأت أتحين الفرصة لإخباره بهذا

القرار ولـكن هذه الفرصة لن تسنح أبدا ؛ فقد كان الخجل يحول بينى وبين إبدائها خاصة وأنه كان يوالينى بالتشجيع ويشير لى فى كل يوم إلى كتاب جديد أتجه صوبه وأستعين به ، فـكنت لزاما على أن أحضر هذا الـكتاب الجديد وأقف على ما فيه فأرى فيه طرفة جديدة أو مادة تاريخية مشوقة ، وفـكرة مستلمحة أ كثر مما قرأت فى الـكتب الأولى فلما تـكرر هذا أ كثر من مرة بدأت أشعر أن عناصر موضوعى بدأت تبدو على « الأفق » وأن الموضوع الذى كان يبدو لى ظلاما حالـكا بدأت بعض أشعة النور تنفذ إليه من هنا وهناك فأدخل فى نفسى ذلك شعاعا من الأمل وقررت إرجاء إنفاذ قرارى بالعدول عن هذا الموضوع ، وساعدنى على هذا الإرجاء سفر أستاذى إلى العراق منتدبا للتدريس فى معاهدها فى مارس ١٩٤٢ .

ومن ثم دأبت على مطالعة هذه الـكتب التى أرشدنى إليها الأستاذ والتوسع فى قراءتها بدلا من الوقوف عند حد الفقرات المعينة المـكتوبة تحت عنوان البريد ؛ فبدأت أرى فى ثنايا السطور ومن خلال الموضوعات المختلفة إشارات صريحة أحيانا وغامضة أخرى أو ضمنية لموضوع البريد ، ولـكن من شأنها أن تزيد فى مكامل هـذه الصورة التى بدأت تتكون فى نفسى . . . شجعنى ذلك على القراءة والتوسع فيها والانتقال من كتاب إلى كتاب وتتبع الخيوط المختلفة التى تؤدينى إلى لب الموضوع ؛ وسرعان ما وجدت نفسى غارقا فى صميم الإمبراطورية الإسلامية بمختلف نظمها ومؤسساتها . . . سرعان ما وجدتنى أتتبع تطور هذه الإمبراطورية منذ نشأت إلى حين شبت وترعرعت . . . سرعان ماوجدتنى أذرع هذه الإمبراطورية شرقا وغربا فأذهب مع الذاهبين إلى حدود سور الصين العظيم ثم أندفع غربا سائراً فى هذا الطريق الذى يوصلنا حتى تخوم البحر الأبيض الشرقية ثم أهبط إلى الجنوب مخترقا فلسطين حتى أصل إلى فسطاط مصر ثم أصعد منها إلى الإسكندرية وأضرب غربا نحو برقة وشمال أفريقية حتى أطل على المحيط الأطلسى ، وأعبر هذا المضيق الذى خلد ذكرى فاتحه وأعنى به جبل طارق لأستنشق عبير الأندلس جنة الدنيا فى ذلك التاريخ ولأستظل بحدائقه الغناء وقصوره الشماء ، ولأذرع بقدمى أرض قرطبـة والزهراء وغرناطة والحمراء وهى كأمثال الدرر المتلألئة أو المشاعل المضيئة التى بددت دياجير الظلمات فى أوربا وبلدانها فى هاتيك القرون وأرانى أقفل فى رحلتى على ظهر سفينة من السفن التى ترفع العلم الإسلامى المـكتوب عليه عبارة « لا إله إلا الله محمد رسـول الله » فتخترق البحر الأبيض المتوسط كأنها تجتاز بحيرة إسـلامية بحتة ؛ فما من ميناء على شاطئه إلا وكان تحت سلطانها أو يخشى جانبها وإذا بى أمر على جزائر البحر الأبيض المتوسط كلها

ابتداء من قورسيقية وصقلية حتى مالطة وكريت ورودس وقبرص ؛ وكلها جزر تخضع للسلطان العربى والدولة الإسلامية فى مظهر من مظاهرها ، حتى إذا ما وصلنا إلى موانى المشرق فى الشام وواصلنا طريقنا من جديد إلى بغداد مخترقين دمشق الفيحاء إذ بنا لم نـكمل رحلاتنا بعد فهناك طرق أخرى لا يزال علينا أن نمضى فيها وأن نتتبعها فقد ضربنا من بغداد شرقا وغربا ؛ ولا يزال علينا أن نمضى فيها جنوبا حتى هذه البصرة الميناء العربى الذى كان أول مدينة خطت فى الإسـلام حيث تشرف على الخليج الفارسى أو بالأحرى الخليج العربى فى هـذه الأيام . فـكل ما يبسط من أراض يقع فى تخوم دولة الإسـلام . . . فإذا امتطينا منه سفينة سارت بنا إلى بلاد الهند وطوفت بنا حول الهند كلها ودارت حول جنوب آسيا ، ثم صعدت بنا شمالا إلى الصين لنرى استقبالا حافلا ينتظرنا وكرما واحتراما يلقاه كل عربى ومسلم يقصد هـذه البلاد المفتوحة الأبواب لمتاجره وعلومه .. ولا غرو فلم يكن فى الدنيا فى ذلك التاريخ سوى أمبراطورية واحدة هى إمبراطورية المسلمين تصانعها الدول وترهب جانبها الشعوب . والسعيد السعيد من حظى بمحالفتها والتعاون معها . وقد أستطيع أن أخترق الصين لأصل من جديد إلى تخوم الدولة الإسلامية فأعود برا مخترقا آسيا كلها من مشرقها إلى مغربها فى ظل نظام البريد العتيد الذى كان له الفضل الأ كبر فى قيامى بتلك الرحلة العظيمة إذ مهد لى سبل الراحة فى أثنائها . ففى كل طريق كنت أجد منازله على مسافات معينة مزودة بالماء والزاد . . . وفى كل منزل يستقبلنى رجاله بحفاوتهم وكرمهم البدوى ويمدوننى بدابة من دواب البريد جملا كانت أو بغلا أو حصانا ، أمتطيها إلى المحطة التى تليها فأستبدل بها أخرى . . . وإذا ما تعذر الحصول عليها سار معى أحد سعاته كى يرشدنى الطريق ويهدينى السبيل ويقاسمنى حمل أمتعتى . . . ولم يكن هناك ما يزعجنى أو ينزل الرعب فى قلبى أثناء تجوالى ؛ فجماعة المرابطين المتحصنين فى أربطتهم على حدود الإمبراطورية وفى قلبها . . . وتعدد المناور هنا وهناك بمشاعلها ونورها ودخانها . . . ودق الطبول بين الأودية والجبال من وقت لآخر . . كل ذلك كان بمثابة المصابيح فى الطرقات العامة بددت الوحشة والظلمة وأبعدت اللصوص والوحوش . . . وهذا ما استعرضته للقارىء واضحا فى الفصل الرابع والخامس والسابع من الرسالة .

هذا ما وجدتنى غارقا فيه فى أثناء مطالعتى وبحثى خلف مادة أضمنها رسالتى عن البريد . ما أعجب ما ابتدأت به بحثى عن موضوع البريد ، وما أعجب ما انتهيت إليه فيه . . . بدأت متشائما قلقا متضايقا يائسا عن العثور عن شىء كلى وشيق ومفيد

وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لو لم يقيض لى اختيار هـذا الموضوع لخرجت بصفقة المغبون من دراساتى ، ولما أتيحت لى هذه الفرصة الواسعة لاستيعاب العظمة الإسلامية فى عصورها الأولى ، ولمـا استطعت أن أكون فـكرة عن هذا التراث العربى العظيم الذى خلفه لنا أجدادنا والذى تجنى الإنسانية ثماره فى هذه الأيام ؛ بينما قد جهلناه نحن فحرمنا الانتفاع بثمراته وتخلفنا بالتالى فى منتصف الطريق ورحنا نتطلع إلى الغرب نطلب الاستجداء بأعين مشدوهة وأنفاس مبهورة . . . وهو عين ما كان يفعل الغرب فى القديم عندما ينظر إلى مدنية الشرق الإسلامى يعشو إلى ضوئها ويحوم حولها ويعمل على الاغتراف من مناهلها حتى إذا أكمل استيعابه لها عن طريق احتكاكه المتواصل بها فى الشرق إبان الحروب الصليبية قرابة ثلاثة قرون عرف الغرب من أحوال الشرق مالم يكن يعرف . . . وفى أقصى الغرب فى الأندلس عندما كانت بعثات الأوربيين تتوافد عليه فتستقى العلم من مناهله . عندما كانت اللغة العربية هى لغة العـلم فى أوربا . . عندما كانت كتب ابن رشد هى أساس النهضة العلمية الجديدة فى أوربا . . عندما بدأت أوربا تضع قواعد إصلاحها الدينى والعلمى والأدبى على أسس هذه الحضارة الإسلامية .

أجل ماأعظم الشبه بين الشرق اليوم فى تطلعه نحو الغرب ، وبين ما كان عليه الغرب بالأمس من تطلعه نحو الشرق ، ونحن أقوياء الأمل وفى نفوسنا إيمان عميق بأن الساعة قد حانت من جديد ليقظة هذا الشرق واستعادة مجده القديم . . . هذا المجد الذى رأيته فى أروع صوره ، وأنا أدرس موضوع البريد . فالحق أننى مدين بدين عميق لأستاذى الذى اختار لى هذا الموضوع ، مدين له برفقه بى وتشجيعه المتواصل وإلحاحه على فى ضرورة المثابرة والمتابعة والـكفاح ... ولولا هذا لما قدر لى أن أتعلم ما تعلمت ، وأن أقف على ما وقفت وأن أساهم كمصرى عربى بقدر ضـئيل فى جلاء غوامض النظم الإسلامية وتقريبها إلى متناول البحث الحديث فى العربية ، لنسـتطيع أن نتخذها دائما أبدا أساسا فى أعمالنا ، ونقطة البدء لتطورنا فنصل حاضرنا بماضينا ، ونبنى مستقبلنا على أساس استخلاص الصالح من كليهما ، والتطور به فى سبيل الـكمال . . . فما من نظام فى العصر الحديث . مامن اختراع مفيد . ما من فـكرة علمية مستحدثة إلا وهى ثمرة من ثمرات التطور المتواصل وجهود الإنسانية المجتمعة المتكاملة . . . ولمـا كانت العرب قد ورثت حضارة الفراعنة والفرس واليونان وصهرتها فى بوتقة واحدة ، ثم هضمتها كلها وأعادت صياغتها بإضافات جديدة ، وأكملت الناقصة منها وصححت بعض أخطائها . فإن الإنسانية الحاضرة قد تلقت جل علومها وأنظمتها بعد أن مرت على أيدى العرب والمسلمين وطبعت بطابعهم . ولن

نستطيع أن ندرك حقائق العلوم المختلفة ما لم نلم بتطوراتها . . . الأمر الذى يوجب علينا دراستها عند العرب ، ونظام البريد كسائر الأنظمة يخضع لهذه القاعدة .

فإذا كان البريد فى عصرنا الحاضر قد تطور تطورا رائعا ، حتى وصل إلى درجـة مدهشة من حيث سرعة إرسال الأخبار والخطابات ، فاستخدم النقل الجوى لنقل البريد ، وأصبح يقطع آلاف الأميال فى أيام معدودة ، كما اسـتخدم البرق فى إذاعة الأخبار ، فأصبح الحادث يقع فى أقصى أطراف المعمورة ، فلا تمضى لحظات قصـيرة حتى تكون الدنيا كلها قد عرفته . . . إذا كان هذا الأمر يبدو مدهشا ورائعا ، بل ويمكن أن يكون عنوانا على عصرنا الحديث كله بمعنى أن نصف القرن العشرين ، بأنه قرن اللاسلـكى والسرعة . . . أقول إذا كانت هذه النتائج الضخمة التى وصلت إليها الإنسانية فى موضوع البريد ونقل الأخبار ، فلا يجب أن ننظر إلى وسائل الماضى باحتقار أو استهجان ، فقد كانت محاولات لا تقل ضخامة عن محاولات العصر الحديث بالنسبة لعصرها ، والحاجة دائما أم الاختراع ، فلم تكن حاجات الأمم فى القديم بمثل حاجياتها اليوم ، ولم يكن العالم الجديد بأكمله قد دخل إلى حيز الوجود ، وكان الأمر قاصرا على العـالم القديم حول حوض البحر الأبيض المتوسـط ، وفى بلاد فارس والهند والصين . ومع ذلك فـكلما شعر القوم الأقدمون بضغط الحالة عليهم تدبروا الأمر بوسائلهم ليحلوا المشـكلة التى تعترضهم . وقد اسـتطاعوا أن يوفقوا وأن يسدوا الثغرات المفتوحة أمامهم ، فـكانوا بذلك يضعون الأساس لـما يجد من مخترعات ونظم وتطورات . . . فقد وصـل الأمر فى عهد الخلافة العباسية إلى تنظيم هذه الشـبكة الرائعة من الخطوط البريدية فى أنحاء الدولة ، كما سنرى فى الفصل الرابع ، وتجهيزها بالخيول الجيدة المخصصة لهذا الغرض ، فـكان الخطاب ينطلق كالسهم من بلدة على حدود الصـين ، حتى يصل إلى بغداد دون أن يتوقف فى الطريق وهو منطلق بسرعة مدهشة محتسبا زمن وصوله بالساعة واليوم.

ومثل هذا الأمر فى ذلك الوقت كان يعتبر سرعة فائقة المقدار ، ولـكن هذه الوسيلة سرعان ما تجلى عجزها عن أن تفى بكل الحاجيات كإيصال الأخبار الخطيرة التى تستوجب الاستعداد السابق كهجوم عدو خطير ، ففـكروا فى استخدام هذه الخاصية الغريبة التى أودعها الله طائرا من الطيور هو الحمام الزاجل ، خاصية رجوعه إلى موطنه القـديم ، ولو بعد عنه ألوف الأميال ، فشرعوا فى استخدام هـذا الحمام لإيصال الأخبار الهامة ، وراحوا يترقون به على مر الزمن ، حتى وصـل الأمر به إلى أن أصبح شبيها بالتلغراف والتليفون فى أيامنا الحديثة ، فـكما تمد لـكليهما الأعمدة من حين لآخر لترفع أسلاكها

وتنشأ المحطات من مكان لآخر لتقوية الأمواج الصوتية . . . فكذلك أصبح الحال بالنسبة للحمام الزاجل ، فنرى فى الفصل السادس الدور الذى قام به فى عالم الأخبار قديما وحديثا ، كما نرى المحطات التى أنشئت خصيصا له على طول الطريق ليقتات منها ، فيأخذ بعض الراحة ويستأنف طيرانه السريع البعيد المدى حتى يصل إلى غايته . . . على أن هذا الأسلوب بدوره أصبح قاصرا عن أن يفى بكل الأغراض ، فقد كان هناك من الأخطار الداهمة ما يحتاج معه إلى سرعة أكبر لإيصال الأخبار ، مثال ذلك عند ما أصبح العالم الإسلامى مهددا بجيوش التتار التى راحت تفتك فى بنيانه وتخرب مدائنه وتطغى بأمواجها المدمرة منذرة بالقضاء على الحضارة الإسلامية كلها . . . هذا الخطر كان يستدعى لاتقائه إجراءات سريعة وشديدة . فسرعان ما أوجدت الضرورة أسلوبا رائعا ينقل الأخبار على وجه السرعة التى تشبه أن تكون سرعة البرق فى عصرنا الحديث ، فوضعوا نظاما أوردناه فى الفصل السابع والأخير وهو نظام المناور حيث يوقدون النار فى أماكن معينة ، فيرى لهيبها فى أماكن تبعد عنها عشرات الأميال ، فتشعل النار فى هذه الأماكن الأخيرة فترى على أبعاد جديدة تشعل فيها بدورها نيران أخرى ، وهكذا كلما رأى مركز النيران فى المركز المتقدم أشعل النيران فى مركزه ، فلا تلبث النيران أن تتجاوب على طول الطريق حتى تصل إلى مركز الحكومة لتتصرف فى الأمر بماترى . . . وبطبيعة الحال لم يقف الأمر عند حد إشعال النيران ، بل تطوروا إلى الاتفاق على رموز معينة واصطلاحات بواسطة هذه النيران ، بحيث يمكن أن يكون لطريقة إشعال النار أكثر من معنى واحد أو بالأحرى ما يقرب من طريقة مورس مع فارق التطور والارتقاء . وهكذا وصل القوم إلى ابتكار وسيلة تنقل الخبر الخطير بسرعة انتشار الضوء ، وهى سرعة هائلة من غير شك تقرب جدا من سرعة نقل الأخبار بواسطة التلغراف فى مراحله الأولى قبل التطور الحديث .

وفى الفصل السابع أيضا شرحنا طريقة استخدام الطبول والماء فى نقل الأخبار . وكانت الطبول غالبا تستخدم فى المناطق الجبلية حيث يصعب الاتصال بين الفرق الحربية أما طريقة التراسل بالماء فكانت نادرة الاستعمال فى العصور الإسلامية ، اللهم إلا فى الوديان حيث مجارى الأنهار . . . وفى أثناء رحلتى السالفة الذكر تاقت نفسى إلى زيارة البلاطين الأموى بدمشق والعباسى ببغداد ، للوقوف على إدارة نظام البريد . ففى دمشق الأموية لمست نظام البريد منذ أن ذرعه معاوية بن أبى سفيان ، وشاهدت الوثائق الأولى التى جمعها عن الرومان والفرس عندما شرع فى وضع الحجر الأساسى لهذا النظام الذي تعهده بالعناية والإشراف من جاء بعده من خلفاء بنى أمية .

أما فى بغداد العباسية فيظهر لنا نظام البريد فى ثوب آخر وصورة أخرى مغايرة تماما لما كان عليه أيام الأمويين من حيث الدقة والتوسع والإدارة ، وقد رتب له ديوان خاص منذ أيام الخليفة المنصور ، وهناك نزلت على مكتب صاحب ديوان البريد فاستقبلنى بكل حفاوة وترحاب كأنى أنزل بمكتب أحد السادة وزراء العصر الحاضر . طاف معى بمكاتب موظفى الديوان ، فشاهدت نشاطا ويقظة منه ومن موظفيه ، واستأذنته فى الحديث عن اختصاصاته وديوانه وعن من يتبعه من الموظفين سواء منهم من بالولايات أو الطرق ومنازلها أو الديوان العام . كما أنه بين لى بالتفصيل طريقة جمع الخرائط من الأقاليم ، وطريقة فضها أمام الحضرة الخليفية . وأفرد لنا جزءا من الحديث عن ميزانية ديوانه ومرتبات عماله ودواب البريد والخدمات التى أداها نظام البريد للدولة سواء فى الحرب أو السلم .

وقد أعطينا القارىء صورة واضحة جلية عن هذه التفاصيل فى الفصل الثالث من الرسالة ، ومنه يتبين للقارىء مدى ما انطوت عليه الإدارة العربية من حزم ورقابة وصلتا إلى درجة فائقة من الإحكام والدقة . وفى الفصل الخامس أوردنا نصيب مصر الإسلامية من هذا النوع من النظام الإدارى ، وأولينا عصر الظاهر بيبرس على وجه الخصوص بالبحث والعناية ، لأن عصره يعتبر العصر الذهبى فى تاريخ مصر الإسلامى من حيث تفوقها الحربى والسياسى والإدارى على معاصريها من الدول الإسلامية الأخرى . . . أما الفصل الأول فقد أفردناه بكلمتين إحداهما عن معنى كلمة (بريد) والأخرى عن تاريخ البريد عند الأفراد والجماعات البشرية الأولى ، ثم عند الأمم القديمة من فراعنة وفرس ورومان ، وإلى القارى التفاصيل على الوجه الآتى فى فصول الرسالة .

بحث فى مصادر الرسالة

سوف لا أتناول الكلام على جميع المراجع التى أشرت إليها فى ذيل صفحات الرسالة وإنما سأقتصر على الأساسى منها والتى تعدد ذكرها فى معظم فصول الرسالة من ذلك كتاب : —

(١) المسالك والممالك : لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة المتوفى سنة ٣٠٠ هـ الذى أمدنى بمعلومات تاريخية لها قيمتها العلمية ، ولا سيما فيما يختص بطرق البريد وسككه فى أنحاء المملكة الإسلامية ؛ وهى تعطينا فكرة واضحة عن المادة

الجغرافية الأولى عند العرب كما يمثلها ابن خرداذبة فى كتابه الذى يعتبر فى الدرجة الأولى من الأهمية لأنه أورد نبذا من كتاب — الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب البغدادى — وكلا الكاتبين أخذا شكل كتب المسالك التى تخصصت فى المسافات . وابن خرداذبة يعطينا المسافات بين كل محطة وأخرى على طول الطريق الخراسانى الكبير وفروع الطرق الأخرى كما يرى القارىء فى الفصل الرابع من الرسالة . وقد سعر هذا الكتاب فى رسالتنا كون ابن خرداذبة كان مديرا لمصلحة البريد Postmaster فى ولاية الجبال بينما كان قدامة عاملا للخراج Revenue accountant (١) لذا جاءت رواية ابن خرداذبة رواية شاهد عيان لا يعتورها الشك ولا النقصان .

(٢) تاريخ الأمم والملوك : لمؤلفه أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى وهو غنى عن التعريف لدى قراء التاريخ . ولد ببلدة آمل من بلدان طبرستان فى أوائل سنة ٢٢٥هـ وكانت الرحلة فى طلب العلم من لوازمه فانتقل إلى الرى فبغداد ثم انحدر إلى البصرة والكوفة فالشام ومصر . كل ذلك بقصد استيعاب ماعند شيوخ هذه البلدان من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بغداد حتى توفى بها سنة ٣١٠ هـ — وكما اشتهر فى التاريخ اشتهر كذلك فى الفقه والتفسير وكان له مذهب وعرف أنصاره بالجريرية . وكتابه له قيمة تاريخية عظيمة لأنه فى الواقع عبارة عن خلاصة تطور الرواية التاريخية عند المسلمين فى الثلاثة قرون الأولى ؛ لأنه مات سنة ٣١٠ هـ وهو أدنى كتاب حتى ذلك التاريخ والذى يقرأه يعرف كيف نبتت الرواية التاريخية القديمة ، وكيف تدرجت وتنوعت على هذه الصورة التى يمثلها كتاب ابن جرير وهو بحق بديع فى أسلوبه وفى مادته . وقد نقلت عنه نصوصا كثيرة تشير إلى عناية خلفاء بنى العباس بنظام البريد كما تشير إلى عنايته هو أيضا بهؤلاء الخلفاء والتأثر بهم . ويمتاز كتابه بأنه أتى بنصوص من كتب ضاعت بحيث لو ضاع الطبرى لضاع معظم المادة التاريخية الأولى فى صدر الإسلام ، وإن كان البعض يعيب عليه عملية النقل والتقييد التى رتبها على السنين ، ولكننى ألتمس له عذرا لعدم وجود وثائق مضبوطة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ ؛ كما أنه اعتمد فى روايته على الثقات من شيوخ العلم . وطبع كتاب الطبرى عدة طبعات منها طبعة مصر وطبعة ليدن من (١٨٧٦ إلى ١٩٠١) باعتناء الأستاذ دى غويه وغيره من المستشرقين ويقع الكتاب فى ثلاثة عشر جزءا ، يتلوها كتاب — صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد

(١) Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate P.12

الكاتب — فى جزء واحد . ويقول الأستاذ بارتلد(١) أنه قد كتب فى بخارى ملخص للطبرى باللغة الفارسية للأمير منصور الأول السامانى ، كما ألف فى قرطبة للحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٥ هـ) ملك الأندلس كتاب تاريخى مقتبس من كتاب الطبرى مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى الشافعى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٣٤٦ هـ نشأ فى بغداد وجاء مصر وساح البلاد ؛ فطاف فارس وكرمان حتى استقر فى اصطخر ، ثم قصد الهند والصين . وكتابه تناول تاريخ الخليقة منذ بدئها حتى سنة ٣٣٥ هـ وأتى فيه على جميع نسبة أهل الأنصار من جملة الآثار ، ونقلة السير والأخبار وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ومن تلاهم من التابعين على اختلاف أنواعهم وتنازعهم فى آرائهم من فقهاء الأمصار وغيرهم وطبع الكتاب فى مصر وبغداد وغيرها . وهو يلى فى الأهمية كتاب الطبرى ، وهما مرجعان أساسيان فى تاريخ العصور الإسلامية الأولى ومن جاء بعدهما من المؤرخين نقل عنهما وقد اعتمدت على كتاب المسعودى فى النصوص الخاصة بدولة الفرس والدولة العباسية .

(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر البناء الشامى المقدسى الحنفى المعروف بالبشارى المولود بالقدس ولا يعلم له ترجمة وافية ولذلك يقول فى مقدمته : «لقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل مقدسى ، مصرى ، فلسطينى ، عابد ، سايح ، زاهد الخ ... وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها وكثرة المواضع التى دخلتها» . وكتابه يمتاز على حد قوله بثلاث ميزات . قسم دونه عن معاينة شخصية ، وقسم سمعه من الثقات ، والثالث نقله عن كتب مصنفة . لذلك جاء كتابه أكثر إلماما بالحقائق التاريخية والجغرافية عن غيره من الكتب التى سبقته . ولم يتكلم فى كتابه إلا عن مملكة الإسلام ، ولم يتعرض لممالك الكفار بل ذكر مواضع المسلمين فيها فقط . وقسم مملكة الإسلام أربعة عشر إقليما ستة عربية وثمانية عجمية . وترى المدرسة الجغرافية الحديثة أن هذا النوع من الدراسة الجغرافية اتبع طريقة مدرسة الرءوس والخلجان Capes and bays school وهى المدرسة القديمة التى كانت تهتم بوصف الأرض وما عليها وصفاً مبنيا على الأسفار والرحلات والمشاهدات . وهى دراسة

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٩

شيقة من غير شك إلا أنها تجعل الجغرافية مجموعة قصاصات غير متناسقة لذلك كانت إلى التاريخ أقرب منها إلى الجغرافية . وقد طبع الكتاب فى ليدن سنة ١٨٨٧ م باعتناء دى غويه وعليه بعض تعليقات مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية وطبع ثانية مع ترجمة فرنسية وشروح وتعليقات باعتناء الأستاذين دوزى ودى غويه فى ليدن سنة ١٩٠٦ م .

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر : لأبى زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون التونسى الحضرمى الأشبيلى المالكى المتوفى سنة ٧٩٧هـ ، دخل فى خدمة أمير تونسى ثم رحل إلى بجايه وقلده سلطانها أعمال دولته . ثم فارق تونس سنة ٧٨٤هـ وأقام بالقاهرة وعينه السلطان برقوق قاضى القضاة المالكية وعزل عنها بسبب تعصب الأمراء عليه . ثم سافر إلى الشام مع السلطان فرج الملك الناصر وأخذه تيمور لنك أسيراً سميرا إلى سمرقند وقال له يوما[1] «لى تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها خلفته بمصر وسيظفر به المجنون» « يشير إلى برقوق » واستأذنه فى أن يعود إلى مصر فأذن له ورجع إليها فكانت وفاته بها فجأة . وكتابه يعرف بتاريخ ابن خلدون ويقع فى سبعة أجزاء اتبع فى تأليفه الطريقة الزمنية أى تسلسل الحوادث حسب تعاقبها الزمنى منذ بدء الخليقة حتى وفاته واهتم كثيراً بأخبار المغرب والبربر . . اعتمدت كثيرا عليه ولا سيما الجزأين الثالث والرابع . كما أخذت نصوصا من مقدمته المشهورة ،وهى على جانب كبير من الأهمية التاريخية ، وتعتبر أول كتاب من نوعه فى الأدب العربى وتجربة وحيدة لتخليص التاريخ من القصص وجعل التحقيق مسيطراً عليه ، وللبحث فى قوانين التاريخ مما أكد الصلة الوثيقة بين التاريخ كعلم وبين العلوم الأخرى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . فقد اتخذ ابن خلدون تطور الحالات الاقتصادية والانتقال من البداوة إلى حالة الاستقرار ، ومن الحياة القروية إلى حياة المدن أساسا لنظريته بدل تغير النظم السياسية المتخذة أساسا لدى مؤرخى اليونان الاستنباطيين Pragmatique ويتساءل الأستاذ بارتولد[2] بتأثير من من العلماء وأى الكتب نشأت نظرية ابن خلدون، ثم يجيب عن هذا السؤال بأنه بحث لا يزال مجهولا إلى اليوم ، ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات فى الأزمان القديمة والحديثة . وفى نظر حضرة المستشرق مقدمة ابن خلدون كمقدمه ديودوروس تشبه

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف سركيس ج ١ مجلد ٢ ص ٩٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٠

جداراً مزخرفا لواجهة جميلة فإذا أخرجنا المقدمة بقى كتابه مجموعة من الحوادث ؛ فهو كجميع جامعى القرون الوسطى ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تغيير فى معظم الأوقات ، ولم تؤثر نظرية ابن خلدون فى غيره من مؤرخى العرب .

(٦) التعريف بالمصطلح الشريف : لمؤلفة شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى المشهور بالعمرى لانتهاء نسبه إلى عمر بن الخطاب . تقلد ديوان الإنشاء والرسائل فى البلاط القاهرى أيام ولاية الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١هـ) الذى كان اختصاصه يتناول مايسمى اليوم فى لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » وهى عبارة عن الرسوم والإجراءات التى تجرى عليها الدولة فى تنظيم علاقتها الخارجية وتسمى هذه الرسوم والنظم فى الدولة الإسلامية بالمصطلح الشريف[1] . وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج منها ومن الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية . ثم يتحدث عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الإدارية وعن مراكز البريد والخيل وبريد الحمام الزاجل وأبراجه ووسائل المواصلات البحرية . ويعتبر كتاب العمرى دستور المصطلح الشريف فى مصر الإسلامية .

(٧) ويرى القلقشندى صاحب صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء : أن كتاب العمرى أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب[1] ، وقد انتفع به القلقشندى فى موسوعته أعظم انتفاع ، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التى دبجت بقلم العمرى فى ظروف ومناسبات مختلفة ، ويمكن القول أن الجزء الخاص بالبريد فى موسوعة القلقشندى منقول عن العمرى مضافا إليه تعليقات القلقشندى الخاصة ، وتوفى العمرى سنة ٧٤٩ هـ ، ١٣٤٨ م . . . ولفضل الله العمرى أثر آخر ضخم هو «كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ، وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة وهى : مسالك الأبصار ، ونهاية الأرب للنويرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى . . . والأولى تملأ عشرين مجلدا كبيرا أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول منها ، والباقى مخطوط . . . والثانية أخرجت الدار نحو ثلثه فى ثلاثة عشر مجلد والباقى مخطوط . . . أما الثالثة فقد أخرجتها لنا دار الكتب فى أربعة عشر مجلدا . وقد اعتمدت اعتمادا كبيرا على موسوعة القلقشندى فى رسالتى خصوصا المقالة العاشرة

(١) الأستاذ محمد عبد الله عنان ، الرسالة العدد ١٠٧ سنة ١٩٣٥ م

(٢) القلقشندى ج ١ ص ٧

بالجزء الرابع عشر ، وتكلم فيها على البريد وأول من وضعه فى الجاهلية والإسلام ، وبيان معالم ومراكز ومطارات الحمام الرسائلى وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية والمناور والمحرقات . وكتاب القلقشندى كتاب تاريخ كما هو كتاب أدب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع شاردة ولا واردة إلا ذكرها . ولد القلقشندى ببلدة قلقشندة بمديرية القليوبية سنة ٧٥٦ هـ وتوفى سنة ٨٢١ هـ .

(٨) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : لتقى الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد الحسينى البعلى الأصل القاهرى المعروف بالمقريزى نسبة لحارة فى بعلبك تعرف بحارة المقارزة . نشأ بالقاهرة وتفقه على مذهب الحنفية ، ثم تحول شافعيا بعد مدة طويلة ، وتفقه وبرع وصنف التصانيف المفيدة النافعة الجامعة لكل عمل ؛ وبلغت شيوخه ستمائة نفس ، وكان حسن الذاكرة بالتاريخ . فاشتهر بعمدة المؤرخين وعين المحدثين حتى صار يضرب به المثل . ولى حسبة القاهرة أول ولايته من قبل الملك الظاهر برقوق ، وولى عدة وظائف دينية وعرض عليه قضاء دمشق فى أوائل الدولة الناصرية فأبى أن يقبل ذلك . . . وكتابه جامع لكثير من الخطط والآثار والحكم المأثورة حتى تاريخ وفاته سنة ٨٤٥ هـ وقد استفدنا منه كثيرا فى الفصل الخاص بالبريد فى مصر الإسلامية . . . وللمقريزى كتاب آخر هو :

(٩) السلوك لمعرفة دول الملوك : وتقوم مطبعة دار الكتب المصرية الآن بإخراجه فى صورة جديدة تحت إشراف أستاذى الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى ذيله بكثير من شروحه وتعليقاته وتصحيحاته القيمة ؛ وورد فى رسالتنا كثير من نصوص المقريزى التى عالجت موضوعنا فى عصر الظاهر بيبرس . والكتاب يشتمل على ذكر ما وقع من الحوادث إلى يوم وفاته . وقد ترجم منه إلى الفرنسية الأستاذ quatremère قسما سماه « تاريخ السلاطين المماليك » طبع فى باريس سنة ١٨٣٧ فى جزأين Histoire des Sultans Mamlouks 2 tomes ولم تخل رسالتنا من بعض النصوص المأخوذة منه خصوصا من الجزء الأول القسم الثانى .

(١٠) ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها كتاب الطائر الفريد فى وصف البريد تأليف نعمان أفندى أنطون من موظفى البوستة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر . يقع كتابه فى أكثر من مائتى صفحة مكتوب بأسلوب الموظف لا بأسلوب المؤرخ أو الأديب . وشكل الكتاب وورقه وطبعه يوهم القارىء بضآلة قيمته العلمية . يقع الكتاب فى بابين الأول خاص بعموم البريد ؛ من بريد حربي وبريد عمومي وكذا البريد

الخصوصى ؛ ثم إدارات البريد ومراكزه وأدواته ومعداته وطوابع البريد وموظفوه ؛ ثم لمحة عن تاريخ البريد القديم والحديث . . . والباب الثانى خاص بالبريد المصرى من أقدم العصور إلى أحدثها مع شرح مستفيض للبريد المصرى الحديث وما طرأ عليه من تطورات وإصلاحات فى عصوره المختلفة من حيث طوابعه وقوانينه الخ . . . والكتاب به مادة تاريخية محترمة عن البريد ، أعتقد أنها جمعت من مصادر عربية وأفرنجية لها قيمتها العلمية . ويشير المؤلف فى مقدمته إلى هذا المعنى بقوله « حتى لو تمكنت من أن أودع هذا التأليف كلما يلذ المطالع خبرة ويفيده أمره من أصح الموارد وأصدق الشوارد مع بيان ما صادفته جميع البرد من التقلبات والنظامات من ابتداء ترتيبها إلى وقتنا هذا . فلم أترك من أوصاف البريد وطرقه وترتيبه وحكمه واسطة أو حادثة إلا ذكرتها ، ولا فائدة أو نادرة إلا أوردتها بنوع مجرد من الغايات الخصوصية فى علاقاتنا بالأشغال العمومية » . . .

ويؤخذ على المؤلف أنه لم يذكر المراجع والمستندات التى استقى منها مادته وأنه لم يذيل كتابه بالأصل الذى أخذ عنه النص فجاء كتابه خلوا من الإشارة إلى أى مرجع كان ؛ فهو لم يفد الباحث من هذه الناحية . الأمر الذى أتعبنى كثيرا فى الرجوع إلى الأصول الأولى التى أخذ عنها بالبحث عنها فى الكتالوجات فكنت أوفق أحيانا فى العثور عليها وأفشل أحيانا أخري .

(١١) تاريخ البريد فى مصر : وضعته مصلحة البريد المصرية بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة سنة ١٩٣٤ ؛ ومن المدهش حقا أن مؤلفى هذا الكتاب قد وقعوا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه مؤلف الكتاب السابق إذا استثنينا بعض المراجع الأجنبية التى ذكروها بصفة عامة فى أول الكتاب ، وقد اتصلت بأحد واضعى هذا الكتاب وهو رئيس قلم بمصلحة البريد الآن على استشف منه بعض المعلومات التاريخية ، وأخبرته بهذا النقص البين فى كتابهم ؛ فأجاب بأن معظم النصوص الواردة بالكتاب جمعت عن طريق تكليف بعض السفارات المصرية فى الخارج بترجمتها من أوراق البردى المصرية هناك أو من الكتب الأجنبية أو عن طريق مصلحة الآثار نفسها. كما أنه شكا من عدم إعطاء مصلحة البريد مكافآت مالية لهم إزاء هذا المجهود الشاق . والكتاب عظيم من الناحية التاريخية للبريد المصرى من أقدم العصور ، ومطبوع على ورق يغرى القارىء بقراءته ، واعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا فى الفصل الأول والخامس كما نقلنا عنه خريطة للبريد فى مصر المملوكية وأخرى لبريد الحمام الزاجل .

(١٢) وهناك كتاب آخر اسمه « تاريخ البريد فى العالم » لمؤلفه جمال العربى أفندى .

أعتقد أنه نقل معلوماته التاريخية نقلا حرفيا عن الكتابين السابقين ، ولم يأت بجديد من عنده اللهم إلا ترتيب وتقديم بعض الحوادث على البعض الآخر ، ولم يشر فى كتابه إلى مرجع واحد على الإطلاق فهو قد وقع فيما وقع فيه مؤلفو الكتابين السابقين مخالفا قواعد البحث العلمى من ناحية ، وغير مراعيا الأمانة التاريخية من ناحية أخرى .

وثلاثتهم قد أفادتنى فى نواح كثيرة ، ولا سيما معرفة البريد عند الأمم القديمة ومصر خصوصا ، ثم بريد مصر فى العصور الوسطى ، وكذا البريد الجوى والمائى . ولو كتب الطائر الفريد فى وصف البريد على طريقة البحث الحديثة وبأسلوب العلم الحديث ، وذيلت نصوصه بالمراجع الأصلية ، لكان خير كتاب كتب عن تاريخ البريد فى العالم على ما أعتقد .

(١٣) تاريخ التمدن الإسلامى : للمرحوم الأستاذ جورجى زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ وهو لبنانى الأصل اشتغل بالطب ولم يكمله ، واتجه إلى الأدب بعد أن احتضنته مصر . فتولى تحرير جريدة الزمان ، ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ ، بصفة مترجم بقلم المخابرات ، واشتغل فى إدارة المقتطف فترة ، وأنشأ مجلة الهلال فى أواخر سنة ١٨٩٢ . وضمن فى هذا الكتاب الكلام على الدولة الإسلامية وسعة ملكها وتاريخها الإدارى والسياسى والمالى وأسباب ثروتها وتكوينها وانحطاطها ، وتناول الكلام على خلفاء الإسلام ورجال حكومته . طبعته مطبعة الهلال فى ستة أجزاء ، وإنى أعتقد أن الأستاذ جورجى زيدان أول من طرق باب الحضارة الإسلامية منبها المحدثين إلى الثروة المخزونة فى بطون الكتب عن تلك الحضارة ، وسرعان ما كان لمؤلفاته صدى كبيرا وأثرا مشكورا فى نفوس المؤرخين المعاصرين أمثال حضرات الأساتذة : محمد كرد على ، وأحمد أمين ، والدكتور محمد مصطفى زياده ، والدكتور حسن إبراهيم ، ومحمد عبد الله عنان ، والأمير شكيب أرسلان . الخ . . والمادة التاريخية التى نقلتها عن هذا الكتاب وعن مجلة الهلال (المجلد السابع من السنة العاشرة) ذات قيمة علمية ملموسة الأثر فى معظم فصول الرسالة .

(١٤) التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية ، تأليف العلامة السيد عبد الحى ابن عبد الكبير الحسنى الكتانى الإدريسى الفاسى ، اعتمد فيه على كتاب تخريج الدلالات الشخصية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية للعلامة أبى الحسن على بن ذى الوزارتين المعروف بالخزاعى

(٧١٠ — ٧٨٩ هـ) . ذكر الكتانى أنه رتب كتابه على عشرة أقسام ، كما رتب الخزاعى كتابه على عشرة أجزاء ، وقسم كل قسم إلى أبواب وكل باب إلى فصول ، وقد اعتمدت على القسم الأول باب الرسول ، ثم باب الخانات والتجسس وباب الطرق وباب العمال الخ . يقع الكتاب فى جزأين وله مقدمة طويلة فى ترجمة الخزاعى والتعريف بالكتاب وهو قيم من حيث أنه يجمع ما ورد عن الشىء الواحد فى عدة كتب ؛ ويؤخذ عليه أنه لم يعلق على النصوص أو الأحاديث النبوية ، مكتفيا بما ورد فى المقدمة من استعراض كتب السيرة والأحاديث والشريعة الإسلامية من فقه وتفسير وقصور المؤلفين المحدثين عن ذكر الوظائف الإدارية فى عهد الرسول . ولولا عثورى على هذا الكتاب بإرشاد من أستاذى العبادى لجاءت رسالتى خلوا من المادة البريدية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين . طبع الكتاب سنة ١٣٤٦ بالمطبعة الأهلية بدرب الفاسى عدد ٣ بالرباط .

(١٥) فجر الإسلام : وضعه الأستاذ أحمد أمين دارسا فيه الحياة العقلية للأمة العربية إبان القرن الأول للهجرة ، مبتدأ الكلام عن جغرافية بلاد العرب وأثرها فى أهلها ، ثم علاقتهم بالأمم العربية المجاورة من روم وفرس وأحباش ، وقد اقتبسنا نتفا قصيرة من هذه العلاقات ، ووضحنا أثرها فى النظم الحكومية عند العرب ، ثم يستمر فى الكلام عن العقلية العربية فى جاهليتها وإسلامها ، والكلام عن الفرق الدينية والسياسية من خوارج وشيعة الخ . وللكتاب مقدمة طريفة بقلم الدكتور طه حسين والكتاب فى مجموعه قيم وعظيم لا لرجل الأدب فحسب ، بل ورجل التاريخ أيضا . ولا أكون مغاليا إذا قلت أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على مبلغ ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من القوة والسلطان إذا لم يكن قد قرأ كتاب فجر الإسلام ، وقد ورد كثير من نصوصه فى الفصول الأولى من الرسالة ، لأنه المرآة التى يرى الباحث من خلالها حياة العرب العقلية والسياسية والإدارية والاجتماعية .

ومن المصادر الافرنجية التى اعتمدت عليها . . .

(١٦) كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى Die Renaissance des Islams تأليف الأستاذ آدم متز Adam Mez أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسره ، والمتوفى سنة ١٩١٧ . نقله إلى العربية فى جزأين الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريده ، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد اختار المؤلف القرن الرابع الهجرى لأنه هو العصر الذى بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها ،

خريطة لهذه الطرق ، استند فى وصفها على أقوال وأوصاف مؤرخى العرب وجغرافيهم . والمطلع على الكتاب لا يسعه إلا أن يقدر المجهود المضنى الذى بذله المؤلف فى استعراض أجزاء الطرق المختلفة ومحطاتها وأبعادها كما وردت فى كتب العرب المقارنة بها . وكثيرا ما يرى الإنسان جداول للمسافات بين شتى المحطات كما وردت فى كتب ابن خرداذبه وقدامة والأصطخرى فيصعب على الإنسان المقارنة بينها . على أن المجهود الأكبر الذى بذله المؤلف هو فى إعداد هـذه الخرط على وجه الدقة بقدر الإمكان ، فليس يخفى أن العرب لم تترك لنا خرطا لهذه الطرق ، كما أنها فى ذكرها للمحطات والبلدان المختلفة كانت تكتفى بذكر البعد بينها وبين البلد السابقة أو اللاحقة دون أن تذكر إذا كانت إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب منها . كما أن كثيرا من الأسماء التى ذكرها العرب فى كتبهم عنوانا على محطات البريد والبلدان قد اندرس معظمها ومحى أثره من الوجود ، إما لتفاهة شأنه وأما لحلول أسماء جديدة محله . كل هذا مضافا إلى الخلافات السابق ذكرها فى تحديد المسافات كما وردت فى كتب جغرافى العرب . وجب أن نضم إلى ذلك كله كون المؤلف فى نهاية الأمر ليس عربيا ، فهو يبذل بعض الجهد من غير شك لقراءة النصوص العربية وبخاصة فى الكتب القديمة التى تخلو من الشكل بل والتنقيط أحيانا الأمر الذى يشير إليه المؤلف بالذات فى مقدمة(١) كتابه .

كل هذا يمكن أن يعطينا صورة واضحة عن المجهود الشاق الذى بذله المؤلف بمساعدة كثير من زملائه العلماء للوصول إلى عمل هـذه الخرائط ، معينين بها بقدر الإمكان مواضع البلاد المختلفة التى ورد ذكرها فى طرق البريد بالنسبة لخطوط الطول والعرض بحيث يمكن رسمها على أى خريطة وتتبعها والانتفاع بها .

وليس يسعنا إلا أن نقدر هـذا المجهود الذى سبقنا إليه المستشرقون من الأجانب وكنا نحن أولى الناس به ، والحق أن الطالب منا ليصيبه كثير من الخجل الممزوج بالحسرة والألم وهو يرى نفسه مضطراً إلى الالتجاء إلى كتب المستشرقين من ألمان وإنجليز وغيرهم ليستعين بهم فى فهم مسائلنا العربية والإسلامية بل والدينية أحيانا ، ولا جدال فى أن هذا مظهر من مظاهر تطور البحث العلمى عند الأوربيين فى هذا المضمار . غير أننا نحمد الله أن تم إنشاء جامعتين مصريتين(٢) وزودتا بعدد من أكفاء الأساتذة سنتمكن نحن الطلاب بمعاونتهم من الإلمام بتراث أسلافنا فلا نعود فى حاجة للاتجاه نحو

---

(١) ترجمة الأستاذ أحمد حسين المحامى .

(٢) أصبحت الجامعات المصرية الآن ثلاث عدا الجامعة الأزهرية .

فجاء شاملا لجميع نواحى الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع . وكانت طريقة الأستاذ آدم متز فى معالجته للنواحى الغامضة ، كما قال الأستاذ أحمد أمين فى تصديره للترجمة العربية تكاد تقتصر على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة دلت على مجهود مشكور بذله الأستاذ فى جمع المادة وترتيبها ترتيبا علميا ، ومن جملة مصادر مخطوطات أربت على الأربعين موجودة فى مكاتب أوربا ، ويؤخذ عليه أنه اكتفى بجمع النصوص وترتيبها من غير أن يدخل شخصيته وآراءه فى المسائل إلا فى القليل النادر ، كما يؤخذ عليه أنه يستدل فى بعض المسائل على رأى بنص واحد ، والكتاب يعلمنا طرق البحث العلمى ، ويقدم لنا درسا فى صبر العلماء على معاناة البحث والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وغربلتها وأخذ خير مافيها ، ويكشف لنا عن نواح من الحضارة مجهولة . . وقد أورد لنا المؤلف جزأ كبيرا فى الكلام عن المواصلات البرية والبريد وطرق البريد الهامة فى الأمبراطورية الإسلامية ، وقد اعتمدت عليه كثيرا فى هذه الناحية ، وأعطانى درسا فى كيفية الحصول على ما أنا فى حاجة إليه من كتب جغرافى العرب بعد أن يئست من قراءتها وخرجت وأنا جاهل لكل ما قرأت ، فلما وقع نظرى على كتاب الأستاذ متز بين لى أهمية ما قرأت فى الكتب العربية .

(١٧) أما كتاب The Lands of the Eastern Caliphate لمؤلفه الأستاذ Le Strange ، ويبحث كما هو مفهوم من عنوانه فى طبيعة بلاد المشرق من حيث الأنهار والجبال والطرق والجسور ووسائل العمران ، وكذلك المدن والقرى وقد شفع المؤلف بحثه بذكر الخرائط لكل إقليم على حدة ، واقتصرت فائدة الكتاب لنا على المقدمة التى أورد فيها الكلام عن طريق الشرق الكبير المعروف بطريق خراسان ، وكذلك الكلام عن الطرق المتفرعة منه وطرق الحج الخارجة من بغداد ، وتتبع المؤلف طريق المشرق من بغداد حتى أعالى الصين ، ثم ختم مقدمته ببحث علمى جميل فى الكتب الجغرافية والجغرافية التاريخية للمؤلفين العرب منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصور الوسطى تقريبا موضحا نواحى الضعف والقوة فى كل كتاب ، فجاء نقده لها نقدا علميا من الطراز العلمى الحديث .

(١٨) ومن المراجع الأفرنجية التى اعتمدت عليها كثيرا كتاب Die Post-Und Reiserouten des orients للمؤلف الألمانى Sprenger طبع فى سنة ١٨٦٤ م بمدينة لبزج واسمه البوستة (أى البريد) وطرق السياحة فى الشرق ، وزوده بست عشرة

العرب لفهم شرقيتنا ، وإلى أن يتم ذلك ولعله أوشك على التمام فنحن مضطرين من حين لآخر للالتجاء لكتب الأوربيين عن الشرق فى مختلف الشئون وبشتى اللغات .

ونحن مضطرون إما للعلم والحقيقة أن نسجل تقديرنا لجهودهم العلمى الفذ وهذا هو ما نقرره ابتداء بالنسبة لكتاب الهير شبرنجر وإن كنا قد عدنا فى مواضع مختلفة من الرسالة إلى تسجيل بعض الملاحظات والردود على ما ورد فيه .

(١٩) La Poste aux Chevaux dans L'Empire des Mamlouks.

بدأ الأستاذ Sauvaget العالم الفرنسى المشهور فى تأليفه أواخر سنة ١٩٢٣ ونشره سنة ١٩٤١ ولم أعثر عليه إلا عند طبع الرسالة .

تناول المؤلف الحديث فى الفصل الأول عن نشأة البريد فى الدولة المملوكية والخدمات التى أداها الظاهر بيبرس بنوع خاص إلى الإدارة البريدية وطرق البريد ومحطاته وعماله وبريد الحمام وأبراجه والإشارات الضوئية . واعتمد بيبرس فى تنظيمه للبريد على القواعد المعروفة عند كل من الخلفاء العباسيين والأباطرة المغول .

وأشار الفصل الثانى إلى ازدهار مصلحة البريد بعد أن توقف الزحف المغولى وبعد أن زال الخطر الصليبى ، كما أشار إلى التغييرات الجديدة التى أدخلها بنو فضل الله على المصلحة كالتنظيم المالى وإنشاء الطرق والمحطات الفرعية ، وجعلها جميعا فى خدمة التجارة وتنشيطها فضلا عن القيام بنقل الأخبار الحكومية وهو العمل الأساسى للبريد .

ووضح الفصل الثالث عوامل تدهور نظام البريد ومنها انشغال السلاطين بالثورات والفتن الداخلية . واستبدال المدنيين بالعسكريين فى الإشراف على مصلحة البريد من النصف الثانى للقرن الرابع عشر ثم غزوة تيمورلنك أخيراً سنة ١٤٢١ م .

ويحتوى الكتاب على ستة خرائط لتوضيح طرق البريد البرى والجوى ومحطاته فى عصر المماليك ، وبه أيضا رسومات هندسية ومعمارية لدراسة بعض محطات البريد دراسة تفصيلية ، فضلا عن خمسة عشر صورة فوتوغرافية للخانات والاستراحات البريدية فى سوريا وفلسطين وشبه جزيرة سينا وبعض مناظر للمؤلف أثناء مشاهداته لتلك الآثار التاريخية .

وجمع المؤلف مادته من الأصول التاريخية والأدبية المعاصرة ومن مشاهداته الشخصية لبقايا محطات البريد والنصوص المنقوشة عليها ، وصحبه فى زياراته لها أساتذة المعهد الفرنسى بدمشق .

الفصل الأول

البريد قبل الإسلام

١ — معنى كلمة بريد :

قبل أن نمضى فى استعراض البريد عند الأمم القديمة كان من لوازم البحث العلمى أن نفسر معنى بريد اصطلاحاً ولغة ، وأن نبحث كذلك عن أصل الكلمة وهل هى فارسية أم عربية أم رومية ، بحيث يخرج القارىء من هذا البحث الأولى وقد أدرك تماماً المقصود من موضوع الرسالة وتتبع بإيضاح ما يقع تحت بصره من نصوص وحقائق تاريخية ملموسة . والواقع أن تفسير معنى هذه الكلمة كان محل خلاف فى الرأى لدى جماعة الكتاب والمؤرخين وهل الكلمة عربية الأصل أم أعجمية ، فالبريد اصطلاحاً هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل فى المكان حتى يصل بسرعة (١) . وهذا ما فسره الأستاذ العبادى بقوله : « إن كلمة بريد مأخوذة من الكلمة اللاتينية Veredus أى الدابة التى يركبها العامل فى نقل مكاتبة من مكان لآخر فالبريد فى الأصل اسم الدابة التى يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة فهو عندهم كذلك واستعملت للنظام كله كمصلحة البريد» (٢) . وعلى ذلك يكون المعنى اللغوى لكلمة بريد مسافة معلومة بين مركزى بريد ، قدرها الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنها أربعة فراسخ أو اثنى عشر ميلا (٣) . وقد اختلف المؤرخون فى أصله فذهب بعضهم ومنهم القلقشندى إلى أنه عربى مشتق من برد أو أرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه ، وقيل من برد بمعنى ثبت لأنه يأتى بما تستقر عليه الأخبار ويقال «اليوم بارد سمومه» أى ثابت (٤) . وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب

(١) النظم الإسلامية ص ٢٥٤ — Sauvaget P. 27

(٢) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادى

(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٩١ — Sauvaget p. 27

(٤) القلقشندى ج ١٤ ص ٣٦٦

فأصله بالفارسية «بريدة دم» ومعناه مقصوص الذنب ، وذلك لأن الفرس من عادتهم أن يقصوا ذنب الخيول والبغال التى يقيمونها فى البريد ليكون ذلك علامة لكونها من حيوان البريد ، وفى هذا المعنى أنشد الجوهرى لامرئ القيس :

على كل مقصوص الذنابى معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا (١)

وقد ذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة محرفة عن (بردى) وهو نوع كالورق كان يستعمله قدماء المصريين وقد أطلق على البردى بريدى ثم اختصر فصار بريداً (٢) وهذا الرأى بعيد عن الصواب من غير شك لأن الأخذ به يفهمنا خطأ أن العرب لم يعرفوا البريد إلا عند فتحهم مصر ومعرفتهم ورق البردى (٣) . وكان هذا غير صحيح إذ المعروف كما سيجىء بعد أنهم عرفوا البريد فى جاهليتهم أى قبل فتحهم مصر بمئات السنين ... صحيح أن العرب لما فتحوا مصر كثر استخدامهم لورق البردى ونشروه فى أنحاء المملكة الإسلامية وقد اشتهرت مصر بهذه الصناعة من عهد قدماء المصريين واستمرت مصانع الورق على عملها بعد فتح العرب لها . وخلاصة القول نستنتج أن العجم لهم الفضل الأكبر فى معرفة البريد وترتيب نظامه بمعناه الشامل وأن اسمه أعجمياً فى أصله لا عربى كما ذهب القلقشندى وغيره . ويؤكد استنتاجى هذا ما ذكره بعض المستشرقين (٤) من أن أكثر مصطلحات البريد التى كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل ومنها الفرانق والفييج (٥) والشاكرى (٦) بمعنى راكب البريد والأسكدار وهو

(١) القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٦٦

(٢) الطائر الفريد ص ٥

(٣) ذكر الأستاذ أحمد أمين أن الوليد بن عبد الملك كان يستعمله فى شئونه الخاصة وكان الخلفاء يفضلونه على غيره من أنواع الورق لأنه لا يمكن محو ما فيه من غير أن يعرف ، وأكثر مصانعه كانت فى الوجه البحرى لكثرة ما فيه من نبات البردى ، وأهم مراكز صناعته مدينة بورة على الساحل قرب دمياط . وكانوا يصنعونه أنواعا ، منه ما نعم وغلا ومنه ما خشن ورخص ويصنعونه أدراجا يلف كل درج منها ، وقد يبلغ طول الدرج ١٥ مترا وكان يباع الدرج حول سنة ١٨٤ هـ من النوع الجيد بدينار ونصف دينار وهو ثمن عال خصوصا إذا لاحظنا أن هذا القدر يدفع إيجار الفدان صالح للزراعة مدة عام . وقد أصدر عمر بن عبد العزيز أمره بالاقتصاد فى استعمال الورق — ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢١

(٤) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ٢ ص ٣٤٧

(٥) ومعناها الساعي على قدميه ونلاحظ أثر كلمة ped الرومية فى هذه التسمية — مترجـ ٢ ص ٢٤٧

(٦) ومعناه الصياد

السجل الذى يدون فيه عدد حقائب البريد والخطابات ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها .

وعليه يكون لفظ «بريد» فارسى الأصل لا روميه لأن دولة الفرس أقدم فى الوجود والحضارة من دولة الرومان ، ولأن ما اقتبسه الرومان من أنظمة الحكم وقواعده من غيرهم مرجعه إما إلى الإغريق أو الفرس وبما أن الإغريق لم يرد فى ما تناولته من مصادر ما يثبت عنايتهم بالبريد على النحو الذى كان معمولا به فى فارس فإنى أعتقد إرجاع الكلمة إلى الفرس كما يفهم من النصوص السابقة ومما سيرد بيانه عند الكلام على البريد عند كل من الرومان والفرس .

وكثيرا ما كانت تطلق كلمة بريد على الرسول وفى الحديث — إنى لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد أى لا أحبس الرسل الواردين على (١) — ومنه الحديث أيضا — إذا أبردتم إلى بريدا أى أنفذتم رسولا (٢) — وقال بعض (٣) العرب الحمى بريد الموت أى رسوله تنذر به ، وأيضا قيل لدابة البريد بريد لسيره فى البريد وهو المسافة التى بين السكتين — قال الشاعر .

انى أنص العيس حتى كأننى عليها بأجواز الفلاة بريدا (٤)

ومسافة البريد تقاس بالأميال أو الفراسخ كما ورد عند ابن خرداذبة وقدامة أو بالمراحل كما فعل الاصطخرى والمقدسى ، وقد قومت المرحلة بفرسخين فى بلاد فارس وأربعة فراسخ فى المغرب والفرسخ فى الحالين ثلاثة أميال (٥) ، وفى الحديث لا تقصر الصلاة فى أقل من أربعة برد وهى ستة عشر فرسخا (٦). وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربى الفرات أما فى شرقيه فبالفراسخ (٧) . وقد اختتم Sprenger مقدمته ببحث طويل فى الأطوال وخصوصاً مقدار الميل عند العرب وكيف وصلوا إلى تحديده فيشير إلى حادث المأمون عند ما طلب من علمائه الرياضيين قياس درجة من درجات محيط الكرة الأرضية فإذا مقدارها ٥٧ ميلا عربيا ، وفى رواية أخرى أن مقدارها ٥٦

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر جـ ١ ص ٧٢

(٢) نفس المصدر والصفحة — لسان العرب جـ ٤ ص ٥٣

(٣) لسان العرب جـ ٤ ص ٥٣ (٤) نفس المصدر والصفحة

(٥) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٦٠٩

(٦) النهاية فى غريب الحديث والأثر جـ ١ ص ٧٢

(٧) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ٢ ص ٣٤٨ — لسان العرب ص ٥٣٤

وثلثاى ميلا ، ويرى البعض أن الميل العربى يساوى ٢٠٠٠ متراً أو ٢١٨٦ ياردة انجليزية وليس عندنا قياس تركه العرب على وجه الدقة عن الميل والذراع ، وقد اعتبر شبرنجر طول الميل العربى أنه يزيد عن الميل الإنجليزى بمقدار ٣٥٧ ، قدم وقد قدر المقدسى الفرسخ الواحد بثلاثة أميال عربية أو ساعة طريق والمرحلة فى صحراء سوريا والعراق بأثنى عشر ميلا والمرحلة فى سوريا وخراسان بستة أميال والسائر المجد يقطع فى اليوم ستة فراسخ وسبعا[٢] .

(٢) البريد عند الجماعات والأمم القديمة : لا شك أن نظام البريد بمعنى تبادل الأخبار والرسائل الشفوية والمكتوبة بين فرد وآخر فى مكانين متباعدين أو بين جماعة وأخرى من الأنظمة التى تأخر ظهورها فى الجماعة البشرية ، ولم تبدأ خطواتها الأولى فى أبسط صورها وأصغر معانيها إلا بعد محاولات واجتياز عدة حلقات من تدرج الإنسان فى سبيل المدنيـة والعمران . فهذا الإنسان القديم الذى كان يعيش بنفسه على الفطرة يتلمس الرزق من الصيد والقنص محاطا بأسرة مؤلفا بذلك وحدة مستقلة ، قلما كان يدور بخاطره فكرة الاتصال بإنسان آخر لأى غرض من الأغراض ، إلا أن يكون السطو والاعتداء عليه ، معتبرا العزلة ضرورة من ضرورات حياته ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتبار طواعية لاتساع نطاق الأسرة الذى بدأ يوجد بذرة العمران رويدا رويدا ، وما تحمله فى طياتها من تعاون بين أفراد الجنس البشرى . . وتدرجت الإنسانية بعد ذلك فى سلم الارتقاء ، فكان التفكير فى صنع الآلات ، وكان الالتصاق بالأرض والاستقرار فى أماكن معينة منها ، وما استتبعه ذلك الاستقرار من خلق فكرة الحكومة التى يتعين عليها الدفاع عن سلامة المجموع ضد غارات المغير من الأجانب من القبائل المنافسة أو العناصر الأقل تمدنا . . . ومنذ ذلك اليوم الذى فكر فيه زعيم القبيلة الحاذق أن خير وسيلة يدفع بها الأذى عن قبيلته ، هو وضع الحراس على أطراف منطقة قبيلته لإنذاره بالغارات الأجنبية قبل حدوثها ليتقى شر المباغتة ، ويتخذ الأهبة للدفاع . . . منذ ذلك اليوم وقد وضعت اللبنة الأولى فى نظام البريد ، وعلى مر الزمن ذهب بعض الزعماء خطوة أبعد من ذلك ، إذ وجدوا أن إنذار طلائعهم الساهرين فى حدود منطقتهم لا يفى بالغرض المقصود ، ولا يسمح لهم بالوقت الكافى للاستعداد ، والأجدر بهم أن يبثوا العيون والأرصاد على حدود القبائل المجاورة لتنذرهم

(١) مقدمة Sprenger
انظر ملحق الرسالة عن المقياس الطولى عند العرب

بالخطر فى أدواره الأولى ، فيتاح لهم فرصة أوسع للاستعداد والتهيؤ للدفاع . هذه الجاسوسية البدائية هى خالقة فكرة البريد فى معناه القديم ؛ وليس أدل على ذلك من بقاء الجاسوسية جزأ حيويا فى نظام البريد ، حتى بعد أن تطور وصار يشمل أغراضا أخرى فى حياة الأمم القديمة الكبرى : كالهند والصين والفرس واليونان والرومان ثم العرب فيما بعد .

وليس هذا التصور الذى تصورناه لنشأة نظام البريد سوى ضربا من ضروب الخيال بطبيعة الحال على أن الذى نقرره فى تأكيد هو أن السلطة الحكومية فى أخشن مظاهرها أو بالأحرى فى صورتها البدائية هى التى شعرت بأن من لوازمها أن تتلقى أخبار بعض ما يجرى فى مكان آخر ، وعملية نقل الأخبار هذه هى لب نظام البريد فى العصور القديمة ، فالحكومة وليس الأفراد هى المنشئة لنظام البريد ، فلم يكن للأفراد فى أى جماعة من الجماعات القديمة أى نشاط من شأنه خلق التراسل ، فقد كانت كل جماعة تعيش فى حيز محدود من الأرض ، فى استطاعة كل فرد فيها أن يذرعه على قدميه من مشرقه إلى مغربه ، ولم يكن لدى الأفراد من الشواغل والموانع ما يحول دون مشافهة فرد لفرد آخر . . وقد كانت كل جماعة تؤلف وحدة مستقلة تكاد لا تتصل بما يجاورها من جماعات إلا اتصال المنافسة والعداء ، فكان من الطبيعى ألا يكون لأى فرد من جماعة أدنى اتصال بفرد فى جماعة أخرى ، وحسب الإنسان أن يتصور المجتمعات القديمة فى مصر وفى اليونان وفى الفرس ، حيث يجد كل مدينة تنطوى على نفسها متحصنة خلف أسوارها مقطوعة الصلة عن كل ما يجاورها ، لها لغتها الخاصة وتقاليدها وعاداتها ورئيسها ، بل ومعبودها الخاص وشعارها . . . على أن تطور البشر رويدا رويدا ، وإخلاد القبائل إلى الاستقرار قد دفعهم نحو الرغبة فى السلام دفعا ، فجاش فى صدر زعيم من الزعماء أنه من الخير له ولعشيرته ومدينته أن يتراضى مع جيرانه الذين لا ينفكون يشنون عليه الغارات ، فأوفد لهم مندوبا من قبله يدعوهم للتفاهم والتفاوض على احترام كل من الجارين لجاره ، ولم يكن هذا المندوب الأول فى الواقع إلا رائد أصحاب الرفعة والسعادة من سفراء[١] العصر الحاضر ؛ كما كان أول ساع من سعاة البريد بالمعنى الفنى ، فقد كان يحمل أول رسالة من زعيم إلى أخيه زعيم القبيلة الأخرى يبلغه

(١) شبه Henri Lammens (ص ٣٢١) صاحب البريد فى الدولة الإسلامية بسفراء الدول الأوربية الذين ترسلهم حكوماتهم إلى بعض المستعمرات لمراقبة ملوكها الوطنيين ومشاركتهم فى الإشراف على حكوماتهم .

فيها تحياته واحتراماته ، ويدعوه فيها لما يعود بالخير والنفع على القبيلتين . وهكذا وجد الوجه الثانى من أوجه نشاط البريد لأغراض السلم .

(٣) نصيب الأفراد من نظام البريد : قد يلاحظ القارىء اهتمامى بتحليل الحوافز والعوامل التى أدت إلى الإحساس بضرورة نقل الأخبار ثم الرسائل ضاغطا على القول بأنها ثمرة من ثمرات النظام الحكومى فى أبسط صورة لأننا سنرى فى كل الفصول المقبلة أن البريد سيظل دائما أبدا من أخص خصائص السلطة الحكومية ، سيظل إلى عصور متأخرة جدا وقفا عليها ، وسنرى أن كل تنظيم للبريد وأعماله ليس له إلا غاية واحدة وهى أن يظل الحاكم على اتصال مستمر بعماله فى أنحاء المملكة مراقبا لما يجرى فيها وأن يكون أكثر قدرة على حكمها فى الداخل والدفاع عنها فى الخارج . أما الجمهور وأفراد الشعب فليس لهم أى سبيل للاستفادة من الأنظمة المحكمة السريعة لنقل البريد والرسائل كما هو الحال فى العصر الحاضر حيث تطغى رسائل الأفراد على رسائل الحكومة فى الداخل والخارج ؛ فلا تكاد تبذل مصلحة البريد من الجهد لنقل الرسائل الحكومية إلا جزء من مائة جزء ما تبذله لنقل رسائل الجمهور وأفراد الشعب ، فإذا لم ندرك منذ الآن أن هذا الانقلاب فى موضوع نشاط البريد ليس إلا مظهرا من مظاهر التطور البشرى الحديث ، وآية من آيات العصر الحاضر الذى تطورت فيه الإنسانية تطورا منقطع النظير ، فإنى أخشى عندما نصل إلى استعراض نظام البريد فى الدولة الإسلامية أن نرميه بالقصور والتخلف لمحض اقتصاره على المصلحة الحكومية ؛ فيجب أن نفهم أن البريد قد نشأ لحاجة من حاجات السلطة الحكومية وظل كذلك محصوراً فى هذا النطاق لدى جميع الدول القديمة السابقة على الدولة الإسلامية بل وفى الدول الحديثة أيضا إلى ما قبل قرنين أو ثلاثة .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك وجود للرسائل الخاصة أبدا ، بل لقد نشأت الرسائل الخاصة وتكاثرت بمجرد استتباب السلام بين الجماعات المختلفة وتبادل المنافع فيما بينها مما انتهى حتما إلى اختلاط التجار من هنا وهناك وإقامتهم لمدد مؤقتة أو دائمة فى هذه الجماعة أو تلك ، فلما اتسعت رقعة العمران وانساح الناس ضاربين فى سائر الاتجاهات أصبح من المتعذر عليهم الاتصال المباشر فى كل وقت وآن بمساقط رؤوسهم ، فبدأت الحاجة للتراسل بل والتراسل المنظم كما هو الشأن فى وقتنا الحاضر ؛ على أن ذلك لم يؤثر عن قريب أو بعيد فى تطور نظام البريد ، فقد كان كل فرد يسعى لإيصال رسائله بوسائله الخاصة إلى المرسل إليه ، فإذا عن له أن يرسل رسالة لشخص آخر فى

بلد بعيد وكان غنيا فما عليه إلا أن يرسل ساعيا من قبله يسير على قدميه أو يمنحه دابة يمتطيها فيؤدى الرسالة ويعود إلى سيده . وإن كانت ظروفه المالية لا تمكنه من ذلك أو الذهاب بنفسه فإنه يلجأ عادة إلى الانتظار والتربص ريثما يوفق إلى معرفة شخص يقصد هذا البلد فيعهد إليه برسالته لإيصالها إلى مستقرها ، وغير ذلك لم يكن ثمة وسيلة لإبلاغ الرسالة . وقد ظل هذا هو الأسلوب المتبع حتى فى أوج الحضارة الإسلامية عندما تم إنشاء مصلحة بريد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى فلم يكن أمام التاجر الذى يريد أن يبعث برسالة أو بمبلغ من المال إلا أن يبعث بها مع رسول خاص أو شخص من معارفه قد يتفق أن يكون مسافرا إلى نفس البلدة ، فإذا لم يكن هناك أحد من ذوى معرفته فما عليه إلا أن يخرج إلى ظاهر المدينة فى انتظار القافلة المسافرة إلى البلد المقصود ليعهد برسالته أو أمانته إلى رئيسها أو واحد من أفرادها إما على سبيل التطوع والتبرع أو على سبيل المقارضة والاتفاق على جعل معلوم ، ولا يزال هذا هو أسلوب أعراب البادية فى نقل أخبار رسائلهم فى طول هذا الخضم من الصحراء وعرضه .

ولذلك فيجب أن نوفر على أنفسنا منذ الآن مؤونة البحث فى نظم البريد القديمة عن مدى استعماله فى مصالح الأفراد الخاصة فلقد جهدت نفسى إجهادا شديدا خلف هذه الغاية ، وفرضت أننى لا أستطيع أن أصف نظام البريد عند العرب بالتطور والارتقاء إلا إذا حققت مدى استعماله فى الشئون الخاصة ، ولكنى رجعت من بحثى بصفقة المغبون ، لم أجد سوى عبارات قليلة شاردة هنا وهناك ، حاولت أن أفسرها لتحقق غرضى ولكنى أدركت أننى أتعسف التفسير وأنه خير لى أن أقرر بصورة قاطعة أن نظام البريد فى القديم إلى عهد الدولة الإسلامية المتأخر كان ينظر إليه كمظهر من مظاهر السلطة المحضة وأن مرجع ذلك هو الضروريات الأولية التى أدت إلى ظهور نظام البريد .

(٤) البريد عند الفراعنة : لسنا الآن فى صدد التعرض لمصر القديمة وتاريخها بين المدنيات القديمة وهل كانت سابقة على بعضها أم لاحقة عليها ، وهل كانت مصر القديمة هى ينبوع المدنية الأول أم فاض هذا النبع من بلاد الهند على بعض الآراء ومن آشور وبابل على بعض الآراء الأخرى . فسواء كان الأمر هذا أو ذاك فليس ثمة جدال أو نقاش فى أن التاريخ المصرى هو أقدم تاريخ محقق ومضبوط ، وأن أقدم وثائق يملكها البشر فى العصر الحديث عن العصور الممعنة فى القدم هى وثائق عن التاريخ المصرى ، وهى

ليست وثائق مكتوبة على الورق البالى ولـكنها وثائق قد نحتت على الصخور الفولاذية ، نحتت ونظمت بحيث فاقت الجبال شموخا وثباتا وروعة وبهاء . وليس أهرام الجيزة إحدى عجائب العالم السبع القيمة إلا وثيقة من هذه الوثائق التى تتحدث بأجلى بيان أن قد كانت على ضفاف النيل منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح مدنية من أرقى المدنيات التى استطاعت أن ترفع هذا البناء الذى يحار العقل فى قدرة هذه العقول التى صممته ، والقوى التى رفعته ، والأيدى التى نحتته ، والنظام الـكامل الدقيق الذى تهيأ فى ظله القيام بمثل هـذا العمل الفذ فى تاريخ العمران وغنى عن البيان أن هـذه المدنية قد احتاجت للوصول إلى هـذه الذروة إلى بضعة آلاف أخرى من السنين سابقة على بناء الأهرام وهـذا ما يرجح القول بأن وادى النيل الخصيب كان أول مسرح من المسارح التى مثلت عليه الإنسانية قصة تطورها منذ كانت تعيش فى الـكهوف والأدغال أقرب ما تـكون إلى الحيوان إلى أن صارت دولة كأرقى ما تـكون عليه الدول فى الحضارة والعمران . فلا عجب إن كان نظام البريد فى ظل هـذه الدولة المصرية كأ كمل ما يكون من حيث الدقة والنظام . ولسنا فى حاجة لتقديم الدليل على ذلك فإن مقتضيات الأحوال تؤدى إليه ، فبعد أن صارت مصر قطرا واحدا من البحر حتى الشلال وأصبحت تحـكم من عاصمة الملك فى منف أو طيبة فلا بد من اعتماد ذلك على نظام محـكم للبريد الفرعونى .

على أن أول وثيقة جاء بها ذكر البريد يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية عشر (حوالى ٢٠٠٠ ق م) وهى وصية كاتب لولده يظهره فيها على أهمية صناعة الـكتابة والمستقبل المجيد الذى ينتظر الـكاتب فى وظائف الحـكومة ، ويتحدث فيها عن بؤس أصحاب الحرف والصناعات الأخرى مما ينطبق تماما على معنى الصور الساحرة التى وجدت فى بنى حسن . فقد قال هذا الـكاتب ضمن ما قال : «أما ساعى البريد فإنه يحمل أثقالا فادحة ويكتب وصيته قبل أن ينطلق فى مهمته ، توقعا لما قد يصيبه من الوحوش والأسيويين»(١) . وواضح من هـذا النص أن البريد كان موجودا عند الفراعنة منذ الدولة القديمة وأنهم تمـكنوا عن طريقه من الاتصال بالعالم الخارجى . إلا أنه كانت تعوزه الطرق السابلة بالأمن والمتزودة بالمحطات ووسائل الراحة كما كان الحال عند الرومان والفرس مثلا ؛ ولم يكن هذا النقص فى طرق المواصلات عن قصور الفراعنة وجهلهم بفن الطرق وإنما قسوة الطبيعة فى ذلك العصر وتحـكم العوامل الجغرافية

---

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٢٠ — انفرد هذا المرجع بتلك الوثيقة

فى نظمهم هى التى حالت دون إكمال هـذا العيب . فتنظيم طريق للمواصلات فى هذا العصر كان يعد مجهودا ضائعا فى بلاد تغطى بالفيضان معظم السنة ولذلك يقول هيرودوت « عندما يفيض النيل على البلاد لا تظهر إلا المدن فقط من وسط الماء ويكون مثلها كمثل الجزر الصغيرة فى بحر إيجه . وباقى مصر يصير بحرا وعندما يحدث ذلك فإن القوارب لا تمشى فى مجرى النهر الطبيعى بل تسير فى طول السهل وعرضه فالمسافر من نقراش متجها منف يمر بالضبط بالقرب من الأهرام »(١) وعليه لم تـكن تسمح طرق المواصلات للسلطة المركزية بأن تقوم بتحقيقات مستفيضة مع حكام المقاطعات الذين أعطوا سلطة واسعة فى عهد الفراعنة الضعفاء ، وبدأوا يعملون على الاستقلال من التاج ولعل أقدم وأهم مجموعة وصلت إلينا من الرسائل مجموعة رسائل تل العمارنة المـكتوبة بالخط المسمارى ، وهى فى الواقع عبارة عن سجل للمراسلات السياسية نقلها أمنحتب الرابع سنة ١٣٦٤ ق م Amenophis من طيبة إلى أخيتاتون (تل العمارنة) عاصمته الجديدة وقد تبودلت هذه الرسائل بين أمنحتب الثالث والرابع (١٤٠٥ — ١٣٥٢ق م) وبين ملوك الحيثيين وآشور وبابل وقبرص وصقلية وهى تثبت أن فراعنة مصر كانوا يستخدمون كتابا يجيدون اللغات المعروفة وقتذاك(٢) من ذلك يستدل على أن الفراعنة قد نظموا بريدا داخليا وخارجيا اتسع نطاقه أيام الدولة الحديثة وجابت سعاته العالم القديم المعروف حينذاك . ولـكن ذلك مالا يستطاع القطع فيه برأى للافتقار إلى الوثائق والإيضاحات ولـكن يفهم من المتواتر فى كتب التاريخ وما كتبه الباحثون أن الفراعنة كانوا يرسلون سعاة البريد إلى حيفا والشام وكنعان والحبشة وأنه كان يتعين على هؤلاء السعاة أن يتقنوا لغات البلاد التى يحملون إليها الرسائل . أما الرسائل الرسمية الداخلية فـكان لها بريد منظم وكان يتولى نقلها سعاة معروفون بالأمانة . وأما بريد الجمهور فلم يكن له نظام بذاته لأن الفراعنة لم ينشئوا إدارة للبريد بالمعنى الذى نفهمه اليوم بل كان الأغنياء يبعثون برسائلهم مع عبيدهم وكان الفقراء ينتهزون هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد(٣) .

وقد رأى بعض المؤرخين(٤) أن قصور المصريين عن ترتيبهم البريد يرجع لأمرين :

---

(١) مصر القديمة للأستاذ سليم حسن ج ٢ ص ٢٢١
راجع المراسلات البريديه بين أمنحتب الرابع وعماله فى سوريا بالمتحف المصرى بالحجرة رقم ٣ بالدور الأول تحت البطاقات من رقم ١١٩٣ إلى ١١٩٧ .
(٢) تاريخ البريد فى مصر ص ٢١ — انفرد بالخبر
(٣) نفس المصدر السابق والصفحة　　　(٤) الطائر الفريد ص ١٦٨

الأول أن غنى البلاد بعلومها وخصب أرضها جعل فى الأهالى ميلا إلى السكون وتجنب الغربة للاتجار أو اكتساب الفنون التى من أهم حاجاتها التراسل . والثانى أن تسلط آراء الكهنة واستبدادهم بالعلوم منع الأهالى من التعليم والحكام من افتتاح طرقها وتوسيع نطاقها بواسطة التراسل بالبريد . وإذا ناقشنا هذا القول اتضح لنا فساد الأمر الأول لمنافاته للواقع والتاريخ ، فالأمم عادة إذا ما شعرت بالرخاء والسعادة رغبت فى التوسع والاستعمار الاقتصادى والسياسى ، فالفراعنة رغم خصوبة أرضهم وغناها ، اشتغلوا بالتجارة واهتموا بطرقها وسفنها ، فالملكة حاتشبسوت أرسلت بعثة تجارية إلى بلاد بنت بقصد الاتجار معهم ، والملك نخاو الأول اهتم بكشف سواحل أفريقية فأرسل أسطوله للطواف حولها ، أما الأمر الثانى فقد يكون فيه شىء من الصحة إذا ما عرفنا أن اهتمام ملوك الأسرة الخامسة والملك أمنحتب الرابع بالمسائل الدينية أدى إلى إهمالهم ورجال حكوماتهم النظم الحكومية ، فانفرط عقد الأمور فى الحكومة المركزية وانقطعت الصلة بينها وبين حكوماتها المحلية .

ويغلب على الظن مما تقدم أن الحمار قام بدور هام فى المواصلات البرية ، خصوصا فى عصر الدولة القديمة يوم أن كان دابة الحمل العادية لصبره وتحمله ، وقد استعمل منذ أقدم العصور فى القوافل والبعوث التى كان يرسلها الملوك إلى الجهات النائية[١] . مما يثبت قطعا تخصيص الفراعنة للبريد دوابا[٢] تقوم بحمله خارج القطر وداخله . هذا إلى جانب استخدامهم لسعاة القدم الذين كانوا يتبعون ضفق النيل فى رواحهم وغدوهم فى داخل البلاد ، ويسلكون إلى الخارج الطرق التى تسلكها القوافل والجيوش[٣] .

(٥) البريد عند البطالمة : يغلب على الظن مما تقدم أن مصر لم تعط نظام البريد حقه كما نبتغى ونشتهى ، حتى غزاها الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد . وكانوا قد عرفوا البريد فى دولتهم ونظموا له دوابه ورجاله كما سنرى بعد ، فلا بد وأن يكونوا قد أدخلوا بعض التحسينات على البريد الفرعونى ، فوجد البطالمة إذن فيما بعد نواة هذا النظام فتعهدوه بالعناية والرعاية . وقد سجلت مصلحة البريد المصرية يوم انعقاد مؤتمر

(١) مصر القديمة للأستاذ سليم حسن ج ٢ ص ٢٢١

(٢) أما الحصان فلم يدخل مصر إلا مع الهكسوس الذين جلبوه معهم من أواسط آسيا فى القرن ١٨ ق م فهو حيوان شرقى كما أطلق عليه البعض "The beast from the East." Combridge Anc. Hist. Vol. 2 p 227 والجمل هو الآخر لم يعرفه المصريون إلا عند دخوله مع الاسكندر .

(٣) تاريخ البريد فى مصر ص ٢١

البريد العالمى بالقاهرة سنة ١٩٣٤ ، ما بذله ملوك البطالمة من جهد مشكور فى المحافظة على هذا النوع من الأنظمة الحكومية ، والاهتمام بسعاة البريد ومواعيد سفره إذ أشارت المصلحة المذكورة[١] إلى وثيقتين تاريخيتين على جانب عظيم من الأهمية ترجعان إلى هذا العهد ، تبين إحداهما نظام البريد السريع لنقل رسائل الملك ووزيره الأكبر وموظفى الدولة ، وتبين الثانية نظام البريد البطىء الذى استخدم فى نقل البريد بين الموظفين فى داخلية البلاد .

فأما الوثيقة الأولى : فهى ورقة بردى وجدت فى إحدى القرى المصرية ، وظهر أنها جزء من سجل كان يستعمله رئيس مكتب البريد فى بلد بالفيوم لقيد عدد المراسلات الصادرة من الملك والواردة إليه ووزيره وكبار الموظفين . وفى هذه الوثيقة التاريخية الهامة الدليل الكافى على انتظام البريد فى عهد البطالمة . ولم يذكر فى هذه الوثيقة تاريخ معين ، وإنما جاء بها ذكر رسائل وردت باسم وزير المالية أبولونيس ، ولما كان قد تقرر من مصادر أخرى أن هذا الوزير عاش فى المدة بين السنة السابعة والعشرين والسنة الثانية والثلاثين من حكم بطليموس فلادلفوس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فإن هذه الوثيقة لا بد أن تكون كتبت فى هذه الفترة ، وقد سجل رئيس مكتب البريد عدد الرسائل واللفات التى صدرت أو وردت إليه ، وذكر أمام كل إرسالية اسم الساعى الذى أرفقها وساعة وصولها أو خروجها ، والطريق التى سلكها فى الصعيد أو الدلتا . ومن ذلك أمكن الاستدلال على أنه كان بمكتب البريد أربعة سعاة يتناوبون العمل ، اثنان لنقل البريد شمالا ، واثنان لنقله جنوبا . وأنه كانت تمر بالمكتب المذكور أربع إرساليات يوميا . الأولى صباحا فى الساعة السادسة من الجنوب إلى الشمال ، والثانية ظهرا من الشمال إلى الجنوب ، والثالثة والرابعة مساء من الشمال إلى الجنوب فى الساعة الخامسة ، ومن الجنوب إلى الشمال فى الساعة السادسة . . . وأما المدة المقررة لنقل إرسالية البريد من هذا المكتب إلى المكتب الذى يليه فكانت ست ساعات ذهابا ومثلها إيابا .

وقد لوحظ أن الخطابات المرسلة إلى الملك لم يذكر بها غير اسمه وذلك دليل على أن موظفى البريد كانوا يعلمون محل وجوده حتى لو غادر الإسكندرية فى سياحة . أما رسائل الملك إلى كبار رجال الدولة فى هوقيوبوليس أو طيبة فكانت تذكر بها جهة الإرسال . وأما الخطابات الأخرى التى لم تذكر بها الجهة فكان مفهوما أنها مرسلة إلى الإسكندرية ؛ وذلك بخلاف الخطابات المرسلة إلى الجنوب فكان لابد فيها من ذكر اسم المرسل إليه

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٢٢ — ٢٩

وعنوانه . ومما يستوقف النظر فى تلك الوثيقة وجود اسم شخص لاصلة له بأعمال البريد ، وقد ذكر أمام الاسم أن صاحبه دفع مبلغا من المال مما يدل على أن هذا الرجل لم يكن من موظفى الحكومة ، وإلا لأرسل خطاباته بدون مقابل وأنه لم يدفع هذا المبلغ لنقل مراسلاته لأن هذا البريد السريع كان خاصا بنقل رسائل الملك ووزير المالية وكبار الموظفين . وإذن لابد أن يكون الرجل قد دفع هذا المبلغ على سبيل الغرامة لأنه لم يقدم لسعاة البريد الخيل والطعام ، فقد كان سعاة البريد السريع يستخدمون الجياد ، ومن المرجح أن إعداد الجياد كان فرضا لازما على أصحاب الإقطاعيات .

وحسبك دليلا على سرعة البريد المستعجل فى زمن البطالمة أن خطابا أرسل إلى الإسكندرية من بلد فى الفيوم فبلغها بعد أربعة أيام . مما يفيد أن البطالمة أنشأوا بريدا سريعا منتظما لنقل الرسائل الرسمية ، وأن مكاتب ومحاط البريد كانت منتشرة على طول الطرق بين المدن الهامة وحاضرة الدولة ، وأنه كان يوجد لكل مكتب عدد من السعاة الراكبين يتولون نقل البريد شمالا أو جنوبا عقب وصوله من المحطة السابقة أو اللاحقة ، وأن موظفا كبيرا فى كل مكتب كان يتولى قيد الرسائل وساعات إرسالها أو ورودها وأسماء السعاة الذين رافقوا الإرساليات وأن أصحاب الإقطاعيات كانوا فى الغالب مكلفين بتقديم الجياد وتسهيل عمل موظفى البريد .

أما البريد البطىء فقد نصت عليه الوثيقة الثانية المعروفة باسم بردى Oxgrhgnchos 710 ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى سنة ١١١ ق م . ومنها نستدل على أنه كان يوجد بإحدى المقاطعات مكتب للبريد يعمل فيه رئيس و ٢٤ ساعيا وجمالا وشرطيا . فكان رئيس المكتب مكلفا بقيد المراسلات والاهتمام بالموظفين والدواب . أما الجمال فكان ينقل الطرود الثقيلة التى لايستطيع نقلها سعاة القدم الأربعة والعشرون ويحتمل أن تكون مهمة الشرطى قد اقتصرت على مرافقة الجمال للمحافظة على الطرود . ويغلب أن يكون هذا البريد قد استخدم فى نقل المراسلات فى داخلية البلاد ومن حاضرة إحدى الإقطاعيات إلى حاضرة الإقطاعية الأخرى ؛ ولكننا لا نعلم هل كانت له مواعيد معينة أم كان السعاة المشاة يرسلون عند اللزوم . كما أننا نفتقر إلى المزيد من المعلومات عن بريد الجمل فى هذا العصر ، وإن كان ذكر هذا البريد قد ورد فى كثير من البردى الذى تخلف عن العهد الرومانى ، ولكننا نفهم من وجود جمل واحد فى مكاتب البريد أن الإرساليات كانت تنقل مرة فى اليوم على الأكثر . ومن الثابت أن المراسلات الخاصة لم تكن تنقل بالبريد السريع وأن الأهالى كانوا ينتهزون فرصة سفر أحد أقاربهم

أو معارفهم إلى بلد لينوطوا به نقل مراسلاتهم إلى ذلك البلد . وهذا هو السبب فى أن أكثر الخطابات الخاصة التى يرجع تاريخها إلى عهد البطالمة كانت تستهل دائما بهذه الكلمات « إننى أنتهز فرصة سفر فلان لأبعث معه بهذه الرسالة وأنبئكم بأن ... »

ويوجد الآن فى متحف البريد ببرلين وثيقة تاريخية ترجع إلى عصر البطالمة وهى عبارة عن قائمة من الرسائل والملفات الواردة إلى البلاط الملكى(١).

(٦) البريد عند الرومان : لقد اختلفت الروايات التاريخية فى تقرير ابتداء نشأة البريد عند الرومان ، فمنها من نسب أول ترتيبه إلى يوليوس قيصر ، ومنها من قال بوجوده أيام الجمهورية الرومانية القديمة . ولكن يغلب على الظن أنه لم يكن مرتبا فيها بنوع عام ، وإن كان لأمراء البلاد برد كثيرة مختصة بمراسلاتهم ، وقد قال البعض بوجوده عند الرومان قبل ميلاد المسيح بقرن(٢) ، بينما قال الآخرون بنشأته فى أوائل القرن الأول الميلادى ، حيث أقاموا شبكة من مراكز البريد تتراوح المسافة بين كل مركز وآخر بخمسة أو ستة أميال ، وبكل محطة أربعون من خيل البريد يقطع المسافر بفضلها يوميا مائة من الأميال(٣) . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فى تقرير ابتداء نشأة البريد عند الرومان ، فإن أباطرتهم أدركوا ما للبريد من أهمية سياسية وحربية وإدارية فعنوا بتنظيمه فى أمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، وعرف عندهم باسم Cursus publicus(٤) .

ومما يؤثر عن يوليوس قيصر أثناء إقامته ببريطانيا أنه أرسل خطابين إلى شيشرون فى روما . وصل أولهما بعد مضى ثمانية وعشرين يوما ، وهذا يدل على مدى السرعة التى وصل إليها البريد فى عهده ، ومدى عنايته بنظام المراسلات ، وقد وضع قيصر فى مذكراته نظام المراسلة السريع فى استخدامه لدى الغاليين ، إذ رتب السعاه على مسافات معينة ، يعدو الأول بكل قواه إلى الثانى فيحمل هذا الرسالة بنفس السرعة إلى الثالث وهكذا حتى الأخير ، وكانت الأخبار والأوامر ترسل من نقطة إلى أخرى بسرعة مقطوعة النظير ، فمثلا ما يحدث فى أورليان يعرف فى مساء اليوم نفسه عند الأرفرن Lesarvernes فى أوفرن Auvergne(٥) .

---

(١) Encyclopaedia Britannica Vol. 183P. 303

(٢) الطائر الفريد ص ١٠٩ (٣) Gibbons vol. I. P. 45

(٤) Ladministration civile deL. .Égypte Byzantine . 113 دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ ص ٦١٠

(٥) Pirre Larousse Vol 12. P. 15 co. oeus

وبلغ البريد الرومانى أعظم مبلغ من الدقة فى عهد الأمبراطور دقلديانوس الذى أقام المراقبين Curiosi Cursus publici على عمال البريد ومحطاته ، وأجاز لهم إبلاغ المخالفات إلى رؤساء الشرطة أو الأمبراطور ذاته[١] . وقد حاول أوغسطس إصلاح البوليس عن طريق استخدام عربات البريد فكثيرا ما كان يجتمع عمال البريد من جهات وأماكن مختلفة فى عربة واحدة . فيسأل أحدهم الآخر عن الأحوال العامة فى مقاطعته وما تتطلبه من إصلاح فى الأمن والإدارة[٢] . وتوسع دقلديانوس فى نظام البريد فخصص نوعا منه للادارة ، وآخر للشئون الحربية ، وثالث للأفراد ، وقد أفاد البريد الحربى تراجان عندما أراد أن يؤمن الاتصال بين الفصائل الحربيـة التى وزعها على أطراف الأمبراطورية ، فأنشأ مراكز البريد وزودها بالحراس والخيول[٣] . وحرم على كبار رجال الدولة وأعيانها السفر عن طريق ال Public post فكان لهذا التحريم وقع حسن فى نفوس ساكنى الولايات[٤] . ولما انقسم العالم الرومانى إلى شرقى وغربى نال نظام البريد حظا وافراً من عناية أباطرة الدولة الشرقية سيما الأمبراطور قسطنطين وسرعان ما ظهر لديهم البريد السريع Cursus Velox لنقل رسائل الدولة ، والبريد البطىء Cursus Clabularis لنقل الأشياء الثقيلة[٥]. ولا أدل على عظمة البريد السريع عندهم من أن أحد حكام الأمبراطور تيودوسيوس Theodosius حمل على البريد من مدينة أنطاكية Antioch إلى القسطنطنية وقد بدأ رحلته ليلا من كابادوكيا Cappadocia فوصل إلى القسطنطينة فى ظهر اليوم السادس بعد أن قطع مسافة طولها ٦٦٥ ميلا[٦]

وفى العصور الوسطى أسندت بيزنطة إدارة بريدها إلى شخص كان يلقب The Logothete of the Dromos[٧] ولعل هذا اللقب يقابله فى العصر الإسلامى صاحب ديوان البريد وقد وصف ابن خرداذبة بريد الروم بقوله «وبريد الروم براذين لطاف محذفة الأذناب خفاف وحليتهم غرة إذا ركب الملك خيله وخيل أمرائه بباب الذهب وهى خيل بين فرسين عجلة ، عليها الغلمان الوصفاء قيام بالسماط ، وليس للروم فى عساكرهم أسواق إنما يحمل الرجل من منزله كعكه وزيته وخمره وجبنه[٨] » غير أن هذه الخيول استبدلت بالحمير

---

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٢٠

(٢) Pierre Larousse Vol. 12 P. 1500.

(٣) Gibbons Vol. 1 P. 638.

(٤) The Roman Sys. of Pr. Adm. P. 109.

(٥) تاريخ البريد فى مصر ص ٣٢

(٦) Gibbons Vol. 1 P. 46.

(٧) Camb. med. Hist. Vol. 4 P. 731.

(٨) ابن خرداذبة ص ١١١ .

فى عهد الأمبراطور جتنيان على أثر انحطاط البريد بالتدريج لعجز الولاة عن الانفاق على خيل البريد ومحطاته[١] .

ولم تقتصر مهمة عمال البريد الرومانى على نقل الرسائل الخصوصية والعمومية بل تعدتها إلى نقل الأسماك والأطعمة النادرة الآتية من مختلف أجزاء العالم . وكانت عجلات البريد بطبيعة الحال هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الرغبة الأمبراطورية ، كما أن هؤلاء العمال قاموا بعمل الجاسوسية الخطيرة المنظمة والمراقبة الدقيقة على ولاة الأقاليم ، وبلغ عددهم فى عهد الأمبراطور قسطنطين مائتى أو ثلثمائة عامل يرأسهم صاحب ديوان البريد ، وصل هذا العدد إلى العشرة آلاف فى عهد الأباطرة الضعاف ، وكثيرا ما اشتط هؤلاء العمال فى تقاريرهم عن مسلك حكام الولايات وبالتالى عن مسلك المواطنين أنفسهم . لذا حق على جيبون أن ينعتهم بعيون الأمبراطور الساهرة على مصالحه وإن كانت هذه العيون وبالا على عامة الناس[٢] وكان لما يغدقه البلاط الأمبراطورى من المنح والمكافآت المالية على هؤلاء الجواسيس أثر فعال فى تتبعهم بكل يقظة واهتمام علامات السخط والخيانة فى الولايات التى تنذر عادة بقيام الفتن والثورات بها ، فكانت مهامهم دائما مصوبة إلى كل من المذنب والبرىء . فالحاكم المخلص فى ولاية كسوريا أو بريطانيا مثلا معرض فى أى وقت لاتهاماتهم فيؤخذ مكبلا بالسلاسل والأغلال إلى ميلان أو القسطنطينية للدفاع عن حياته وماله إزاء ما وجه إليه من اتهامات خطيرة عن طريق هؤلاء الجواسيس . فليس من التعسف فى الرأى القول بأن نظام البريد عند الرومان كان موصوما بالجور والظلم وقد اتخذه الأباطرة سلاحا ماضيا لمعالجة الخلل الذى أصاب الأداة الحكومية سيما بعد أن زادت شكوكهم فى مدى إخلاص حكام الولايات لهم[٣] . وكان عمال البريد الرومانيين يحمل بعضهم أجراسا أو آلة تشبه الناقوس الصغير يقرعونها وقتا بعد آخر أو ينفخون بالصور وذلك إشارة إلى مرور البريد ، بينما يحمل الآخرون قطعة من البرنز بقدر الريال منقوش عليها اسم « بوستة » تمييزا لحاملها بنوع جامع بين اللياقة والمهابة ، وفى وقت سير البريد غير المستعجل كانوا يتناوبون الترنم بالأناشيد المتنوعة وهى أشبه بحداء العيس المعروف عند العرب . وإذا كانت مواعيد البريد متباعدة فإن مصالح البرد

---

(١) L' Administr ation civile de l' Egypte Byzantine p. 303 —
تاديخ البريد فى مصر ص٣٢

(٢) يشير جيبون في ذيل (ص٥٤٨) من الجزء الأول إلى أن أباطرة الرومان أخذوا نظام الجاسوسية عن الفرس وسيشاهد القارىء فى العصر الإسلامى عناية خلفاء المسلمين بالجاسوسية كما سيشاهد أيضاً حذوهم حذو الأباطرة فى جلب الأطعمة والفواكه من الولايات عن طريق البريد.

(٣) Gibbon Vol 1 p. 548

تطلق التنبيه بالمدينة عن يوم سفره ويوم وصوله ، وذلك بأن يطرق العامل جرسا يطنه فى كل نقط المدينة المهمة وحينما يجتمع عليه الناس يعلمهم بأعلى صوته عن وقت سفر البريد أو وصوله(١) .

وفى الوقت الذى أخذ فيه بريد الدولة فى الانحطاط والتدهور شرع كبار الملاك فى تنظيم بريد سريع لنقل مراسلاتهم الخاصة(٢) . ويقول بعض(٣) الباحثين أن بريد النبلاء والملوك وضع أيضا فى خدمة الأهالى ولـكن هذا القول يحتاج إلى الإثبات . وقد تخلفت عن العهد البيزنطى بمصر وثيقة هامة من بريد الملاك والنبلاء هو عقد يرجع تاريخه إلى سنة ٥٥٠ م مبرم بين رجل يدعى أوريليوس سيرجوس من منظمى الإصطبلات وبين نبيل من كبار الملاك فى بهنا يدعى فلاريوس سيرنيوس يتعهد فيه الأول بصفته « منظم اصطبلات الخيل للبريد السريع » بنقل مراسلات الثانى لمدة سنة واحدة ابتداء من أول شهر با كون . وذلك بكل سرعة وإخلاص وأمانة وبدون التورط فى ذنب أو خطأ وبلا تأخير إلا فى حالة المرض ، على أن يكون الأجر ٨٠ كم من الحنطة وتسع قطع من الذهب و٢٤ كم من النبيذ ... الخ . ويقرر أنه قبض سلفا نصف القطع الذهبية ويتعهد بألا يتخلى عن العمل طيلة المدة المتفق عليها وإذا فعل تعين أن يدفع ضعف المبلغ الذى قبضه سلفا ... من ذلك يتبين لنا مدى عناية كبار الملاك بتنظيم البريد وعليه تكون عناية الدولة أعظم شأنا وأجل خطرا . وبسقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب وتغلغل البرابرة فى شرايينها أصاب نظام البريد ما أصاب غيره من النظم الحـكومية الأخرى من مظاهر التدهور والانحطاط حتى أعاد ملوك القوط الغربيين تنظيمه من جديد خصوصا الملك تيودريك(٤) .

أما عن بريد اليونان فإن المصادر التاريخية التى وصلت إلينا لم تشر بقليل أو كثير عن اهتمامهم به غير أن بعضها قال إنهم كانوا يسمون بريدهم الخصوصى بما معناه «ملاك» نسبة إلى الملك جبرائيل الذى يحمل الأوامر الآلهية إلى الأنبياء والصالحين كما يسميه الصينيون « كوما » ومعناه جائب أو رائد على مايقال(٥) .

---

(٤) الطائر الفريد ص ٢١ ، ٢٤ ، ٩٤

L' Adm!nistratin civile de L' Egypte Byzantine p.203 (٢)

(٣) تاريخ البريد فى مصر ص ٣٢

Encyclopaedia Brit annica Vol. 18 p. 303 (٤)

ملحوظة : لنا عودة إلى الرومان فى الفصل الرابع عند الـكلام على طرق البريد .

(٥) الطائر الفريد ص ٤٧

(٧) البريد عند الفرس : أسس دولة الفرس القديمة الملك كورش Cyrus ولسنا نعرف بالضبط هل كان نظام البريد الموجود فى أيامه والذى لم يرد ذكره فى عهده إلا فى رواية واحدة(١) من ابتكاره الخاص أم نقله عن الدول القديمة السابقة لدولته ، فمن عبارات ديودورس المؤرخ اليونانى يفهم أن البريد كان مرتبا عند الصينيين فى القرن العاشر قبل الميلاد ، وعند الآشوريين والبابليين منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وأن يجوسيس لما تملك على الميديين رتب البريد فى القرن السابع قبل الميلاد ، فـكأن ما عمله كورش اعتبر من ضمن حذقه واجتهاده فى إدخال الإصلاح والتمدن للبلاد ليستميل قلوب الشعب إليه بواسطة ترتيب أمور لم يسبق لهم أن « تذوقوا لذتها من قبل(٢) » على أن التواريخ الأكثر تداولا قديما وحديثا تثبت أن أشهر البرد القانونية ما كان مرتبا عنـد الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن أول من رتبه الملك دارا الأول ابن قمبيز فهو الذى أقام فى سكك البريد دواب مقطوعة الأذناب سميت (بريد ذنب) وعنه ذهب البعض(٣) إلى إسناد أصل الـكلمة إلى الفرس كما سبق القول ثم سقطت دولة الفرس على يد الإسكندر سنة ٣٣١ ق م . وأعيد تأسيسها سنة ٢٢٦ م على يد ساسان مؤسس الأسرة الساسانية ، وأعاد كسرى أنو شروان تنظيم الأداة الحـكومية ومن بينها نظام البريد فأسند البعض خطأ ترتيب البريد الفارسى إليـه ؛ مع أننا نرجح إسناد ترتيب البريد الفارسى بمعناه المفهوم اليوم إلى دارا الذى جعل له دواب خصوصية مبتورة الذنب تمييزا عن غيرها فسميت « بريد ذنب » أى مبتورة الذنب فلما عربت حذف جزؤها الأخير فقالوا بريد(٤) ويؤيد هذا الترجيح بقاء اسمه الفارسى المتداول بين العالم إلى الآن نسبة إلى دوابه الخصوصية . . ولما كان الغرض الأساسى من إيجاد نظام البريد خدمة مصالح الدولة لا مصالح الأفراد(٥) . كان لزاما على ملوك الفرس أن يفردوا ديوانا خاصا للبريد ليتأكدوا من دوام وسرعة إيصال الأخبار من الحـكومات المحلية إلى الحـكومة المركزية كما يفهم من عبارة المسعودى(٦) « وكان لأنو شروان خواتيم أربعة : خاتم للخراج فصه من العقيق نقشه العدل ، وخاتم للضياع فصه فيروزج نقشه العمارة ، وخاتم للمعونة فصه ياقوت كحلى نقشه التأنى ،

---

(١) Larousse Vol. 12 P. 1497 (٢) الطائر الفريد ص ٤٧

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٤٧ — دائرة معارف البستانى ج٥ ص ٤٠٠

(٤) الطائر الفريد ص ٥ (٥) Christensen P. 75

(٦) مروج الذهب ج ١ ص ٢٢٦، ٢٣٧

وخاتم للبريد فصه يا قوت أحمر كالنار نقشه الرجاء » . وإذا ما تحدث عن الملك أبرويز يقول : « وكان لأبرويز تسعة خواتيم تدوم فى أمر الملك . منها خاتم فصه يا قوت أحمر . . . ، . . . والخاتم الثالث فصه جزع نقشه فارسى وحلقته ذهب منقوش فيه ألوحا يختم به أجوبة البريد » . ومما يؤثر عن أبرويز أنه كتب إلى ابنه شيرويه ينصحه بمعاقبة من يتلكأ فى دفع الخراج واستخدام البريد كوسيلة من وسائل ضمان جباية الخراج وعدم تملص أحد من دفعه : « اجعل عقوبتك على اليسير من الخيانة كعقوبتك على الكثير منها . . وأبرد البريد فى الدرهم ينقص من الخراج ، ولا تعاقبن على شيء كعقوبتك على كسره(١) » . غير أن البلاذرى(٢) يشير إلى انضمام مصلحة الرسائل والرسل إلى المصالح الأخرى تحت إشراف صاحب الزمام « كان للملك من ملوك الفرس خاتم للسر وخاتم للرسل ، وخاتم للتخليد يختم به السجلات والأقطاعات وما أشبه ذلك من كتب التشريف ، وخاتم للخراج فكان صاحب الزمام يليها وربما أفرد بخاتم السر والرسائل رجل من خاصة الملك » ويفهم من هذه الإشارة أن ملوك الفرس اختصوا عنايتهم بصاحب الرسل والرسائل وكانوا يتحرون الدقة فى من يتولى وظيفة البريد لاعتبارها من الوظائف الهامة فى الدولة . ومما يؤثر عن كسرى أنه كان لا يولى البريد إلا أولاده(٣) . لضمان ثقته بهم واطمئنانه إلى سرعة إيصال أخبار الولايات إليه . . . وكان أكبر علامات عمال البريد فى الفرس كساء خيالة نقل البريد وهو قباء طويل أحمر اللون معلم بشريط أبيض وقلنسوة طويلة من الفرو الناصع البياض وكان العمال يظهرون بها بهيئة تهيج الناظرين (٤) .

ومما تجدر ملاحظته أن عمال البريد لم تقتصر مهمتهم على نقل الرسائل فقط بل كانوا مثقلين بعبء مراقبة الإدارة فى الولايات وكتابة التقارير إلى البلاط فكأنهم كانوا أشبه بالجاسوسية المنظمة فى عصرنا الحديث . ويحدثنا المسعودى(٥) عن أنوشروان أنه جلس يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم وحكمهم وتكلم كل واحد بما خص من الرأى فقال أحدهم : « أيها الملك أنا جامع لك ذلك فى اثنتى عشرة كلمة » ثم عددها حتى قال: « . . . والحادية عشرة إذكاء العيون فى الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ أهبته قبل هجومه » . والمقصود من كلمة العيون هنا من غير شك عمال البريد لأن الجاسوسية

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ١٤٢
(٢) فتوح البلدان ص ٢٦٤
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠
(٤) الطائر الفريد ص ٩٤
(٥) مروج الذهب ج ١ ص ٢٢٨

من طبيعة عملهم ولوازمه . وعليه تكون فارس قد أحكمت نظام الجاسوسية من أقدم العصور ، تلك الجاسوسية الخبيثة التى لم يكن فى استطاعة القضاة أنفسهم الإفلات والتملص من الوقوع تحت مراقبتها وشرها ، ويتضح لنا من خطاب Tensar مدى ما شعر به العظماء فى عهد خسرو الأول Khusraul من عبء تلك المراقبة السرية التى ولدت الخوف والدهشة لدى الناس أجمعين . وقد احتاطت الحكومة الملكية لهذا الأمر فعملت على حماية الجمهور من نظام الجاسوسية بتلك الوسيلة وهى « ألا يعين الملك عيونا أو شرطة إلا من الرجال المخلصين ، الخاضعين الأتقياء ، الأمناء ، المتعلمين ، المصلين ، الورعين ، الفضلاء ، على شريطة ألا يخبروه بشيء إلا إذا كان قد وقع تماما وموثوق فى صحته(١) .

بقى أن يتساءل القارىء هل عرف بنو إسرائيل البريد أم لا ؟ فنجيبه بأنه كان موجودا عندهم وتراسلوا بالحمام والمشاعل وسيرد الكلام عن ذلك فى موضعه . ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود فى العرب فإنى أقصر هذا التأثير على الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز لئلا نصل إلى المجازفة والمبالغة فى الحقائق التاريخية فيظن القارىء حقا أن العرب اقتبسوا عن اليهود من النظم الحكومية بقدر اقتباسهم عن الفرس والرومان مثلا .

هذا العرض الموجز عن البريد لدى الجماعات والأمم القديمة يعطينا فكرة واضحة عن مدلول هذا النظام ونشأته . والأمر الذى لا يحتاج إلى إثبات هو أن طرق التراسل قديمة جدا ولا يمكن تحديد زمن ابتدائها ، كما أن ترتيبها نشأ حكومياً عند المصريين أولا فالبابليين والآشوريين ثم الفرس فالرومان ، أى أن أمم الشرق كان لها شرف الأسبقية فى خلق هذا النظام والتفنن فى أساليبه وطرقه .

ولا يفوتنا أن نسرد ماروى عن بعض ملوك الشرق الأقدمين أنهم كانوا يأتون بالساعى ويحلقون رأسه ويكتبون عليه صورة الرسالة التى يريدون إرسالها فى وقت الحرب ثم يشمونه بالإبر كما توشم اليد فينطلق الساعى إلى رئيس الجيش ويخبره بأمره فيخلو به ويكشف عن رأسه فاذا أمكنه تلاوة ما كتب عليه قرأه وفهم الغرض منه وإذا حال دونه ظهور الشعر أمر بحلقه ثانية وقرأ الكتابة ثم يأمر بقطع رأس هذا الساعى المنكود الحظ وكشط جلده ودفنه سراً مخافة أن يقف أحد على هذا الأمر(٢) . على أن

(١) ChristensenP·75
(٢) الطائر الفريد ص ٧

هذه الطريقة كانت نادرة الحصول ولم يتخذها إلا العتاة عند إعياء الحيل ولم يبق لها الآن فى العالم المتمدن إلا أثر الخبر وان كانت توضح قدرة هؤلاء الجبابرة على التحايل والإفلات من حدوث المستحيلات قبل الممكنات .

انتهى الفصل الأول وهو فى نظرى أشبه بجمع مايمكن تسميته بالتراث الإنسانى عن البريد وصلنا إليه على أكتاف الغابرين ... ومهمتنا هضم عصارة ماجادت به تلك الأجيال السابقة حتى يتسنى لنا أن نلمس مظاهر النشاط الابتكارى فى العقلية العربية إزاء نظام البريد وهذا ما سيظهر واضحا جليا فى الفصول القادمة .

الفصل الثانى

البريد فى الدولة الإسلامية

انتهينا فى الفصل السابق إلى القول بأسناد نشأة ترتيب نظام البريد إلى الفرس الذين عنهم نقل الرومان ، إلا أنهم توسعوا فى ترتيبه ، واعتنوا بطرقه عناية فائقة كما ورد فى الفصل الرابع . وسنحاول فى هذا الفصل معالجة تاريخ البريد عند العرب ، وعن أى الدولتين الفارسية أم الرومانية أخذ العرب نظامه ، ولنبدأ أولا بكلمة عن بريد عرب الجاهلية .

(١) بريد الجاهلية : لما لم يكن للجاهليين تاريخ صحيح مدون ، ولما كانت أخبارهم قد وصلت إلينا عن الطريق التى تصل منها القصص والأساطير ، أعنى طريق الرواية والأحاديث فإن الكلام عن بريدهم سيكون من باب التصور والتخمين على نحو ماتخيلناه لدى القبائل القديمة ؛ على أن تصورنا فى هذه المرة سيكون أحسن حالا من سابقه ، لأنه سيستند على الشعر الجاهلى الذى يمكن اعتباره نصا تاريخيا له قيمة علمية كبيرة ، إذ كان مقامه عند العرب مقام الجرائد الآن ، يذيع الأخبار بينهم ويستعمل فى أخبارهم السياسية ، فلنتخذ منه إذن مادة للاستشهاد على وجود البريد عندهم ، فامرؤ القيس وهو شاعر جاهلى ومن قبيلة قحطانيه يمنية يقول : —

على كل مقصوص الذنابى معاود   بريد السرى بالليل من خيلى بربرا

وقال آخر: فدتك عراب اليوم أمى وخالتى   وناقتى الناجى إليك بريدها[1] .

وعلى ضوء هذين البيتين نستطيع أن نقتبس مادة تاريخية محترمة ، فعلاوة على إشارتهما إلى معرفة الجاهليين لكلمة بريد ، أقرر وأنا مطمئن أن اليمن هى الأخرى قد عرفته وكان نصيبها فيه لا يقل عن نصيب الحجاز . ذلك لأن امرؤ القيس يمنى الأصل فهو يصور ما رآه من نظم إدارية لا فى الحجاز وحدها بل وفى اليمن أيضا . ولا بد من التشابه بين أنظمة الإقليمين إذ المعروف عن التاريخ الاجتماعى للعرب أنهم ينقسمون إلى قسمين قحطانية ومنازلهم الأولى فى اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى فى الحجاز .

---

(١) لسان العرب ج ٤ ص ٥٣ — الناجى اليك بريدها أى سيرها فى البريد

وأنا لا أشك مطلقا فى معرفة عرب الجاهلية للبريد لسببين — الأول أن ما ضوره امرؤ القيس وغيره يتمشى مع منطق الحوادث التاريخية ومقتضيات الأحوال عند عرب الجاهلية الذين اتخذوا من الغارة والسلب وسيلة من وسائل العيش ، فتسطوا القبيلة على الأخرى تأخذ جمالها ونساءها وأولادها وتتربص بها القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلت . فهذا التربص يتطلب إقامة الحراس على منطقة نفوذ القبيلة لإنذار شيخها بالخطر الخارجى قبل حدوثه ، كما يتطلب أيضا بث العيون والأرصاد على حدود القبيلة المجاورة لينذروا شيخهم بالخطر فى أدواره الأولى كى يتهيأ للدفاع عن قبيلته[1] . والسبب الثانى الذى يقطع الشك فى وجود البريد عند عرب الجاهلية هو أن كلا من دولتى الفرس والروم رأت أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ثم يكونون ردءا لهم Buffer state يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون ؛ فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم ، وكان الأخيرون على ما يظهر أرقى عقلية حتى من عرب الحيرة لأنهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية[2] لذلك كانت حياتهم بيزنطية فى بذخها وترفها ويمكن أن يقال مثل هذا فى نظمهم أيضا . وعن هاتين الإمارتين العربيتين تسربت المدنيات المجاورة إلى قلب شبه الجزيرة العربية[3] . تلك حال البريد عند عرب الجاهلية والآن ننتقل إلى العصر الإسلامى ، ولكن قبل استيعاب موضوع البريد فى الدولة الإسلامية يحسن بنا أن نعرف القارى .

---

(١) وطبيعة العرب البدوية كانت تدفعهم — إذا لم يجدوا عدوا من غيرهم — إلى مقاتلة أنفسهم : وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا — فجر الإسلام ج ١ ص ١٠

(٢) فجر الإسلام ج ١ ص ٢٣

(٣) على أن تأثير الروم فى العرب كان مباشرا وأكثر وضوحا من تأثير الفرس فمنذ القرن السادس م حل عرب الحجاز محل اليمنيين فى القبض على ناصية التجارة . وكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق الشام ومصر ، وقليلا ما يبيعونها فى أسواق فارس لأن التجارة مع فارس كانت فى يد عرب الحيرة . وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المكيون قبل الإسلام — عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغا منتهاه — إلى درجة عظيمة فى التجارة ، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم فى كثير من شئونهم . بل وكان فى مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية وللتجسس على أحوال العرب — فجر الإسلام ج ١ ص ١٤ ، ١٥

(٢) المعنى المقصود من « الدولة الإسلامية » : كان حادث الهجرة النبوية حادثا تاريخيا له خطره من الوجهتين الدينية والسياسية عده المؤرخون فاصلا بين عهدين : العهد المكى والعهد المدنى فبالنسبة للرسول نجده يصطبغ بالصبغة الزمنية ويصير زعيما دينيا وسياسيا فى الوقت نفسه ، وغدت السياسة من لوازم دعوته . وبالنسبة لمكة نجد أنها أخذت فى الأضمحلال والتدهور وورثتها المدينة فى الزعامة السياسية فعظم شأنها وصارت قبلة أنظار العرب ، وتنازع القوة والسلطان فى شبه الجزيرة حكومتان : إحداهما إسلامية مركزها المدينة والأخرى وثنية قرشية مركزها مكه ولم يكن ثمة ما ينبىء بأن هذه المدينة الصغيرة إنما هى الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية العظيمة التى قامت بعد ذلك بعشرين عاما فقط على أنقاض دولتين من أعظم دول التاريخ ؛ هما الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية ، وظلت المدينة حاضرة الإسلام نحو نصف قرن ثم حدث أن فاض الجنس العربى بدينه ولغته وخيره على أمم المشرق والمغرب ، فلفظت شبه الجزيرة دفعات من أهلها ، وقذفت إلى الخارج أفواجا بعد أفواج فى كل جهة تقريبا ، فكانت ظاهرة التوسع هذه أشبه بهجرة قومية كبرى ؛ وتبع ذلك تبدل فى أساليب الحكم والحاكمين بل ومقره أيضا ونتج عن هذا التبدل عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة ، مزج فى الدم ، ومزج فى النظم الإجتماعية ، ومزج فى الآراء العقلية ، ومزج فى العقائد الدينية ، ومزج فى النظم الحكومية . . نقلت العاصمة من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق فبغداد فسامرا ثم عادت إلى بغداد ، وطاب لها المقام وظلت فى الأخيرة زهاء خمسة قرون ونصف ، تمتعت خلالها بغداد ، بما لم تتمتع به عاصمة حديثة من أبهة الملك وعظمة السلطان . فكان رسلها يجوبون العالم المعروف من مشرق الدنيا إلى مغربها يستظلون براية الأسلام ، ويتفاهمون بلغة القرآن أنى حلوا مع شعوب صهرهم الإسلام فى بوتقته ، ثم كانت غزوات التتر وأصاب بغداد ما أصابها من ذل واستعباد ، وانتقل بلاط الخليفة العباسى إلى القاهرة أيام الظاهر بيبرس وبقى بها حتى مجىء السلطان سليم العثمانى لمصر فى القرن التاسع الهجرى ، واعتبر هذا التاريخ نهاية للدولة الإسلامية التى عاركت الزمن حوالى عشرة قرون امتدت رقعتها إلى ما وراء سيحون وجيحون شرقا ، وإلى ما وراء البرانس غربا ، وإلى أبواب القسطنطينية شمالا ، فبلاد النوبة واليمن جنوبا[1] .

---

(١) جاب المقدس تلك المملكة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى وقدر طولها من أقصى المشرق بكاشغر إلى أقصى المغرب عند البحر المحيط بنحو من عشرة أشهر وقدر فراسخها نحو الألفين — أحسن التقاسيم ص ٦٣

(٣) البريد النبوى : قد أكون قاسيا فى الحكم إذا ما رميت بعض الباحثين بالسقطات والهفوات لأنهم عند معالجتهم لتاريخ المدنية العربية والنظم الحكومية الأسلامية اقتصروا على ما كان عليه الحال زمن الأمويين والعباسيين ليتسنى لهم بعد التصريح بأنهم أخذوا ذلك عن اليونان والفرس لا عن القرآن والنبي ، غافلين ما كان عليه ذلك على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه عليه السلام كان يشغل بمجرد هجرته من مكة إلى المدينة منصب النبوة الدينى على قاعدة جمع دينه القويم بين سياسة الدين والدنيا جمعا مزج بين السلطتين الروحية والزمنية حتى أن أحد المستشرقين (١) قال « أن تقدم المسلمين فى الحضارة بدأ فى نظم الدولة كما بدأ فى إدارة الحروب » وعزز هذا القول ما وجدته لدى بعض المدققين(٢) فى بحوثهم من قائمة بجميع المراتب الأدارية فى حكومة النبى عليه الصلاة والسلام من وزارة بأنواعها ، وكتابة بأنواعها ، والرسائل ، والأقطاعات ، وكتابة العهود والصلح والرسل والترجمان ، وصاحب العسس فى المدينه ، والسجان ، والعيون والجواسيس ، وكتاب الجيش ، والقضاة وصاحب المظالم ، وفارض النفقات وفارض المواريث ، والمارستان والمدارس والزوايا ، ونصب الأوصياء والممرضات والجراحين ، والصيارفة وصاحب بيت المال ومتولى خراج الأرض وقاسم الأرض ، وصانع المنجنيقات والرامى بها وصاحب الدبابات وحافر الخنادق والصواغين وأنواع المتاجر والصناعات والحرف ، فكأن مدته عليه السلام مع قصرها لم تخل من ترتيب البريد ترتيبا يعطى رسله ورسائله مقاما ساميا بين بقية العمال والعمالات ، فسعاته وكتبه قامت بدور خطير فى سبيل دعوته لأداخل محيط شبه الجزيرة فحسب بل وخارج سياجها إلى العالم أجمع ويمكن ملاحظة تباشير هذا النظام باقامة الحراس لنقل أخبار كفار مكة إليه منذ أن بدأت سراياه وغزواته . واستلزم الأمر مراقبة حدود المدينة وطرق القوافل المارة بها حتى لا تباغته قريش فيلتبس عليه أمر صدهم . . . وأظن هذا الأفتراض الخيالى لا يدخل الشك والريبة فى نفس القارىء إذ يؤيده منطق الحوادث التاريخية وتتبعها الزمنى ، فمنذ اللحظة الأولى التى غادر فيها الرسول مكة بصحبة الصديق فرارا من قريش اتخذ عبد الله بن أبى بكر (٣) وهو غلام شاب فطن رسولا يأتيهما بأخبار قريش يوما بيوم فكان عبد الله يبيت عندهما فى بيت العنكبوت ويخرج من السحر فيبيت مع قريش ويجمع أخبارها وما أتخذته من وسائل للبحث عن محمد والتنكيل به. وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد فى تاريخ الأسلام .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ بارتولد ص ٥١ (٢) التراتيب الأدارية جـ ١ ص ٣
(٣) التراتيب الأدارية ج ١ ص ٣٦١ — الطبرى جـ ٣ ص ١٢٣٦ .

وكانت وظيفة البريد أولى الوظائف الإدارية التى لاقت اهتماما كبيرا من جانب رسول الله فخطت لها وجودا حكوميا منذ الساعات الأولى من ساعات الهجرة ، فلما رتب الرسول حكومته بالمدينة كانت وظيفة البريد قد نضجت ثمراتها وأتت أكلها واتسعت فى معناها ، فشملت الجاسوسية حتى أن الجماعة الأسلامية الأولى عندما كانت متحفزة ومتوثبة لمنازلة قريش فى بدر خرج الرسول بنفسه ومعه أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فأخبره الشيخ عما عنده وهو لا يعلم أنه رسول الله ، ثم رجع الرسول إلى صحبه وأكثر من الرسل يلتمسون له الخبر عن أبى سفيان (١) . والأغرب من هذا أنه اتخذ فى مكة نفسها عينا يكتب بأخبار قريش إليه ، وهذا العين هو العباس بن عبد المطلب عمه عليه الصلاة والسلام أسلم العباس قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ويكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله فكتب إليه مرة « إن مقامك بمكه خير »(٢) .

أعتقد إذن أنك تصدقنى فى صحة هذه الرواية التاريخية وتوافقنى فى القطع بوجود اختصاصات ديوان البريد فى الدولة الإسلامية قبل نشأة الديوان نفسه ، لأننا لم نر بعد وجودا ولا أثرا لوجود كلمة « ديوان » فى عصر الرسول . وإن كان ثمة شك فى نفسك يخالفنى فى رأيى فسرعان ما تبدده حوادث السنة السادسة للهجره ، وما صلح الحديبية الذى وقع فيها بين الرسول وقريش إلا ثمرة من ثمرات البريد النبوى بمعناه الاصطلاحى أى نقل الرسائل الشفوية والكتابية بين فريقين متخاصمين ، فالرسول وصحبه رغبوا فى العمرة ، وقريش وعلى رأسها أبو سفيان أبت وأقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة . فما الحل إذن وقد خرج محمد من المدينة وأذن فى المسلمين بالزيارة والحج فلبوا نداءه ونزلوا فى الحديبية ضاحية من ضواحى مكة . أرسلت قريش رسولها ليتعرف قوة محمد ويأمره بالعودة ، وبعث محمد رسوله يبلغها أنه ما جاء يريد حربا ، وإنما جاء زائرا

(١) ويجب ألا ننسى أن من بين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة أعظم قريش ثروة وعقلا وكان من بين رجال قافلة قريش التى اعترضها الرسول فى غزوة بدر أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وهم سادة قريش ، ومنهم من كان له يد فى إدارة شئون الأمة فى الإسلام بعد ، وهم أكثر استعدادا لنقل مدنية بما يرون من نظام فى المعيشة ، وبما يرون من حكومة تشرف على الأسواق وتجبى الضرائب ونحو ذلك وهذه النتف التاريخية وإن كانت مشوهة لا تخلو من أثر فى عقلية العرب ، ودليلنا الآن على هذه الاستفادة ما أخذه العرب فى جاهليتهم من كلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية وحبشية نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها فى لغتهم وأخضعوها لقوانينها ، فجر الإسلام جـ ١ ص ٢١٧ .
(٢) التراتيب لإدارية جـ ١ ص ٣٣٦

للبيت معظما لحرمته . تبادل الفريقان البعوث فكانت بعثة عثمان بن عفان إحدى السفارات النبوية ، انطلقت إلى قريش وطال مكثها هناك حتى ظن المسلمون هلاكها ، واشتد بهم القلق وعولوا على الحرب ، فبايعوا الرسول ببيعة الرضوان المشهورة وقد من الله بشأن هذه البيعة فى قوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما »(١) .

وبينما هم كذلك وصلت السفارة وقد نجحت نجاحا باهرا فى مهمتها ، وسجل المفوض الإسلامى لأول مرة فى تاريخ دولته انتصارا عظيما على خصمه ودون هذا النجاح فى عهد الحديبية . وهى دبلوماسيا تعتبر أولى الوثائق التاريخية الخالدة فى تاريخ الدولة الإسلامية ، فالبرغم من أنه اشترط على الرسول العودة إلى المدينة من غير عمرة على أن يأتى فى العام التالى ، وبالرغم من تذمر المسلمين من شروط الحديبية ، فإن سياسة النبى فى قبول الشروط التى طلبتها قريش غاية فى الحكمة والقدرة الدبلوماسية كما تسمى فى اصطلاح الساسة المحدثين ، وكان الفتح إحدى ثمرات يوم الحديبية كما كانت برده إلى العالم الخارجى إحدى نتائجها الباهرة ، وعلية نسترسل الحديث عن المهام الجسام التى أداها البريد النبوى لدعوى عموم الرسالة خارج نطاق شبه الجزيرة ، فى أواخر العام السادس ، نظم النبى بعوثه أو سفاراته لأكابر الملوك والأمراء المعاصرين فكانت تلك السفارات بين حوادث هذا العهد حادثا فريدا ، وكانت دليلا جديدا على ما تجيش به نفس الرسول العربى من سمو فى الشجاعة وقوة الإيمان برسالته ، وبلغ هؤلاء الملوك والأمراء الذين راسلهم ثمانية(٢) . كان أهمهم وأعظمهم بلا ريب قيصر الروم ، وملك فارس ، إذ كان الأول زعيم الأمم النصرانية والثانى زعيم الأمم الوثنية ، نظمت هذه البرد وأرسلت إلى مختلف الأنحاء لكل ملك وفد أو رسول ولكل كتاب نبوى ؛ وكانت مهمتها جميعا واحدة هى الدعوة إلى الإسلام والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . أما ما أسفرت عنه تلك البعوث من نتائج فكانت سلبية بالنسبة إلى قيصر وعامليه على مصر والشام ، ولم تكن حاسمة فى شىء بيد أنها كانت ذات أثر معنوى عميق فى البلاط الرومانى وفى الكنيسة ، يتضح ذلك فى زواج النبى بمارية القبطية وفى بعض المجاملات والأقوال الودية والمخاطبات المتبادلة بين العالمين الإسلامى والنصرانى . . أما كسرى فارس فقد

(١) سورة الفتح

(٢) الأستاذ محمد عبد الله عنان « الرسالة » العدد ٤٢ من السنة الثانية

مزق كتاب النبى وأهان السفير وطرده . وعلى العكس فكانت النتيجة عملية بالنسبة لأمراء العرب ، فإن أمير البحرين وأميرى عمان آمنوا برسالة النبى واعتنقون الإسلام وأدوا الجزية عن رعاياهم غير المسلمين ، وأما صاحب اليمامة وكان نصرانيا فرد الرسول بكتاب خشن يطلب فيه مشاركة النبى فى أمره وسلطانه شرطا لدخوله فى دعوته . بقى أخيرا سفارة النبى إلى الحبشة وهى السفارة الوحيدة التى أرسلت إلى ما وراء البحر وتقول عنها الرواية الإسلامية أن النجاشى لبى دعوة النبى وأسلم وبعث إليه بكتاب يؤكد فيه إسلامه . بيد أنه يلوح لنا أن القول بإسلام النجاشى مبالغة يمكن أن تحمل على ما أبداه النجاشى من أدب ومجاملة فى استقبال السفارة النبوية ، والمرجح أن النجاشى لم يسلم ، ولو أسلم النجاشى يومئذ لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلها ولكانت النصرانية قد غاضت منها ، بيد أن الإسلام لم ينتشر فى الحبشة إلا بعد ذلك بعصر وكان انتشاره فى الجهات الشرقيه والجنوبية فقط(١) .

كانت هذه السفارات والكتب النبوية عملا بديعا من أعمال الدبلوماسية ، بل كانت أول عمل قام به ديوان البريد فى هذا الميدان بعد سفارة عثمان السابقة . على أن هذه الدبلوماسية الفطنة التى لجأ إليها النبى فى مخاطبة ملوك عصره لم تذهب كلها عبثا كما رأينا ، بل كانت فى الواقع عملا متمما للرسالة النبوية فلم تمض أعوام قلائل على إيفاد هذه البعوث حتى كان الإسلام قد غمر قلب الجزيرة العربية وانساب تيار الفتح الإسلامى إلى قلب الدولتين الرومانية والفارسية ، وأخذ العرب أبناء الدين الجديد وحملة الرسالة المحمدية يعملون بسرعة خارقة على إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى .

وبلغ من اهتمام الرسول بالبريد أنه أمر عماله أن يبردوا له البريد مع أناس يتوافر فيهم حسن الوجه وجمال الخلقة حتى أنة قال « إذ أبردتم إلى بريدا فأبردوه حسن الوجه حسن الاسم » وإذا بعث عاملا سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ويرى بشر ذلك فى وجهه ، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك فى وجهه(٢) . واشترط فيهم أيضا قوة الذكاء وطلاقة اللسان ، وكان عليه السلام حريصا فى توافر تلك الصفات فى من بعثهم إلى الملوك المعاصرين له ، لعلمه بأن المبعوث إنما هو لسان مترجم لرغباته وآرائه ، ومجيب عن كل ما يسأل عنه . وكاف باعثة مئونة غيبته ، وإذا لم يكن كذلك خسر مهمته ورجع على مرسله بالخسران المبين . . . وحسبنا دليلا على عنايته عليه السلام برسله أن

(١) المرجع السابق

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٤٦ — لسان العرب ج ٤ ص ٥٣

دحية الكلبي مبعوثه لدى قيصر الروم عندما قدم على الأخير قال له «يا قيصر ، أرسلني من هو خير منك ، والذي أرسله هو خير منه ومنك فاسمع ثم أجب . . . ثم قال هل تعلم أكان المسيح يصلي ، قال نعم . قال فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له ، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه ، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى بن مريم بعده . . فأخذ قيصر الكتاب . . وقال له : «أمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له» (١)

وواضح من تلك العبارة أن دحية قد أفحم قيصر بالحجة والدليل العقلي فأكسبوده وتملك عواطفه ، وإن لم تكن النتيجة عملية إلا أن أثرها المعنوي كان أبلغ وأظهر وضوحا كما سبق القول . وهذا بفضل ما امتاز به دحية من قوة الذكاء ووفرة الجمال ، فالرواية العربية تصوره في صورة الصحابي المبالغ في جماله ، المفرط إلى حد أن المرأة إذا رأته وهي حامل ألقت ما في بطنها ، الأمر الذي حمله على التلثم خشية أن يفتتن به النساء ، وبلغ من أثر جماله أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله في صورة دحية (٢) . ويخيل إلى أن الرواية ركبت متن الشطط في وصف جمال دحية إلى حد أنها كادت تضعه أو وضعته فعلا في مصاف الأنبياء والرسل ، فمثل هذا الوصف يذكرنا بما ورد عن قصة سيدنا يوسف في القرآن وأمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن بسبب جماله ، وعلى كل حال فان مانهجه رسول الله من شروط في اختيار سفرائه ورسله لدى معاصريه أمر لا يخرج عن المألوف والعرف الجاري اليوم لدى الدبلوماسية الحديثة من تبادل السفراء والقناصل ومراعاة الأناقة وجمال الخلقة والكفاءات الممتازة عند اختيارها لهم بصفتهم ممثلين لأممهم ورمز المدى ما خطته من سطور في الحضارة والمدنية .

اتخاذ الخاتم لتوقيع رسائل البريد :

هناك ناحية أخيرة من نواحي اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضوع البريد هي أنه لما أراد أن يكتب إلى قيصر وكسرى يدعوهما إلى الإسلام ، قيل له أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما ، لأنهم يرون في ختم الكتاب تعظيما للمكتوب إليه فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » وقد تختم به أبو بكر وعمر وعثمان من بعده ، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس من آبار المدينة وذلك في النصف من

(١) القلقشندى جـ ٦ ص ٣٦٠ — التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٠
(٢) التراتيب الأدارية جـ ١ ص ١٩٠

خلافته ، فاصطنع عثمان خاتما مثله ، وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتما يختمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي أعلاها بالطين أو المداد ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها (١) .

وتاريخ ختم الرسائل قديم قدم التاريخ يرجعه البعض (٢) إلى عهد سيدنا سليمان عليه السلام بتفسيرهم قوله تعالى حكاية عن بلقيس « إني ألقي إلي كتاب كريم » بأنه مختوم ، ومما يذكر عن الأسكندر الأكبر أنه عندما أشرف على الموت مسموما في بابل وشعر بذلك استدعى فليمون وزيره ، وأمره أن يكتب إلى أمه يعزيها في نفسه وينهاها بالتسلي والصبر ، ثم أمره بأن يختم الكتاب وينفذه في السر لأمه (٣) . وبناء عليه يمكن القول بأن اختصاصات ديوان الختم عرفت في الدولة الأسلامية قبل نشأة الديوان نفسه الذي يرجع فضل نشأته إلى معاوية كما سيجيء ، ويظهر أن اختصاصات ديوان البريد والختم كانت تديرها إدارة واحدة في النصف الأول من القرن الأول الهجري لما هناك من صلة وتشابه بين طبيعه عمل الديوانين .

(٤) بريد الخلفاء الراشدين : ورث أبو بكر عن صاحبه صلوات الله عليه وسلم تركة مثقلة بالديون استنزفت دم شيخوخته وعصارة ذهنه ، وكانت حركة الردة وحدها تنوء من ثقلها الجبال ولكن أبا بكر خير من توكل إليه مهام الأعمال فأثبت أنه خير خلف لخير سلف فعقد اللواء للجيوش وأعطاهم الكتب إلى المرتدين بأمرهم بالعودة إلى حظيرة الدين ويخوفهم عاقبة الخروج على جماعة المسلمين ؛ وما هي إلا سنة واحدة والبريد يحمل إلية خبر عودتهم ونجاح قواده في مهمتهم فكان هذا فضلا من فضائل البريد الأسلامي في يقظته وسرعة نقله أخبار ميادين القتال إلى الخليفة .

ثم جاء عمر وشاهدت الجماعة الأسلامية لونا جديدا من ألوان الحكم وطرازا جديدا من طراز الرجال ، شاهدت رجلا يجمع بين السياستين المدنية والعسكرية بمعناها الحديث ، يدير حكومته في الداخل ويرسم لقواده في ميادين القتال خططا حربية لا تصدر إلا من رجل حذق فن الحروب ومارس العسكرية علما وعملا . . . وجد الفاروق أن العرب يندفعون في فتوحاتهم غير حاسبين للهزيمة أدنى حساب ، فأقر لهم سياسة عدم الأنسياح في أرض الدولتين الرومانية والفارسية متعلقا بتلابيب جنده حرصا منه في المحافظة على تلك السياسة التي يمكن فهمها من الكتب المتبادلة بينه وبين قواده بعد

(١) فتوح البلدان ص ٢٦٢ تاريخ التمدن الإسلامي حـ١ ص١٠٦
(٢) القلقشندى جـ ٦ص ٣٥٣ (٣) تاريخ اليهود ص ٨٩

موقعتى أجنادين والقادسية [١] . وهى سياسة سليمة من غير شك وأن كانت لا ترضى قواد العصر الحديث النهمين الذين يدفعهم غرورهم واستهتارهم بالشعوب إلى القذف بشبانهم فى مجازر بشرية لا تجر عليهم إلا الدمار والخراب ، وهذا ماتحاشاه أكبر قواد المسلمين فى القرن السابع م . ذلك لأنه كان يعلم أن أقدام العرب لم تثبت بعد فى فتوحاتهم الجديدة ، وأن عددهم لا يكفى لمواجهة الجبهتين الداخلية والخارجية ، كما أنه كان يرى فى ابتعاد المحاربين عن حكومتهم المركزية ما يزيد من صعوباتهم وهو يريد ألا يفصل بحر بينه وبينهم ، هذه السياسة حملتنى على الأعتقاد بأن فتح فارس ومصر كان نتيجة لتهور القائدين العظيمين عمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص واعتمادهما على شدة حزمهما وقوة إيمانهما .

وواضح من تلك السياسة أن الأمر يستلزم الأبقاء على ما عرف من نظام البريد أيام الرسول بل والتوسع فى معناه ، والرواية العربية [٢] تشير بصريح العبارة إلى اهتمامه بتلقف أخبـار قواده ، من ذلك قولها أنه كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، فلما لقى البشير سأله « من أين » فأخبره ، قال له « حدثنى يا عبد الله » فقال « هزم الله المشركين » وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين فقال له الرجل « فهلا أخبرتنى رحمك الله إنك أمير المؤمنين فقال عمر « لا بأس عليك يا أخى » وإنى أخشى من عبارة « يستخبر الركبان » أن يلتبس الأمر على حضرات القراء فيظنون خطأ أن عمر قد أهمل شأن البريد أو على الأقل لم يرتبه كما كان منتظرا بدليل أنه كان ينتظر الواردين من القادسية وقد تكون أخبارهم موضع شك لأنهم غير رسميين ولا تقع عليهم تبعة ما يقولون ، وإنى أرى أن غيرته على تطورات الحال بالنسبة للمسلمين فى القادسية واستقائه الأخبار من القادمين كان الحافز له عليها رغبة الأطمئنان على المقاتلين حتى تسعفه الأخبار الرسمية ، وهل نجيز لرجل كعمر أنشأ الدواوين بأنواعها ورتبها كما كانت عند الفرس أن يعتمد فى أخباره على أناس غير حكوميين ويغفل تنظيم البريد وهو يعلم ما كان له من أهمية خطيرة أيام الأكاسرة والقياصرة ، وهل ننفى وجود بريد منظم في الدوله الإسلامية قبل عصر معاوية بن أبى سفيان كما ذهب البعض [٣] وأمامنا الدليل

(١) الطبرى مجموعة ١ جـ ٥ ص ٢٣٦٠ .
(٢) نفس المصدر والمجموعة جـ ٥ ص ٢٣٦٧ — ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٢٥
(٣) Ameer S. Ali. p, 62 دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ ص ١١٠ — النظم الاسلامية ص ٢٥٤ .

واضحا من الرواية الإسلامية العربية التى تذكر أن عمرا كان يحدد ساعات معينة فى أيام معينة لخروج البريد منّ المدينة إلى ميادين القتال ، فإذا قدم الرسول عليه من بعض الثغور تبعه بنفسه إلى منازل المقاتلين فيعطى نساءهم كتبهم ويقول لهن ، أزواجكن فى سبيل الله وأنتن فى بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فأقربن من الأبواب حتى أقرأ لـكن ، ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ، ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواء [١]

وقد حرص عمر على تنفيذ تلك السياسة فى الولايات فكتب إلى عماله يأمرهم بإعلان الناس في عمالاتهم عن مواعيد خروج البريد إلى المدينة ، من ذلك أنه كتب إلى عامله بالبصرة كتابا لمـكتب الرسول عنده يقول فيه « أيا فاتح نادى مناديه ، ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج ، فمن كانت له حاجة فليكتب » فكتب نصر بن حجـاج وكان أمير المؤمنين قد أبعده عن المدينة إلى البصرة كتابا دسه المـكتب إلى أمير المؤمنين [٢] وهذا الخبر فيه الدليل القاطع على إنشاء مكاتب للبريد الإسلامى فى عواصم الأقاليم ، وهذه خطوة لا تقدم عليها الحـكومات المحلية عادة إلا إذا كانت إداراتها كاملة فى الحـكومة المركزية . ويؤيد لك تعميم مثل تلك الدور والمـكاتب بالحواضر الأخرى ، فالكوفة مثلا كان بها دار مخصصة للبريد ينزل فيها الرسل إذا حضرت من الأمراء إلى الخلفاء : وقد صلى أبو موسى الأشعرى فى هذه الدار يوم أن كان أميرا على الـكوفة فى زمن عمر وعثمان وكانت تقع تلك الدار فى طرف البلد ، [٣] وأقبل البريد يوما على عمر وبه عقد من الجوهر أهدته ملـكه الروم إلى زوج عمر أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ردا على ماأهدته أم كلثوم من طرائف بلاد العرب إليها . ولم يشأ عمر أن يؤدى العقد إلى امرأته حتى أمر فنودى فى الناس الصلاة جامعة ، فلما اجتمع إليه المسلمون استشارهم فى هذا العقد فأشار عليه كلهم بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملـكها ، ولكنه تحرج من ذلك لأنه حمل إليها فى بريد المسلمين فأمر برده إلى بيت المال وأدى إلى امرأته ما أنفقت فى هديتها لملـكة الروم [٤] .

وإذا عرفنا أن البريد أيام عمر خرج عن معناه البدائى وهو نقل الأخبار إلى عمل الرقابة بمعناها الحديث أدركنا الصورة التى كان عليها البريد فى عهد الجمهورية الإسلامية

(١) الادارة الاسلامية فى عز العرب ص ٣٠
(٢) التراتيب الادارية جـ ١ ص ١٩٢
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) عثمان بن عفان للدكتور طه حسين ص ١٢٩

الأولى . فبفضل رقابة عمال البريد فى الولايات كان علم عمر بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد ؛ فلم يكن له فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحى عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ماوجده ، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح ، وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله وعمالهم ، حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به ، [1] وقد علق بعضهم على ذلك بقوله « كان لعمر عيون على الناس عجيبة » [2].

وقد حافظ الخليفة الثالث على نظام البريد بالصورة التى ورثها عن حكومة عمر والتى يمكن فهمها من الطريقة التى سلكها عثمان فى جمع الأخبار حتى فى أوقات مكثه فى المسجد لتأدية فريضة الصلاة . فالرواية التاريخية تذكر أنه كان يحدث الناس والمؤذن يؤذن يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار وكان يفعل هذا يوم الجمعة على وجه الخصوص [3] غير أنى لا أستطيع أن أبرح عصر عثمان قبل أن أشهد القارىء على ما يلقيه التاريخ من تبعة على إدارة البريد فى هذا العصر . لأن القائمين بأمره قد فرطوا فى واجبهم واستهانوا إلى أبعد حدود التفريط والاستهانة . الأمر الذى تسبب عنه مقتل عثمان . . وتفصيل ذلك أن التاريخ يصور عثمان فى صورة الرجل المتدين اللين الجانب الذى أسلم مقود خلافته إلى مروان بن الحكم يؤازره بعض الأقارب فى الولايات فثارت تلك وأوفدت وفودها إلى المدينة لمناقشة عثمان فى الأمر ، وكادت ثورة القوم تهدأ بعد اتفاقهم على إمهال عثمان ثلاثة أيام لولا أن حدث مالم يكن فى الحسبان ، حدث حادث هو فى نظرنا أول الشرر الذى تطايرت منه نيران الفتنة ، وهو فى نظرنا تسأل عنه إدارة بريد عثمان . . ذلك أنه بينما كان الوفد المصرى قافلا فى طريقه إلى مصر إذا بساعى البريد واسمه أبو الأعور ابن سفيان السلمى على جمل لعثمان يدركهم فى الطريق ، فلما رأوه على جمل عثمان استرابوا فى أمره وقالوا له « هل معك كتاب قال « لا » . قالوا : فيم أرسلت . قال : لا علم لى ففتشوه فوجدوا معه كتابا برسم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح عامل عثمان على مصر يأمره فيه بتعذيب الوفد وإليك نصه بعد الديباجة . « أما بعد فإذا قدم عليك عبد الرحمن ابن عديس فأجلده مائة جلدة ، واحلق رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمرى ، وعمر بن الحمق فافعل به مثل ذلك . وسودان بن حمران مثل ذلك . وعروة ابن النباع

(١) الإدارة الإسلامية فى عز العرب ص ٢٨
(٢) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٦٣
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٥

مثل ذلك . . . » فعاد أعضاء الوفد إلى المدينة لمناقشة عثمان الحساب منكرين هذه الخيانة ؛ فتبرأ سيدنا عثمان من أن يكون اطلع على هذا الخطاب ، فضلا عن يكون أمر به قائلا : « ما فعلت ولا علم لى بما تقولون » قالوا : « بريدك على جملك وكتابك عليه خاتمك » . قال : أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط ، وأما الخاتم فانتقش عليه . قالوا لا نعجل وإن كنا قد اتهمناك ، فأعزل عنا عمالك الفساق [1] . وحاصروه أربعين يوما انتهت باغتياله .

الظاهر أن مروان وكان يملك خاتم عثمان هو الذى كتب هذا الخطاب . . . والظاهر أن اختصاصات إدارتى البريد والختم كان مرجعهما إلى مروان .. والظاهر أيضا أن مروان لم تتوافر فيه الشروط التى يجب توافرها فى صاحب البريد والتى سنعددها فى الفصل القادم . فمروان أساء إلى عثمان وإلى الجماعة الإسلامية إساءة كبرى لا تغتفر . أساء إلى عثمان من ناحية قبضه على ناصية الحال من وراء ستار . وأساء أيضا من ناحية أنه كثيرا ما كان يحمل عثمان على أن يعلن فى الناس عكس ما كان أعلن فيهم من قبل ؛ وأساء إلى الجماعة الأسلامية لأنه تسبب فى فتنة مقتل عثمان التى أصابت وحدتها لأول مرة فى تاريخها فكانت كالجرح الذى لا يندمل أبدا ، وتسبب عنها ارتباك حكومة الخليفة الرابع وانشغاله بقمع ثورات الخارجين عن طاعته والمعارضين لخلافته ، فاندرست معالم البريد على ما أعتقد فى هذه الفترة استنادا على صمت الرواية التاريخية عنها ، ولم تقم له قائمة إلا بعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان .

مما سبق نقرر وجود أصول وينابيع الحضارة الاسلامية وقت ظهور الإسلام فأعمال الرسول وأقواله وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من نظم الحكم ما هى إلا بذور تلك الحضارة التى سنرى أوج عظمتها أيام الأمويين والعباسيين ممثلة فى موضوع نظام البريد ولا ننكر إذن أنه جرى مجرى النشوء الطبيعى فى كل شىء وسار سيرا تدريجيا إلى أن وصل إلى أوجه فى السمو والازدهار .

(٥) بريد الأمويين : قامت دولة بنى أمية واتخذت دمشق عاصمة لها ، ونسبت بعض [2] الروايات التاريخية التى تعرضت للموضوع الذى نحن بصدده إلى معاوية بن أبى سفيان فضل إنشاء ديوان خاص لتنظيم البريد ، وفى هذا المعنى قال الأستاذ محمد كرد

(١) الطبرى جـ ٥ من الطبعة المصرية ص ١١٥ إلى ١١٧
(٢) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ ص ١١٠ — النظم الإسلامية ص ٢٥٤ — Ameer S. Ali P. 62

على(١) «ابتكر معاوية فى الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها ، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التى يصلى الملك أو الخليفة بها فى الجامع منفردا عن الناس ، وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة واخترع من أمور الدولة ديوان الخاتم » فكأن الأستاذ يذهب إلى القول بأن تاريخ وضع البريد لنقل الأخبار فى الدولة الإسلامية إنما يرجع إلى قيام الدولة الأموية ولم يكن معروفا لدى من سبقه من الخلفاء الراشدين . قد يتعارض هذا الحكم التاريخى مع العرض السابق عن البريد النبوى وبريد الخلفاء ، ... كما ينكره مؤرخ آخر(٢) يقول أن البريد كان معروفا عند من سبق معاوية من الخلفاء الراشدين ، واشتهر أمره فى مدة سيدنا عمر بن الخطاب و الغريب أن الأستاذ كرد على ينقض نفسه بنفسه فى رواية أخرى (٣) ينسب فيها النظم الإدارية فى عهد معاوية إلى أصولها الأولى أيام الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن كل ماعمله معاوية هو المحافظة على تلك الأصول وعدم الحياد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعى إليه المحيط الجديد ، كاخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بحبوحة الحضارة وهذا ما كان يجب أن يذكره الأستاذ بشأن البريد ويقره بصراحة .

ونأخذ على الأستاذ أيضا أنه لم يعطنا رأيا قاطعا عما إذا كان معاوية قد نقل هذا النظام عن الفرس أم عن الرومان بل يقر بنقله عن الدولتين معا ، وقد أيده فى ذلك غير واحد من المؤرخين حيث يقولون(٤) « فهو أول من وضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، وأحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد ، فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالا بأكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة وصاحب الخبر ، وهو الذى اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم» أما السبب فى اختراع معاوية لديوان الخاتم فهو أنه كتب مرة(٥) إلى زياد بن أبيه عامله بالكوفة أن يدفع لعمر بن الزبير مائة ألف درهم وسلم الكتاب إلى عمر ليحمله إلى زياد فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له . فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وأخذ عمر بردها وحبسه فأداها عنه أخوه عبد الله ، ومن ذلك الحين تجنبا للتزوير أمر معاوية باحداث ديوان الختم ، وحزم الكتب وختمها على

(١) خطط الشام جـ ١ ص ١٤٣ (٢) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٢
(٣) الإدارة الإسلامية فى عز العرب ص ٣٠
(٤) التعريف جـ ١ ص ١٨٤ — القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٦٧ — الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ١٥٨
(٥) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص١٩ — تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٠٦

طرفيها بعد طيها ولم تكن تحزم ؛ وعين عبد الله بن محض الحميرى على ديوان خاتمه . على أنه يستدل من رواية القلقشندى (١) أن عمر بن الخطاب هو منشىء ديوان الختم وقد يكون هذا صحيحا لأن عمر أول من أنشأ الدواوين تشبها بالفرس ، وعلى كل حال فقد سبقت الأشارة إلى ختم الكتب فى عهد الرسول لما أراد مراسلة الملوك المعاصرين له ودعوتهم إلى الأسلام .

وأخيرا نختم القول عن معاوية بأنه قد ورث نظام التراسل وطريقة ختم الكتب عن حكومات الجمهورية الإسلامية الأولى . وأن المراد من الروايات السابقة بصدد معاوية والبريد هو تنظيمه وترتيبه لهذا النظام على صورة أوسع نطاقا وأكثر وضوحا لكونه أول خليفة أقام الخيول على الطرق لنقل البريد(٢) وأول من رتب له الميل والمحطات(٣) مستعينا فى ذلك على مااقتبسه من قوانين الفرس والرومان معا ، ولكنى أميل إلى القول بأنه كان أكثر تأثرا بالرومان عن الفرس بحكم احتكاكه بنظم الحكم الرومانى بالشام ودمشق ، وقدم صلته بعمال الروم منذ أن كان والده تاجرا فى الجاهلية ، ومنذ أن كان هو واليا على الشام أيام خلافتى عمر وعثمان ؛ فلا بد وأن يكون قد شاهد بعينى رأسه نظم الحكم الرومانى ولمس محاسن نظام البريد عندهم أيام غزواته بأرمينية وآسيا الصغرى وجزر اليونان ، والعقلية العربية بطبيعتها تمتاز بظاهرتى الاحتفاظ والإبداع فمعاوية بلا ريب نقل النظام وأدخل عليه تحسينات جمة صبت فى قالب عربى إسلامى

(٦) بريد المروانيين : تولى عبد الملك بن مروان الخلافة فى وقت كانت جرثومة الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية قد أفرخت فى شرايين العرب والأعاجم على حد سواء . فالخوارج فى العراق وفارس يتزعمهم المختار بن أبى عبيد يعملون على ثل عرش الأمويين . . . والزبيريون بالحجاز يعملون على تنصيب عبد الله بن الزبير وقيام خلافة مناوئة للأمويين . . . والرومان على حدود الشام يعملون على خدش حرمة الدولة بإسقاط حصونها الشمالية ، ولكن عبد الملك تمكن بحزمه ويقظته من تصيد أعدائه الثلاثة كل على انفراده وتفرغ لإصلاحاته الداخلية ، وخص البريد منها قسطا كبيرا كى يضمن له سلامة الأمن والإدارة فى الداخل ، وبوقفه على حركات العدو فى الخارج ؛ فأدخل على نظامه عدة تحسينات حتى أصبح آداة هامة فى إدارة شئون الدولة . وقد

(١) القلقشندى جـ ٦ ص ٣٥٧
(٢) — History of the Saracens by Simon Ockley p. 383.
(٣) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٢

أثر عنه أنه قال لأحد رجاله[١] واسمه ابن الدغيدغة . «وليتك ماحضر ببابى إلا أربعة — المؤذن فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه ، وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام . والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة . والطعام إذا أدرك فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول » فهذا القول لايصدر إلا عن رجل أدرك ماهية البريد فأولاه عنايته وتقديره وإلا ماذكره دون سواه من النظم الإدارية الأخرى فى الدولة ، وخص لديوانه رجلا من ثقاته الأوفياء هو قبيصة بن ذؤيب الذى كان يقرأ الكتب الواردة من الأقاليم ويخبر عبد الملك بما جاء فيها[٢] .

ثم يأتى من بعده ابنه الوليد فلا يكتفى بما كان عليه البريد أيام والده من نقل الأخبار بل يتخذه وسيلة لتحقيق رغباته الاقتصادية والعمرانية ، فيستخدم خيله وابله فى حمل الفسيفساء وهو الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق ليصفح به حيطان المسجد الجامع بها ومساجد مكة والمدينة والقدس الشريف ، ولا يزال بعض هذا الفسيفساء بجامع دمشق فى الصحن وجامع مكة فى توسعة المهدى يشهد بفضل دواب البريد فى حمله إلى تلك البقاع المقدسة[٣] . ولأول مرة فى تاريخ الدولة الإسلامية نرى مثل هذا التطور الجديد فى مهمة ديوان البريد والذى نراه اليوم فى مصلحة البريد من نقل الطرود المختلفة من جهة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر .

والأغرب من هذا أن يضيف عمر بن عبد العزيز إلى نظام البريد نفحة جديدة من نفحاته وهى الإكثار من بناء خانات للبريد على جوانب الطرق الرئيسية خصوصا بطريق خراسان ليبيت فيها الناس ، وأمكنة يقيم فيها الدواب من خيل وجمال ، ومياه فى الأحواض للشرب[٤] . وهذا ليس بالأمر المستغرب على رجل كعمر بن عبد العزيز عرف بالتقوى والورع وعده أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين . وهذه حقيقة أيدتها حوادث سيرته التى قضاها فى تدعيم أركان الدولة ومحاسبة عمالها حسابا عسيرا ميقنا إن هذا لا يتم إلا بالعناية بنظام البريد[٥] .

وكثيرا ما كان خلفاء بنى أمية يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس إلى الخليفة

---

(١) القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٦٧ — النظم الإسلامية ص ٢٥٤

(٢) الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص١٦٩

(٣) التعريف جـ١ ص١٥٨ — القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٦٧

(٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ٣ ص٦٠٩ — مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادي

(٥) الإدارة الإسلامية فى عز العرب ص ١٠٥

أو الأمير التماسا لسرعة قدومهم خصوصا هؤلاء الذين تحدثهم نفوسهم بالخروج على طاعة السلطان . ويحدثنا المسعودى[١] فى هذا المعنى عن خروج شبيب الخارجى على الحجاج بالكوفة فى خلافة عبد الملك بن مروان وكادت فتنته تفسد عليه الأمور هناك لولا أن استعان ببريد الشام فى وصول النجدة إليه وتضييق الحصار على شبيب حتى نفر به فرسه وألقاه فى النهر ثم حملت جثته على البريد إلى الحجاج . . كذلك إذا أراد الخليفة إحضار شخص ما من الأقاليم إلى عاصمة ملكه أمر بحمله على دابة البريد ، كما فعل يزيد بن عبد الملك بن مروان عندما وجه إلى صاحب مكة كتابا يطلب منه إرسال أحد الشعراء وقد سمع الخليفة عن شهرته فى قول الشعر . « إذا أتاك كتابى هذا فادفع إلى . . . ابن أبى لهب ألف دينار لنفقة طريقه ، وأحمله على ما شاء من دواب البريد » ففعل[٢] . وهذه العبارة تدل على أن دواب البريد كانت من النوع الممتاز السريع العدو ، وعلى أهبة الاستعداد للسفر ، وأن أماكن راحتها مزودة بالبدل والعلف والماء .

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى يبلغ فى بعض الأحايين أربعين أو خمسين دابة ، سيما إذا استخدمت فى نقل الجنود لإخماد الفتن والثورات فى جهة ما بالولايات كما حصل فى ولاية هشام بن عبد الملك . وقد روى عنه العلامة ابن خلدون أن قبائل التركمان ببلاد الخزر خرجت عن طاعته وثارت ضد واليه وإسمه الجراح الحكمى الذى عجز عن كبح جماحهم فقتلوه وعاثوا فى الأرض فسادا يهلكون الحرث والنسل فى طريقهم إلى الموصل . وهال هشاما الموقف فتقدم إليه أحد قواده الأفذاذ الذين يشار إليهم بالبنان وخاطبه بقوله « فابعثنى على أربعين من دواب البريد ، وابعث إلى كل يوم أربعين رجلا مددا ، واكتب إلى أمراء الأجناد يواسونى »[٣] . أفعم هشام من جرأة ذلك القائد وشجاعته التى أعادت إليه الثقة بالنفس والإيمان بالنصر ، فأجابه إلى طلبه ونجح سعيد فى مهمته خير نجاح ، وكتب له السعد والفلاح . والفضل فى ذلك من غير شك يرجع إلى ديوان البريد وعماله ودوابه الذين أسعفوه فى نقل الجنود والمدد على جناح السرعة فتمكن من إحاطة الثائر ومباغتته .

هذا ما كان فى وسعنا جمعه وتحصيله من مادة تاريخية عن البريد الأموى ، وهى تقطع بعناية خلفاء بنى أمية بنظام البريد وحبسهم الأموال للانفاق منها على دوابه وطرقه وعماله كى يتخذوه أداة صالحة فى سبيل تأييد سلطانهم وكسر شوكة أعدائهم . ومما يؤثر عن

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ص ٨٩ (٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٣

(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٨٩

الخليفة الأموى هشام أن مصاريف البريد فى خلافته بإقليم العراق وحده بلغت أربعة ملايين درهم(١) . ويكفى الأمويين فخرا أنهم أصحاب السبق فى ترتيب وتوسيع نظام البريد فى الدولة الإسلامية بشكله وصورته المعروفة لدى الفرس والرومان مع تنسيقه ومسايرته لنظرية النشوء والارتقاء تمشيا مع العصر والزمان .

(٧) بريد العباسيين : إن الثورة التى استخلصت السلطان من الأمويين ونقلته إلى منافسيهم العباسيين قد أحدثت انقلاباً خطيرا فى العالم الإسلامى على وجه العموم وفى الأدارة الحكومية ونظمها على وجه الخصوص . ذلك أنها قضت على انفراد العنصر العربى بالحكم واستئثاره بمناصب الدولة الكبرى وحل محله العنصر العجمى . فلا عجب إذا قلنا أن العنصر الفارسى باعتبارهم رعايا امبراطورية متمدنة عظيمة الشأن احتلوا أثر قيام الدولة العباسية المناصب اللائقة بهم كمواطنين فى العالم الإسلامى ، كما فتحت أمامهم المناصب العليا على مصراعيها . وغدت الفرص مواتية أمامهم لتطعيم الأداة الحكومية الإسلامية بما كان جاريا عند أجدادهم الأكاسرة . وإذا عرفنا أن العرب يمثلون نظما معينة سياسية واجتماعية ، فمعنى هذا أن هذه النظم قد ذهبت أدراج الرياح بذهاب سلطانهم ، وأن النظم الفارسية القديمة ذابت فى المملكة الإسلامية ، وأصبحت حياة الفرس السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت أعين الخلفاء يعرفون عنها الكثير ، فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئا منها . فالشعب الفارسى له مدنية قديمة ، وماض عظيم وتأبى قوميته إلا أن يبعث التالد فى ثوب خالد يناسب الظروف الجديدة والتعاليم الإسلامية . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا البعث تحسين وإخراج النظم الإدارية على أسس منظمة تضارع أنظمة الممالك الحديثة . وليس أدل على مقدرة الدولتين الأموية والعباسية من كثرة التشكيلات الحكومية فى الدولة العباسية . تلك التشكيلات التى أخذت بها الدول الإسلامية المتعاقبة ، وسارت على نمطها كوظيفة الوزير وأستاذ الدار ، والسلطان ، ومجلس العزيز ، وتعدد الدواوين ، ومن بينها ديوان البريد وكلها نظم كسروية قديمة صاغها العقل العجمى فى ثوب إسلامى جديد .

(١) عصر المنصور والمهدى : وعلى الرغم من هذه الحقيقة وأن كانت مرة على بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى القول بأن نظام البريد ظل قائما والعمل عليه دائما فى الدولة الإسلامية حتى تقوض بناء الدولة المروانية ، وانتكث حبلها فانقطع البريد مابين خراسان والعراق لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية . قد اتفق معهم فى هذا

(١) Ameer S. ali p. 111 — تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٢

القول لأن من عادة الدول أن تجند قواها العقلية والمادية وتصرف النظر عن مشاريع الاصلاح والتعمير لتسد النقص فى الناحية الدفاعية المتولد عن الفتن والثورات ، سواء أكان الدافع لها والباعث على تحريكها فى الداخل أو الخارج . إلاأنى لاأتفق معهم عندما يسترسلون فى حديثهم ويبالغون فى عباراتهم فيعتبرون البريد فى خبر كان بعد انقراض أيام مروان آخر خلفاء الأمويين ، وكذلك أيام السفاح والمنصور ثم المهدى « والبريد لا يشد له سرج ويلجم له دابة »(١) . أن صح هذا القول عن عصر السفاح لا يصح أن يقال عن المنصور ، فالتاريخ والواقع والمؤرخون قديمهم وحديثهم ينسبون إليه الإدارة الحازمة والعناية الفائقة باحكام نظام المركزية فى بغداد ، وأظن هذا لا يتم له إلا عن طريق أحكام نظام البريد . ويفهم من رواية المسعودى إنه على الرغم من الارتباك الذى عم نظام الحكم على أثر معركة الزاب الكبرى فإن البريد قد قام بدور كبير فى قيام دولة العباسيين ، وأن زعماء الدعوة بالكوفة لما مثل إليهم أبو العباس السفاح وأهل بيته فى صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة هـ . «وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس . »(٢) أخفوا أمره حتى لا يكون فى إعلانه وسيلة ينتهجها الأمويون فى إفساد خططه قبل أن يقوم عمال البريد بحبك الأمور مع بقية أعضاء البيت العباسى المبعثرين فى الأصقاع .

ومما يؤثر عن الخليفة المنصور أنه قال(٣) « ماكان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم . قيل له من هم يا أمير المؤمنين قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم . أن نقصت قائمة وهى . أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، والرابع . . ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه . آه . قيل له وما هو يا أمير المؤمنين . قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » .

وصدور مثل هذا القول من رجل مسئول كأبى جعفر المنصور يعطيه قيمة علمية خاصة جديرة بالاهتمام ؛ فالمنصور يعترف فى صراحة أن ملكه لا يصلح ولا يستقيم ولا تقم له قائمة إلا بنظام البريد الذى اعتبره أحد القوائم الأربعة التى شيد عليها دولته ، فكانت خير ما أنتجت العقلية البشرية من ضروب الإصلاح ووسائل الحكم والتعمير ،

(١) التعريف ص ١٥٨
(٢) مروج الذهب ج٣ ص ١٨٣
(٣) الطبري مجلد ٣ ج١ ص ٣٠٤ — الا سلام والحضارة ج ٢ ص ١٩٩

وهو لا يكتفى بالأشادة بقيمة البريد وشأنه ، بل ويضعه على قائمة هذه الأركان الأربعة ، ويرجع صلاحية الأركان الثلاثة إلى صلاحية البريد فإن أحسن أحسنت بدورها وأن أساء أساءت هى الأخرى . ذلك لأن البريد حلقة الأتصال وهمزة الوصل بينه وبينها . ثم أعطى صاحبه ثقته الغالية تلك الثقة التى رفعت قدره لدى بلاطه وحكومته فأصبح كلامه حجة قوية فى غنى عن الدليل والإثبات ، ولا أدل على ذلك من أن عامل البريد كتب مرة إلى المنصور[١] يخبره بأن والى حضرموت يكثر الخروج فى طلب الصيد . الأمر الذى صرفه عن شئون ولايته ، وصرف أموالها فى أعداد كلاب الصيد ولوازمه . فلما وصل الكتاب إلى المنصور لم يتطرق إليه الشك فى مدى صحة هذا الخبر ، ولم يتوان فى أن يكتب إلى الوالى كتابا يؤنبه فيه تأنيبا شديدا على التفريط فى حقوق المسلمين وأمورهم ، ويخطره بعزله وتولية من يحل محله . وهذا يعطينا فكرة واضحة عن سهره على عماله ومحاسبتهم على أعمالهم إن خيرا وإن شرا ، ولنا عودة فى الفصل القادم إلى الحديث عن المنصور وعماله .

وعلى الرغم من عناية الخليفة المنصور بنظام البريد فإن بعض المؤرخين[٢] قد ظن خطأً أن ابنه المهدى هو أول من رتب البريد فى الإسلام ضاربين صفحاً على مجهودات أبيه ومن سبقه من خلفاء بنى أمية وغيرهم. ولعل سبب وقوعهم فى هذا الخطأ أن المهدى أمر فى سنة ١٦٦ هـ . بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك التاريخ . ولم يكتف المهدى بهذا بل نسق نظامه واهتم بطرقه ومنازله وأقام فيها البغال والإبل[٣] . ويقال إن المهدى أغزى ابنه هارون الرشيد الروم وأحب أن يكون على علم قريب من خبره ، فرتب ما بينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه ، ولما عادت الحملة قطع المهدى تلك البرد فظلت كذلك حتى نهاية خلافة الهادى[٤] . إلا أنى لا آخذ بقطع تلك البرد فى وقت كانت الدولة أحوج إليها للوقوف على حركات الروم العسكرية على الحدود الشامية . إذ أن الحالة هناك كانت تستلزم الإكثار من العيون لكتابة التقارير إلى الخلفاء وسرعة إيصالها إليهم . فالعداء كان مستحكما بين

(١) الطبرى مجلد ٣ جـ ١ ص ٣٩٩ — النظم الإسلامية ص ٢٥٦ — محاضرات تاريخ الدولة العباسية ص ١٠٩

(٢) دائرة معارف البستانى ص ١٨١ — الطائر الفريد ذيل ص ٢١

(٣) الطبرى مجلد ٣ جـ١ ص٥١٧ — أبو الفداء جـ٢ ص ٤٨ طبعة أوروبا — محاضرات الدولة العباسية ص ١٠٩

(٤) التعريف ص ١٨٥

الدولتين العباسية والرومانية مما جعل الرشيد يحتاط لخطرهم فيما بعد بإنشاء إقليم العواصم ومراقبة حركات الروم شماله مراقبة شديدة ورتب لذلك الشواتى والصوائف .

وكما أن البريد قد استخدمه الخلفاء كوسيلة من وسائل استتباب الأمن وقمع الثورات والفتن ، وحمل الخارجين والثائرين على دوابه إلى عاصمة الملك ، فإنه كذلك استخدم لمصلحة الثوار فى الانتقال من مكان إلى مكان والخروج على طاعة الحكام . فالرواية فى حديثها[١] عن ثورة الحسين المثلث العلوى الثائر على طاعة الخليفة الهادى . تشير إلى أفلات بن عمه أدريس من وقعه الفخ وفراره إلى مصر فى طريقه إلى بلاد المغرب . وكان من الميسور القبض عليه وارساله إلى بغداد لو كان عامل البريد من الطراز الذى رأيناه فى عهد المنصور مخلصا لواجبه وفيا لحكومته ولكن عامل مصر وقتذاك كان يدين بمذهب الرافضية ، فضحى بمصلحة الدولة فى سبيل مبدئه وعقيدته ؛ ذلك أنه مهد الطريق لأدريس وأمده بمن يرشده إلى أرض المغرب ، وقدم له دواب البريد فحملته إلى طنجة حيث نشر مذهبه وزرع الدولة الأدريسية ، فكانت شوكة فى ظهر العباسيين وكان من الممكن تجنب قيامها لولا صاحب بريد مصر[٢] .

(ب) عصر الرشيد والمأمون : ولما آلت الأمور إلى هارون الرشيد اختار يحى بن خالد البرمكى مشيرا ووزيرا له ، فأشار عليه بأجراء البريد على ما كان عليه أيام أبيه والأمويين . وبين له الفوائد والمزايا التى تجنيها الدولة من العناية بترتيبه ، فأمره الرشيد باقراره . وكان يحى خير من يضع الأمور فى نصابها فصب نظام البريد فى قالب جديد وجعل له البغال فى المراكز ، وكان لا يجهز عليه إلا الرشيد أو صاحب الخبر[٣] . ومما يدل على ما وصل إليه البريد من قوة أيام الرشيد أن رقابته على الولاه فى الأقاليم لم يستثن منها أصحاب الجاه والسلطان . فالبرامكة أنفسهم كانت أخبارهم تصل إلى مسامع الرشيد عن طريق عمال البريد . من ذلك أن صاحب البريد[٤] بخراسان أنفذ كتابا إلى الرشيد يذكر فيه انشغال الفضل بن يحى بالصيد واللذات عن النظر فى أمور الرعية . فلما قرأه الرشيد غضب ورمى به ليحي وكلفه بإخطار ابنه بالعدول عن تلك الصغائر والإلتفات إلى أحوال المشرق ، فكتب يحي إلى ابنه على خطاب الرشيد يوبخه ويردعه عن هذا . ومثل هذا القول يؤكد ما اتصف به الرشيد من اليقظة والانتباه

(١) الطبرى مجلد ٣ جـ١ ص٥٦٠ – أبو الفداء جـ٢ ص٥٦ — تاريخ ابن خلدون جـ٣ص٨٢

(٢) عامل بريد مصر إذ ذاك هو واضح الذى عاقبه الهادى بضرب عنقه — يقال أيضا أن الرشيد هو الذى ضربه وولى بريد مصر وأخبارها الشماخ — المقدسى ص ٢٤٤

(٣) التعريف ص ١٨٦

(٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٨٤

لـكل ما دق وجل من شئون الملك ، وأنه من أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته وأ كثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرا . ولقد جاء خطاب عامل بريد خراسان مصداقا للحوادث فانصراف الفضل عن شئون المشرق أدى إلى قيام الفتن به واستفحال خطرها، واضطر الرشيد إلى مغادرة بغداد لقمعها وكان بصحبته ولده المأمون . وهناك وافت الرشيد المنية بطوس ، وحمل البريد خبر وفاته إلى بغداد حيث بويع ولده الأمين توا بالخلافة بينما قام المأمون بمهام المشرق تنفيذا لوصية أبيه .

وفى هذا العصر ظهرت أهمية البريد فى الخـلاف الذى استعر أواره بين الأمين والمأمون ، وكان لعمال البريد شأن كبير فى تطير الأخبار وحبكها مابين بغداد ومرو وتفنن كل من الأخوين فى تلقف وتصيد أخبار الآخر وأسراره متخيرا أنجب الثقاة واذكاهم ، وقد سعر هذا الخلاف اعتماد الأمين على الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربى واعتماد المأمون على الفضل بن سهل زعيم الحزب العجمى ، وكان ماهرا فى دبلوماسيته فلما هم الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد تحت الحاح ومشورة الفضل بن الربيع وزن الفضل بن سهل الموقف بميزان الحـكمة ومعايير الرجال ، ودس قوما أختارهم ممن يثق فيهم من القواد والوجوه ببغداد ليكاتبوه بالأخبـار يوما يوما ، وكان الفضل أبن الربيع قد أخذ بالمراصد لئلا تجاوز الـكتب الحد . وبالرغم من هذا لم يعجز رسول المأمون عن تخطى تلك الأشواك ، فأحتال مرة عليها بإرسال أخباره مع امرأة جاعلا الـكتاب وديعة فى عود منقور من أعواد القاب (البوص) ، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر ، ومن الغريب إن المرأة مضت على الطرق كالمجتازة من قرية إلى أخرى دون أن تكون موطن الشبهة والظنة من حراس الطرق التابعين للأمين ، فلم تفتش ولم يعترض سبيلها أحد حتى خرجت من الحدود . وجاء الخبر إلى المأمون موافقا لسائر ما ورد عليه من الـكتب ، قد شهد بعضها ببعض ، فقال لذى الرياستين «هذه أمور قد كان الذى أخبر عن عينها ، ثم هذه طوالع مخبر عن أواخرها ، وكفانا أن نكون مع الحق ، ولعل كرها يسوق خيرا[1] » .

وقبل أن يكاشف الأمين المأمون بالخلاف عليه أرسل فى طلب بعض كور خراسان وإن يكون له بها صاحب بريد يكاتبه بأخباره ، فامتنع طبعا المأمون لأن هذا معناه الرقابة الفعلية من صاحب البريد على تصرفات المأمون وأفعاله بالمشرق . ثم كشف الأمين أخاه بالحقيقة المرة عندما عاد البريد من بغداد بخلعه من ولاية العهد ، وأجابه المأمون

(١) الطبرى مجلد ٣ جـ ٢ ص ٧٦٤ . ٧٩٣

بإسقاط اسم الأمين من الخطبة وقطع البريد عنه[1] . واحتاط المأمون للأمر بضرب حصار شديد على الحدود الغربية ، فلم يسمح لأى إنسان كائنا من كان بالدخول إلى ولايته دون فحصه واستجوابه خوفا من أن تتسرب إليها الـكتب والدعايات المضرة التى قد تحرض الجمهور على العصيان والتمرد[2] . وعباره الطبرى[3] توضح لنا أقصى ما اتخذه المأمون من ضروب الدقة والحذر فى مراقبة الحدود بين بغداد والمشرق حيث يقول : «ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة فى أمره ممن أتى بجواز فى مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون فى نفسه ودينه ، ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول فى البلدان فى هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الـكتب » .

كان من الجائز أن تسفر تلك الأحتياطات عن نتائج مرضية بين الأخوين ، ولـكن على النقيض نرى الحوادث تزداد سراعا لسوء تدبير الأمين ونصحائه وضعف القضية العربية ، فتتسع دائرة الخلاف وينشب القتال بينهما فى وقعة الرى الدامية ، وكل من الأخوين يترقب عن كثب ورود بريده حاملا خبر انتصاره على أخيه ، وكان لبريد المأمون الأسبقية فى الفوز والنصر ، ذلك أن قائده طاهر بن الحسين كتب إليه[4] عبارة موجزة تشبه عبارة (يوليوس قيصر) التى بعث بها عقب انتصاره إلى مجلس الشيوخ الرومانى قائلا « كتبت إليك ورأس على بن عيسى قائد الأمين فى حجرى وخاتمه فى يدى وجنوده تحت إمرتى » ويقال أن الرسول قطع تلك المسافة البالغة ٧٥٠ ميلا من الرى إلى مرو فى ثلاثة أيام ، ويفهم من تلك الرواية أن البريد كان همزة الوصل بين الخليفة وكبار قواده فى ميادين القتال مهما بعدت المسافة بين الطرفين . كما توضح لنا دقة المأمون وعنايته بتمهيد طرق البريد وتعبيدها وتزويدها بالخيول والرجال لضمان سرعة وصول الأخبار فى التو والحال ، وأظن أن هذه المسافة التى قطعها الرجل فى ثلاثة أيام أمر يستوجب الدهشة والأعجاب لحدوثها فى وقت يجهل القطار والسيارة والطائرة ومما يروى عن المأمون أنه قاد حملة إلى بلاد الروم فى فصل الصيف وكان الجو حارا فنزل على نهر البردان وشرب من مائه ، فاستعذبه واستبرده وبلغ من أعجابه

(١) تاريخ بن خلدون جـ ٣ ص ٢٣٣

(٢) السيد أمير على ص ٢٢١ من الترجمة العربية .

(٣) الطبرى مجلد ٣ جـ ٢ ص ٧٨٣ .

(٤) الطبرى مجلد٣ جـ٢ ص٧٩٣ — السيد أمير على ص ٢٢١ ، ٢٢٣ من الترجمة العربية .

واستمتاعه بمائه أن قال [١] لمن معه من كبار حاشيته « ما أطيب ما شرب عليه هذا الماء رطب ازاز » وكان عليهم أن يحققوا رغبة الخليفة ولكن ما السبيل فى تحقيقها ورطب ازاز لا يوجد إلا بالعراق وهم على أطراف الشام فماذا هم فاعلون . . . استعانوا بصاحب ديوان البريد فى بغداد فدبر لهم الحل ، وأسرع فى إعداد بغال البريد وحملها رطب ازاز ، واجتازت الطريق إلى النهر المذكور حيث ضرب المأمون خيامه ، وكانت مفاجأة سارة عندما رأى على مائدته رطب ازاز بجانب البردان ، فأكل وشرب حتى شبع وتعجب لبلوغ أمنيته وكان يظنها من المتعذرات المستحيلات لبعد المسافة بين النهر وبغداد ؛ وعد هذا العمل تطورا ملموسا لنظام البريد فى عهده . وفى خلافة المعتصم قام الزط[٢] بثورة عنيفة في إقليم البصره واستفحل خطرهم لدرجة أنهم قطعوا الطرق ونهبوا المارة وأوجست الحكومة خيفة منهم ، ولم يتمكن المعتصم من محاصرتهم وإخضاعهم إلا بعد أن رتب البريد بينه وبين عجيف بن عنبسة قائد جيوشه واستعان بخيول البريد وسككه فى إرسال الفرق والمؤن ، فرتب الخيل فى سكة البرد تركض بالأخبار ، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم من يومه [٣] فيمده بالرجال والمؤن حتى قويت خطوط دفاعه فطبقت بالزط من كل حد وصوب ونجت البلاد من بلائهم وشرهم .

(ج) عصر الخلفاء المتأخرين : تولى الخلافة بعد المعتصم الخليفة الواثق ، وكان شاباً صغيرا مستنيرا أعتبر عصره نهاية البداية للعصر الذهبى فى تاريخ الدولة العباسية ، وبوفاته تنطوى صفحة العصر العباسى الأول ، عصر القوة والعظمة بأجلى معانيها وفى أهم صورها ويبدأ عصر الخلفاء الضعاف أو العصر التركى الأول (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) وكانت السيطرة للجند التركى ، وفيه كان يعنى بالبريد أحيانا ويهمل شأنه أحيانا أخر حسب شخصية الخليفة وحرصه على الاحتفاظ بسلطته كاملة غير منقوصة . . ومن هؤلاء الذين توفر فيهم هذا الحرص وأشارت إليهم بعض كتب التاريخ عن أهمية البريد فى عهدهم الخليفة المتوكل على الله أو نيرون العرب كما أسماه البعض [٤] بلغ المتوكل يوما أن رجلا من أهل البصرة وقع عنده سيف من الهند ليس له نظير فتاقت نفسه إلى شراء هذا

(١) التعريف ص ١٨٦

(٢) الزط جيل أسود من السند تنسب إليهم الثياب الزطية وقيل هم جنس من السودان والهنود

(٣) النظم الإسلامية ص ١٥٦

(٤) أطلق عليه هذه التسمية الأستاذ السيد أمير على لاستسلامه لشهواته وإغراقه فى اللهو ومعاقرة الخمر ، ولاتصافه بالقسوة وأسرافه فى سفك الدماء .

السيف ، فأحضر ميمون بن ابراهيم صاحب ديوان البريد ، وأمره بإنفاذ كتب البريد إلى عامل البصرة يكلفه بشراء السيف مهما كان ثمنه ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ؛ فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن فى طلب السيف وابتياعه . وسافر البريد بالكتب إلى اليمن وجىء بالسيف إلى بغداد[١] . وهذا دليل على احتفاظ نظام البريد بطابعه وقوته رغم الاحن والمحن التى لحقت بالدولة فى ذلك العصر .

ثم تفشت النعرة القومية فى الامبراطورية الإسلامية من أقاصى المغرب إلى أقاصى المشرق أى من الأندلس إلى خراسان . . . وانتشرت الحركات الاستقلالية المحلية فى كل مكان وكانت الغلبة فى ذلك العصر العباسى الثالث أو العصر الفارسى الثانى (٣٣٤ — ٤٤٧هـ) لأسرة فارسية الأصل هى أسرة بنى بويه التى استطاعت أن تجعل لنفسها وجوداً سياسيا على حساب الخلافة العباسية . وقد أسبقوا هذا الوجود بموجة قوية من حوادث الإرهاب والاضطراب فى بلاد المشرق . نجم عنها اضطراب حبل الأمن وتقطع شرايين البريد وتمزيق طرقه ونسف سككه ، وعمل البويهيون أنفسهم على عرقلة نظمه رغبة منهم فى إخفاء الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد ، وكان الخليفة لا يزال يأخذ بهم على بغتة[٢] . ولما استقرت الأمور للبويهيين بلغ البريد فى عهدهم مبلغاً عظيما من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل من نواحى فارس وخوزستان إلى قصور السلاطين ببغداد طرية سليمة ، وتوقع أشد العقوبات بكل من توانى فى أداء واجبه من موظفى البريد . وذكر أن أحد المرتبين قالت له امرأته «قد طبخنا أرزا فتوقف لتأكل منه وتمضى ؛ فتوقف بقدر ما أكل ، وتأخرت النوبة ذلك المدى ، فضرب الطراد (المفتش على عمال البريد) والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا »[٣] .

وأخيراً جاء العصر العباسى الرابع أو العصر التركى الثانى (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) وهو عصر السلاجقة وأتباعهم المعروفين بالأتابكة . ويغلب على الظن أنهم جميعاً كانوا جادين فى إعادة الوحدة الإسلامية إلى العالم العربى وتجديد ما كان للاسلام من عظمة وسطوة أيام الأمويين والعباسيين الأوائل ، فحاولوا من ناحيتهم إعادة تنظيم البريد

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٧٨ ومن الغريب أن هذا السيف أعطاه المتوكل لباغر التركى ليكون واقفا به على رأسه فاستخدمه باغر فى قتل المتوكل نفسه .

(٢) التعريف ص ١٨٧ .

(٣) راجع تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٠ .

ليربط أجزاء دولتهم مستخدمين فى ذلك الخيل والإبل[١] وحرصوا على أن ترد إليهم أخبار دولتهم بانتظام وكان أشدهم حرصاً فى هذه الناحية الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٥٣ — ٦٢٢) الذى عين أصحاب أخبار له بالعراق وفى الأطراف يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها فأصبح لا يخفى عليه أكثر أحوال رعيته ، حتى أن أهل العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدث مع امرأته ، لما يظن أن ذلك يطلع عليه الخليفة فيعاقب عليه . وعمل شخص دعوه ببغداد . وغسل يده قبل أضيافه فعلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره فكتب فى الجواب «سوء أدب من صاحب البلد ، وفضول من كاتب المطالعة[٢] .

ولكن سرعان ما بوغتوا بالإغارة الصليبية ، فأوقفت تيار الإصلاح وعرقلت عجلة السير ، وشغل السلاجقة بصد الصليبيين ؛ ولم تكد الخلافة العباسية وحماتها من السلاجقة والأتابكة يتنفسون من غارة الصليبيين حتى نكبوا بغارة جديدة أنكى خطراً وأشد مراساً من الصليبيين هى غارة المغول الذين اجتاحوا الدولة العباسية اجتياحاً وانساحوا فى قلبها انسياحاً بدخول هولاكو فى سنة ٦٥٦ هـ بغداد ، وقضائه على الخلافة بقتل الخليفة المستعصم آخر العباسيين . ولسنا فى حاجة إلى تسفيه ما قام به التتار من أعمال التخريب والتدمير فى العالم الإسلامى ، فهذا أمر مفروغ منه ومقطوع بصحته أقره التاريخ فى أكثر من موضع ، وإن كان ابن خلدون[٣] يخالفنا فى هذا عندما ينظر إلى هجمات الترك والمغول على الممالك الإسلامية نظرة بسيطة وهى « خراب بعض المدن وانتقال الحضارة من مكان إلى مكان آخر » على حين أن الأوروبيين يجعلون استيلاء المغول والترك سبباً من أسباب سقوط الحضارة الإسلامية[٤] .

فنظام البريد وطرقه وهو أحد عناصر هذه الحضارة لا بد وأن يكون قد ارتبك ارتباكاً مرا[٥] ، وكان ذلك عن قصد من التتار حتى لا تسبقهم أخبارهم إلى الدول التى لم تسمع بمجيئهم ، ولم يكن ذلك ناتجاً عن جهلهم بقيمة نظام البريد وعظمة فائدته للحكومات فكتب التاريخ كثيراً ما تشير إلى عناية المغول بهذا النظام منذ ١٢٣٤ م عندما أنشأ له أوجادى إدارة على نمط البريد الصينى[٦] كما أنشأ جنكزخان مصلحة نظامية للبريد والسعاة وزاد من استتباب الأمن بالطرق . وحافظ كوبلخان على الخانات

(١) التعريف ص ١٨٦ .

(٢) السلوك ج ١ قسم ١ ص ٢١٧ .

(٣) مقدمة بن خلدون ص ١٢٢ . (٤) تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف بارتولد ص ٦١ .

(٥) ويشير القلقشندى (ج ١٤ ص ٣٧٠) بنوع خاص إلى بطلان البريد فى سائر الممالك الشامية على أثر وصول تيمورلنك إلى دمشق فى سنة ٨٠٤ .

(٦) هامش : Sauvaget P. 13

الموجودة بالطرق ، كما اعتنى بالخيول والسعاة ووزع العربات فى أنحاء الامبراطورية[١]

أما تيمور لنك الأعرج فاستعان على تعرف أخبار مملكته الواسعة الأطراف برسل البريد التى ترد عليه بكثرة من مختلف المدن ومن القواد والأمراء . فمما يروى عنه أثناء غزواته للهند أنه كان دائم الاتصال بعاصمته سمرقند ورجاله بواسطة البرد التى تسير ذهابا وإيابا بينه وبين العاصمة ، والتى كانت تقطع المفاوز والسبل القائمة بين الهند وسمرقند فى شىء من اليسر بسرعة لتبشر الناس بانتصارات تيمور على أعدائه الهنود ، وأنه غلب ملك دلهى وقتل من رجاله مائة ألف نسمة[٢] .

ونشير فى الفصل الخاص بطرق البريد إلى اهتمام تيمور لنك بها .

لعلك أدركت فى هذا الفصل أثر كل من التراثين الرومانى والفارسى فى الدولة الإسلامية، وأن الأول كان أكثر وضوحا فى العصر الأموى بينما كان الثانى أكثر غلبة فى العصر العباسى . ولعلك أدركت أيضا التطورات الجديدة التى أضافتها العقلية العربية على نظام البريد ؛ حتى يصح لنا أن نقول أن هذا الفصل أشبه ببوتقة صهرت فيها خلاصة عناصر نظام البريد لدى العقليات الثلاث الرومية والفارسية والعربية ، والآن ينتقل بنا الحديث إلى ديوان البريد وعماله ودوابه .

(١) Cambridge med. Hist V. IV P. 629

(٢) تيمورلنك من ١٠٥ — ١٠٩ الترجمة العربية .

الفصل الثالث

ديوان البريد وعماله

كان للبريد فى الدولة الإسلامية إدارة مستقلة به كما هو الحال عندنا اليوم تعرف بـ « ديوان البريد » (١) أخذ العرب نظامها عن الرومان الذين خصصوا لها إدارة تحت اسم Cursus publicus على أن هذه الإدارة قد أدخل عليها عدة تحسينات فارسية فى عهد هارون الرشيد ، يرجع الفضل فى إدخالها إلى وزيره يحى البرمكى (٢) ويظهر أن هذة الإدارة البريدية المستقلة لم تأخذ مكانتها وأهميتها بين الدواوين الحكومية الأخرى ولم تصل إلى حد الكمال والاتقان فى الدولة الإسلامية إلا أيام العباسيين لأن سلطتهم كانت من النوع الأتوقراطى المركز فى بغداد ، والذى يتطلب مباشرة الخليفة لكل كبيرة وصغيرة فى أمبراطوريته .

(١) صاحب البريد : هو ذلك الرجل الذى يشرف على إدارة ديوان البريد والذى أختصه المؤرخون بهذا اللقب وهو من حيث الشخصية والاختصاصات لا يقل عن زميله « مدير مصلحة البريد » فى عصرنا الحاضر بل هو يزيد قطعا من حيث النفوذ والسلطان يتولى تنفيذ ما يصدر من الخليفة إلى عماله بالأقاليم ، ويتلقى ما يرد منهم إلى دار الخلافة ويعرض خلاصته على الخليفة ثم يراقب العمال والموظفين التابعين لديوان البريد ، سواء منهم من فى بغداد أو فى الولايات ، وقد أورد هذه الاختصاصات قدامه بن جعفر فى قوله « يحتاج البريد إلى ديوان يكون مفردا به ويكون الكتب المنفذه من جميع النواحى مقصودا بها صاحبه ، ليكون هو المنفذ لكل شىء منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار فى جميع النواحى على الخليفة أو عمل جوامع لها ، ويكون إليه النظر فى أمر الفروانقيين ، والموقعين ، والمرتبين فى السكك وتنجز أرزاقهم وتقليد أصحاب الخرائط فى سائر الأمصار (٣) » .

---

(١) يقول الأستاذ بارتولد إن كلمة ديوان تدل على معنى Chancellerie وقد أخذت من اللغة الفارسية — تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص٣٥ Cambridge med. Hst .Vol.4 p. 283

(٣) ابن خرداذية ص ١٨٤ — SprengerP.5 تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٧٩

وبالرغم من أن الهير شبرنجر Sprenger قد أورد هذا النص فى كتابه « البريد وطرق السياحة فى الشرق » إلا أنه قد أنكر إنكارا تاما وجود نظام للبريد الإسلامى بالمعنى الذى نفهمه ، واكتفى بالقول إن هذا البريد لا يخرج فى صورته عما هو جار فى عصره الذى كتب فيه كتابه ، أى حوالى منتصف القرن التاسع عشر فى بلاد الهند وفى الأمبراطورية العثمانية . والصورة التى نقلها عما يجرى فى هذه البقاع صورة قاتمة وأحرى بها ألا تسمى بريدا ، بل هى مجرد الطريقة الساذجة البسيطة التى اتبعت فى كل عصر ومكان لنقل خطاب من مكان إلى مكان فى غير نظام ثابت ، وبدون الاستعانة بأشخاص مخصوصين أو التقيد بمواعيد معينه .

وما علينا إلا أن نقدم الدليل من النصوص والوثائق على أن البريد لم يكن بهذه الصورة المزرية . التى صورها شبرنجر ، وإنما كان على درجه رفيعه من النظام لم يبلغها فى أى عهد من العهود الرومانية أو الفارسية . وحسبنا أن نشير إلى ما أورده شبرنجر نفسه نقلا عن قدامه كما ورد فى النص السابق ، وكما ورد فى المرسوم الصادر بتعيين صاحب البريد « وأمره أن يعرض المرتبين لحمل الخرائط فى عمله ، ويكتب بعدتهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك فى جميع عمله وأميالها ومواضعها ويوعز إلى هؤلاء بتعجيل الخرائط المنفذه على أيديهم ، والموقعين فى إثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التى سبيله أن يرد السكة فيها (١) » فالمرسوم نص على وجود أشخاص مسئولين أمام صاحب البريد ، عليهم أن يؤدوا أعمالهم فى المواقيت المقررة وفى السكك الموضحة بسجلاتهم ، وعليهم أن يدونوا مواعيد قيامهم ، ومواعيد وصولهم شأنهم فى ذلك شأن سعاة البريد اليوم ، والمرسوم يرفع من قدر نظام البريد فى العصور الإسلامية ويبين الدقة التى وصل إليها فى ظل الخلافة العباسية ، كما يوضح خطورة منصب صاحب البريد وعماله فى نقل الأخبار وهى من جملة الأمانات الداخلة فى عموم قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٢) . »

ولم يكن منصب صاحب البريد من المناصب الميسورة المنال لأى إنسان فى الدولة إذ كان لابد من توافر صفات معينة لمن يتولى هذا المنصب ، تخلق فى مجموعها رجلا فريدا فى أمانته وإخلاصه وتحرى الصدق فى أخباره ، لأن مهمته ليست قاصرة على تصدير الرسائل إلى الجهات المطلوب ارسالها إليها وتسليم الوارد منها . . . وإنما تتناول أيضا الإشراف على جميع السلطات المختلفه فى أنحاء الدولة ، لذلك يتعين أن يكون لصاحب البريد فى كل

---

(١) Sprenger p. 5 (٢) سورة النساء .

مدينة نائب أو وكيل أو مندوب يبعث إليه بالتقارير عما يجرى حوله ، وعليه هو أن يعرضها بالتالى على الخليفة إما موجزه وملخصه أو يعرضها بنصها على حسب الأحوال . ولم يكن هناك وسيط بين صاحب البريد الذى يختار للقيام بهذه الوظيفة وبين الخليفة الذى كان يضع فيه ثقة كبيره حتى كان يتمتع أحيانا بلقب الوزير [١] .

وابن خرداذبه جمع جوهر هذه الصفات فى العبارة التالية نقلا عن قدامه فى وصفه لصاحب ديوان البريد « أن يكون ثقة إما فى نفسه ، أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح ، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ » [٢] .

على أن المراد بالبريد وصاحبه فى الدولة الإسلامية غير ما يراد به الآن ، إذ كان الغرض منه فى أول وضعه سرعة إيصال الأخبار بين الخليفة وعماله ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عينا للخليفة على عماله وسائر رجال بطانته ، فقد كان صاحب البريد أشبه برئيس البوليس السرى أو أشبه برئيس القلم المخصوص بوزارة الداخلية فى وقتنا الحاضر أو هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو عينه الباصرة وأذنه السامعة ينقل إليه أخبار عماله أو مساعى أعدائه ، وقد شبهه البعض برئيس قلم المخابرات فى وزارة الدفاع [٣] . ويمكن أن يحمل صاحب هذا المنصب فى عهد الخلفاء المستبدين على انتهاج الجاسوسية الخبيثة ولربما كان فى بعض الأحيان مصدر خطر على الأمراء أنفسهم [٤] ، وكان بنو العباس أكثر خلفاء المسلمين عناية فى هذا الشأن حتى نسب إلى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على أحوال ولاته ونوابه ورعيته ، وربما تطلعوا به على أحوال العوام وآحاد الناس حتى يقال أن بعضهم رتب ذلك جهارا ، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهى إليه ما يجرى فى مجلسه فلا يحسن الوزير لأحد ، ولا يجتمع به أحد من الناس إلا بحضور ذلك الشخص ، وكذلك مع القاضى والنائب وجميع ولاة الأعمال . [٥]

وكثيرا ما كان الخلفاء يجعلون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرا ، فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كانت فيه تلك العلامة ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمة ، إذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه كما حدث لأبى مسلم الخراسانى يوم أن دعاه المنصور إليه من خراسان إلى بغداد ، وخاف أبو مسلم عاقبة تلك الدعوة

---

(١) مقدمة Sprenger

(٢) ابن خرداذبة ص ١٨٤ — تاريخ الإسلام السياسى ص ٢٧٨ ج ٣

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦١٠

(٥) تاريخ التمدن ج ١ ص ١٨٠

فاستخلف أبا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له « أقم حتى يأتيك كتابى فإن أتاك مختوما بنصف خاتم فأنا ختمته ، وإن أتاك بالخاتم كله فلم أختمه » فلما جاء أبو مسلم إلى المنصور فى المدائن وحدث ما كان من قتله كتب المنصور إلى أبى نصر على لسان أبى مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وأن يقدم ، وختم الكتاب بخاتم أبى مسلم فلما رأى أبو نصر الخاتم تاما علم أن أبا مسلم لم يكتب [١] .

وذهبت عناية الخلفاء بالبريد إلى حد إنشاء قوة كبيرة من البوليس السرى [٢] ونظام كامل للجاسوسية سارت فيما بعد من الزم الصفات للأداة الحكوميه . وتحقيقا لهذا الغرض يقول الأستاذ توماس [٣] أرنولد أن المصلحة استخدمت إلى جانب عمالها الرسميين اشخاصا من كل طبقه من طبقات المجتمع من تجار وباعة خردة (باعة متجولين) وحكماء ورقيقات مهمتهم ، التجسس على أحوال العمال والرعية فى أنحاء المملكة ، ويكتبون تقاريرهم عن ذلك ويقدمونها للبلاط الخليفى ، ويؤكد هذا القول الهير شبرنجر فى مقدمته [٤] فى حديثه عن الخليفة المأمون الذى كثيراً مالاقى الصعوبات فى سماع الأخبار والاشاعات التى تروج فى بغداد . فاستمع إلى تقارير ترفع إليه يتضمن بعضها أقوال بعض نساء بغداد العجائز اللاتى ينتقلن من بيت إلى آخر فينقلن إليه ما يدور فى المدينة من أقوال وإشاعات وما يتداول بين السكان من حكايات وأقاصيص . . . وهذا يذكرنا بالخليفة الحاكم الفاطمى الذى استخدم النساء كجواسيس ليتسللن فى المنازل ويراقبن تنفيذ أوامر الحاكم الخارقة للعادة ، كتحريم بعض المأكولات وليباشرن التعاليم التى وضعها المذهب الفاطمى ومدى احترام الناس لها .

(٢) موظفوا البريد : ينقسم هؤلاء إلى ثلاث عينات ورد ذكرهم فى القرارين السابقين بتعيين صاحب البريد واختصاصاته ، وثلاثتهم يلون صاحب البريد من حيث المرتبة والأهمية ، وقد اختصهم مشاهير المؤرخين بالذكر والإيضاح .

أولهم المرتبون وهم خاصون بحمل الرسائل فى حقائب خاصة من مركز إلى آخر ، وصفهم شبرنجر بقوله [٥] « وهناك أشخاص يسكنون فى عشش ويعتنون بالحيوانات ،

---

(١) الطبرى مجموعة ٢ ج ١ ص ١١٧ — تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٢

(٢) وقد عهد إلى صاحب البريد بإدارة مدارس البوليس وديوان التفتيش فى الدولة علاوة على رئاسته للبوليس السرى Lammensp.408

(٣) Cambridge med.hist.V.4 p.283

(٤) مقدمة Sprenger

(٥) مقدمة Sprenger p.2

وهؤلاء الأشخاص كانوا يسمون (مرتبون) ولكن أطلق عليهم كلمة (القيمون) Angestellt ، على أن هذه الكلمة لاتعبر تعبيرا دقيقا عن الكلمة الأصلية ، ولذلك فقد يكون من الأفضل ترجمتها بكلمة (القائمون) Aufgestellt ويكون معناها الأشخاص الحاضرون لتلقى الرسائل وإرسالها »

أما القائمون فان طبيعة عملهم تظهر لنا مقدار ما كان عليه نظام البريد من دقة تشبه أن تكون دقة العصر الحديث ، ففى الأماكن التى يوجد بها مقر لواحد من رجال الإدارة يوجد كذلك موقع مهمته الأشراف على محطات البريد فى منطقته ، وكان عليه أن يحدد بالضبط ويسجل الوقت الذى وصل إلى يده الخطاب المنفذ والوقت الذى ينبغى فيه أن يصل إلى يد زميله فى المحطة التالية (١) . والمعروف عندنا اليوم أن السكك الحديدية والطيران وكل وسائل المواصلات يعطى فيها للسائق كتاب أو مذكرة يطلق عليها اسم «المانفستو» تعين فيه ساعة القيام ويكتب به ساعة الوصول لتبين مدى تأخر السائق عن الوصول إلى غايته ، هذا النظام الدقيق المحكم هو الذى نراه مسجلا فى هذا المرسوم الذى يطلب من الموقعين أن يثبتوا المواقيت ويضبطونها حتى لا يتأخر السعاة ، وإثبات هذا لا يكون إلا بالكتابة ، ومراقبة العملية لا يكون إلا بالكتابة كذلك . . . وإذن فقد كانت هناك دفاتر خاصة . . . ومراقبة دقيقة بسرعة البريد ، وأوقات محدودة للوصول من محطة إلى محطة . . . وعقوبات على التباطؤ وكان هناك إشراف على ذلك كله من إدارة البريد العليا ، وغنى عن البيان أن ذلك لا يتم إلا بعدد من المفتشين وهم جماعة .

الفروانقيون (٢) وكان لكل خط من خطوط البريد فروانق لملاحظة سير السعاة والخيالة وحالة المحطات وهم أشبه بالمفتشين ، وعلى جميع هؤلاء الفروانقيين أن يقدموا تقاريرهم عن كل ما يحدث فى الخطوط إلى عموم الإدارة فى بغداد التى يظن أنها كانت محل إقامتهم ، كما كان عليهم أن يصدروا الرسائل إلى الولايات ويجمعوا تقارير النواب (الوكلاء) الموزعين على أنحاء الدولة لمراقبتها ، وتنظيمها وإرسالها إلى ديوان البريد ، وعندما يريد أحد الموقعين أن يقدم تقريرا يجب عليه أولا أن يعرضه على أحد الفروانقيين (٣) . ويعتقد شبرنجر أن للموقعين السلطة المطلقة فى ارسال رسائلهم بطريقة

(١) مقدمة Sprenger p.3
(٢) فرونق كلمة محرفة عن برونك الفارسية ومعناها منذر أو دليل — الطائر الفريد ذيل ص ٢١
(٣) مقدمة Sprenger p.4 التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٣ — الطائر الفريد ذيل ص ٢١

مباشرة إذا ما حدثت قلاقل فى منطقتهم وبصفة خاصة إذا كانوا على الحدود ، الأمر الذى يستدعى التعجيل بارسال رسائلهم ، ففى هذه الحال كانت ترسل بغير واسط (١) وصاحب ديوان البريد يعرض ملخص ما يهم من ذلك على الخليفة نفسه الذى يهتم بالبحث عن أحوال البريد وعماله ، ويصدر أوامره بتعيين الرؤساء ورواتبهم . وصار للبريد لائحة عمومية تحتوى على قوانين البريد وسيره وجغرافيه الطرق وبيان أسفاره .

(٣) عمال البريد فى الولايات : تقضى لائحة ديوان البريد ببغداد أن يكون لصاحبه حق تعيين عامل بريد فى كل ولاية من ولايات الإمبراطورية ، ولهذا العامل عمال آخرون مرءوسون له ويقومون بتنفيذ سياسته وتصريف شئون البريد فى ولايته ، ومهمة عامل بريد الولاية علاوة على هذا الأشراف موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة فى ولايته ، وما يدور فيها من خير أو شر . وله حق التجسس على جميع الموظفين فيها . . . وجاء فى عهد بولاية بريد ما يحدد واجبات صاحب البريد بها إذ عليه « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجرى عليه أمرهم ، ويتتبع ذلك تتبعا شافيا ، ويستشفه إستشفافا بليغا . وينهيه على حقه وصدقه ، وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هى عليه من الكمال والاختلال ، وما يجرى فى أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرق والعسف فيكتبه مشروحا . . الخ (٢) » وهذا العهد شبيه بقرار تعيين صاحب البريد فى الديوان العام فى بغداد بل يكاد يكون صورة منه لاعتبار صاحب بريد الولاية ممثلا لرئيسه العام فى بغداد . لذلك جاءت حقوقه وواجباته مصوغه فى قالب واسع السلطات ، تشبه فى بعض وجوهها سلطة مدير المديرية فى وقتنا الحالى ويظهر أن الحكومة العليا اتخذته وكيلا لها فى كتابة التقارير السرية عن أحوال الولاية وإدارتها وحالة الفلاحين ومواردهم وتصرف السلطات المحلية معهم ، ودار ضرب النقود ، ومبلغ ما يسك فيها من الذهب والفضة . ومما لا شك فيه أنه ليس من حق عامل بريد الولاية الزام أحد موظفيها على تنفيذ عمل من الأعمال فهذا من حق المشرف .

وقد حدد الماوردى (٣) الفرق بين إختصاصات كل من المشرف وصاحب البريد فى الولاية بقوله : «وحكم المشرف يخالف حكم صاحب البريد من ثلاثة أوجه — أحدها أنه ليس للعامل أن ينفرد بالعمل دون المشرف وله أن ينفرد به دون صاحب البريد ، والثانى أن للمشرف منع العامل مما أفسد فيه وليس ذلك لصاحب البريد ؛ والثالث أن المشرف

(١) مقدمة Sprenger P.4
(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ١٢٩
(٣) الأحكام السلطانية ص ٢٠٢

لايلزمه الأخبار بما فعله العامل من صحيح وفاسد لأن خبر المشرف إستعداء وخبر صاحب البريد إنهاء ، والفرق بين خبر الإنهاء وخبر الإستعداء من وجهين — أحدهما أن خبر الإنهاء يشتمل على الفاسد والصحيح ، وخبر الإستعداء مختص بما لم يرجع عنه دون ما رجع عنه ، وإذا انكر العامل إستعداء المشرف أو إنهاء صاحب البريد لم يكن قول واحد منهما مقبولا عليه حتى يبرهن عنه ، فإن اجتمعا على الإنهاء والاستعداء صارا شاهدين عليه فيقبل قولهما عليه إذا كانا مأمونين » . فكان الماوردى جعل منزلة صاحب البريد منزله السمع والبصر ، فهو منوط بحمل صورة واقعية وطبق الاصل لما عليه حال الولاية من صلاح وفساد وعمار وخراب ، وهى أمور ينبنى على الأخلال بروايتها اختلال التوازن بين الحكومة العليا وفروعها .

وقد ساعد عمال البريد الخليفة المنصور فى إحكام الرابطة بينه وبين رعيته ، فبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة وعلى ما يصدره القضاء من الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال ، كما كانوا يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها ، وبلغ من انتظام البريد فى عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم ، فاذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلوا الصبح كتبوا إليه بما جرى فى الليل من أمور ، وبهذا وقف المنصور على كل مايحدث فى الولايات الاسلامية . ولهذا كان شديد الإتصال بولاته فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا ، وإن رأى تقصيرا من أحدهم وبخه ولامه أو عزله من عمله مهانا [١]. وعلى عامل البريد أن ينفذ أوامر الخليفة ليلا أو نهارا مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة فمما يروى . . . عن محمد الأمين أنه أراد إستدعاء أحمد بن مزيد إلى حضرته ، فكلف عامل البريد بذلك فقام ليلا وأخذ يبحث عنه فى القرى والمزارع حتى ألقاه وأحضره لساعته ، وكان أحمد بن مزيد يرغب فى المبيت حتى الصباح ولكن عامل البريد أصر على الرحيل ليلا قائلا « إن أمير المؤمنين أمرنى أن أشخصك أى ساعة صادفتك فيها من ليل أو نهار [٢] » .

ولم يكن صاحب البريد يعنى فقط بالأخبار التى تتعلق بمهام سياسة الدولة بل كان عليه أن يبلغ كل ماعدا ذلك من النوادر الطريفه والأخبار الممتعة ، فقد حدث فى سنة ٢٠٠هـ، ٩١٢م أن ورد كتاب صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكل بخبر التطواف رفع

(١) الطبرى مجلد ٣ جـ ١ ص ٤٣٤ — محاضرات فى الدولة العباسية ص ١١٠ — النظم الإسلامية ص ٢٥٦ (٢) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٤٣٤ — النظم الإسلامية ص ٢٥٦

إليه يذكر أن بغلة الرجل وضعت فلوة ويصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما عاينوا منه ويقول « فوجهت من احضر لى البغلة والفلوة فوجدت البغلة كمتاء حلوقيه ، والفلوة سوية الخلق ، تامة الأعضاء ، مسدلة الذنب ، سبحان الملك القدوس لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب [١] » ، والخبر يدل على دقة عمال البريد فى تطير الأخبار ووفائهم للخلفاء فى تلمس الحقائق ، لكونهم عقد الأتصال بين الخلفاء وعمالهم ، فاذا تكدرت العلائق بين الوالى والخليفة وأراد الأول التمرد والعصيان بقطع حلقة الأتصال وهو البريد عن الخليفة ، وجب على عامل البريد وفاء لواجبه أن يحتاط الأمر قبل حدوثه ، وهذا ماجعل الخلفاء يتحرون الدقة فى اختيار عمال البريد ،وفى الرسالة التى [٢] كتبها أبو يوسف القاضى للرشيد فى الخراج نموذج من هذه العناية ومما جاء فيها « بلغنى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحى تخليط كبير ومحاباه فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاة والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية ، وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس وربما كتبوا فى الولاة والعمال بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم وهذا مما ينبغى أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار » فبمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته فى اختيار عمال البريد والأمناء على الاخبار ، إذ من المنطق السليم إلا يقبل خبر إلا من ثقة عدل .

وبالرغم من السلطة التى أعطاها الخلفاء لعمال البريد إلا أنهم لم يعطوهم الفرصة لاستغلال نفوذهم فى الإثراء على حساب الغير بل كانوا يحاسبونهم حسابا عسيرا ، ويتلمسون الدقة فى أخبارهم . حتى كان الخلفاء احيانا يشكون فى صحة أخبار عامل البريد ولا يعملون بقوله . وتذكر الرواية العربية أن صاحب بريد همدان بخراسان كتب مرة إلى المأمون يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما فرد عليه المأمون بقوله « إنا نرى قبول السعاية شرا من السعاية ، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شىء كمن قبله وأجازه ، فانف الساعى عنك فلئن كان فى سعايته صادقا ، لقد كان فى صدقه لئيما ، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه [٣] . . . » وإنى أخذ على المأمون هذا القول إذا المفروض أن عامل البريد يكتب بما عنده إن خيرا وإن شرا

(١) صلة تاريخ الطبرى ص ٢١ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع جـ ٢ ص ١٩٢
(٢) الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٥ — الإدارة الاسلامية فى عز العرب ص ١٤٠
(٣) الإسلام والحضارة العربية ص ٢٣٢

وعلى الخليفة أن يقرأحدهما بما تقتضيه قرائن الأحوال وشواهدالأمور ؛ ولـكن المأمون نظرا لإغراقه فى كتب الفلسفة والنظريات يرد ردا لا يتفق ومنطق السياسة والحـكم. فمثل هذا الرد من جانب الخليفة قد يحمل عامل البريد على إخفاء حقيقة الحال فى الولاية ويتستر على عمال الخليفة بها مكتفيا بإرسال ما لا يستطيع إخفائه وفى هذا ضرر كبير بالصالح العام[1] وآيةذلك ما حدث المأمون نفسه لما عزمعلى نقل الخلافة إلى الطالبيين وبايع وهو بمرو على بن موسى الرضا فشق ذلك على بنى العباس واضطربوا ونصبوا أبراهيم المهدى وبايعوه ، وحاربوا الحسن بن سهل والى المأمون وكسروه ، والأخبار منطوية عن المـأمون بسبب تمكن وزيره الفضل بن سهل من الأمور . فتحيلت زوجة المأمون فى أن بعثت له خلعا من خزووش وكتبت ما أرادت على بطائنها ، وجعلت فوق البطائن بطائن باليه قذرة ، فلما عرضت على الفضل بن سهل أمر بحملها إلى المأمون دون النظر فيها ، فلما أراد المأمون لبسها نظر فى رداءة بطائنها فنزعها ورأى الـكتابة على البطائن الأصلية فعظم ذلك عليه وعلم انطواء الأخبار عنه فأخرج البريد عن تعلق الوزير وتنكر ذلك من الفضل بن سهل فاعتذر بقوله « أردت أن أ كفيك هذا الأمر ثم أعلمك به[2] » فلم يقبل المأمون عذره ورحل إلى العراق من وقته ، ومهما كان الأمر فإن يقظة الخليفة المأمون على عمال البريد جعلتهم يخشون بأسه إن هم حاولوا قطع الأخبار عنه ، لذلك نراهم يحرصون على إحاطته علما بالخارجين علي طاعته ، فطاهر ابن الحسين ولى أمر المشرق فى عهد المأمون ولـكن حدثته نفسه بالخروج على طاعة الخليفة وظهرت بوادر هذا الخروج فى السنة السابعة من ولايته لما خطب يوما على منبر خراسان وأمسك عن الدعاء للمأمون فعاتبه صاحب البريد هناك . واعتذر له طاهر بأنه سهو وقع منه ورجاه ألا يكتب إلى المأمون بذلك ثم تكرر ذلك ثلاث مرات وطاهر يتقدم إليه ألا يكتب فقال له صاحب البريد « إن كتب التجار لا تنقطع من بغداد وإن اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرنا لم آمن أن يكون سبب زوال نعمتى[3] » ثم

---

(١) وقد ظهر في العصر العباسى عائلة يقال لها عائلة البريدى ينطبق عليها قولنا إذ كان لها من النفوذ ما مكناها من أن تلعب بعض الأدوار السياسية الهامة ، وكان كبيرها مديرا للبريد فى البصرة — تاريخ البريد فى مصرص ٣٨ — ويقول عنه الأستاذ السيد اميرعلى (الترجمةالعربية ص ٢٥٩) فى حوادث عام ٣٢٩ ﻫ أن زعيما تركيا اسمه البريدى استولى على بغداد ففر بن رائق بصحبة الخليفة المتقى بالله إلى الموصل حيث كان حيفدا الأمير حمدان أميرا الموصل وتكريت يصدان غارات الروم بقدر ما تسمح به مواردها الخاصة فاغتالا ابن رائق لـكى يخلو لهما الجو ، وما هى إلا برهة حتى لقبهما الخليفة بناصر الدولة وسيف الدولة وعاد معهما إلى بغداد حيث اجلساه على عرشه ثانية .

(٢) آثار الأول فى ترتيب الدول ص ٦٦

(٣) تاريخ بن خلدون ج ٣ ص ٢٥١ تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٠

كتب صاحب البريد إلى المأمون بخلع طاهر بن الحسين وكان يخشى أن يسبقه خبر التجار خصوصا وأن الخلفاء كما هو الشأن فى الحـكومات العصرية كانوا يتذرعون بأشخاص لا صبغة رسمية لهم لاستخدامهم فى تلك المهام على نحو ما قدمنا شرحه ، وكانوا ينتخبون عادة من طبقة التجار والباعة المتجولين فيوافونهم بالتقارير الوافية عما يقع من الحوادث وقد يخفيها عمال البريد عن الخلفاء . فلما وصل الخبر إلى المأمون أمر باستحضار طاهر ابن الحسين الذى وافته المنية قبل أن يصله رسول المـأمون .

(٤) علامة عمال البريد : جرت التقاليد والعرف من أقدم العصور أن يكون لعمال البريد زى خاص بهم ، أو علامة خاصة يحملونها معهم لتشير إلى طبيعة عملهم ، ولتميزهم عن سائر موظفى الحـكومة ولا تزال مصلحة البريد المصرية إلى اليوم تراعى هذه التقاليد وتحترمها بل وتقدسها ، فتخص سعاتها بزى أصفر اللون ، وفى العصور القديمة كانت الأمة الرومانية من أحرص الأمم على احترام هذا العرف كما سبق الإشارة إليه فى الفصل الأول ، كذلك كان الحال أيام خلفاء المسلمين إذ كانت علامة رسل البريد فى عهد العباسيين قطعة من الفضة بقدر الـكف يعلقها العامل على كتفه ، وقد[1] كتب على إحدى صفحتيها البسملة واسم الخليفة وعلى الصفحة الأخرى « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » وفى مصر بنوع خاص كان لعمال بريد المماليك علامة خاصة سنشير إليها فى الفصل الخامس .

أما رسول تيمورلنك فكان يعرفه السكان من شكله وهيأته عند دخوله من أحد أبواب مدينة سمرقند ، إذ يجرى خلفه الأطفال فرحين بقدومه ولا يزال كذلك ينتقل من شارع إلى آخر حتى يصل إلى نائب تيمور حيث ينتظره الـكتاب الذين يقع عليهم أمر نشر أخبار تيمور وفتوحاته بين الشعب[2]. ويتميز الرسول فى الهملايا بعصاة طولها قدمين تقريبا يحملها فى يده مشبوكا بها الخطاب ومعلقا بها راية صغيرة[3] وا كتفت مصلحة البريد الإسلامية بالأعلان على أبواب المساجد أو المحلات العمومية مناداة بواسطة أحد الرجال عن مواعيد سفر عمال البريد إلى الولايات ، ويظهر أنهم كانوا يخرجون على هيئة صفوف منسقة تنسيقا يشبه أصطفاف الجنود فى ميادين القتال ، فيعطون منظرا جميلا يأخذ بالألباب وكذلك كان الحال عند عودته إلى العاصمة، ولا أدل على ذلك من

---

(١) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٦٣ — الطائز الفريد ص ٩٤

(٢) تيمور لنك — الترجمة العربية ص ١٠٦ (٣) مقدمة Sprenger P.3

أن أحد الخلفاء كان يلذ له أن يرى هذا العرض بنفسه فيأمر بأن يكون مرور البريد عن طريق قصره الخاص ، ثم يهرع إلى شرفته عند مرور كل بريد ليتفرج عليه ، و إذا خفض حاملوا البريد صوتهم المعتاد إبداؤه إعلانا بوصول البريد أو مروره تلطفا أو احتراما للخليفة ينذرهم بالعقاب حتى قال لهم ذات مره «إن خفضتم صوتكم مرة أخرى خفضت راتبكم» ويقول متفاخرا «أن صوت بشرى البريد لاذنى ألذ من الكرى لعينى[1]»

(٥) بريد الرحالة : وقد أطلق هذه التسمية ابن بطوطه فى حديث عن البريد ببلاد الهند ، وقصد بها جماعة السعاة وهم رجال خفاف الحركة عرفوا عند العرب بقوم ياجوج وماجوج ، يفتكون بالعدو ولا يخشون بأسا ولا دركا حتى فى الأراضى الوعرة . وقد وصفهم بعض الرحالين بكونهم ذو خفة عجيبة ومناظر غريبة ولا سيما عند خروجهم من المدينة وتفرقهم خارج بابها إلى الجهات التى يقصدون ايصال المراسلات إليها فانهم يظهرون للناظر إليهم عن بعد كأنهم قطيع من الجداء ذهبت للرعى [2] ويرجع تاريخ استخدام السعاة فى نقل الرسائل بالدولة الأسلامية إلى أيام بنى بويه ، وكانت أول نشأتهم فى بغداد على يد معز الدولة الذى أراد أن يخطر أخاه ركن الدوله سريعا فأعطاهم الجرايات الكثيرة ، واتخذهم من الذين ينبغون فى الجرى نبوغا استثنائيا ، وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم على ذلك [3] وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان قطع كل منهما ما يزيد على الأربعين فرسخا (حوالى ١٨٠ كيلو مترا) من مشرق الشمس إلى مغربها وكانا أثيرين عند عامة الناس وقد أورد المؤرخون ذكرهما ، وهما فضل ساعى السنة ومرعوش ساعى الشيعة[4] . ونال هذه الشهرة فى مصر أحد سعاه الملك الناصر محمد وأسمه الأقوش الذى لا يبعث إلا فى مهم ، أمره ذات مرة بحمل خبر من مصر إلى حلب فجد فى السير وأسرع حتى أقطع المسافة بينهما فى خمس وهى مسيره شهر[5] .

وتحدث ابن بطوطة عن ترتيب هذا النوع من البريد بأن يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب ، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس ،

---

(١) الطائر الفريد ص ٢٣ (٢) المرجع السابق ص ٤٩
(٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨١ (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥ — دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ س ١١٠ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ٢٥٦ تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٣ . (٥) ابن بطوطة ج ٢ ص ٦٠

فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتد بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له ، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ، ومر باقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى المحطة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه . . وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا عليه الفواكه المستطرفة بالهند وخراسان ، يجعلونها فى الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان أو الحاكم أو من يقوم مقامه[1] .

ومن أشهر السعاه عدوا الصينيين فإن الواحد منهم قادر على الإستمرار فى السير جملة ساعات وهو حامل قدرا عظيما من المراسلات بلا كلل ولا ملل ، ويحكى أنه بينما كان أحدهم حاملا رسائل مهمة صدر الأمر إليه أن يتخذ حصانا ليسير بسرعة عظيمة ويصل إلى المحل المقصود ، ثم مر بقوم فدهشوا إذ رأوه يسوق الحصان أمامه وهو يعدو وراءه فسألوه لما لا تركب الحصان فقال « تبصرت قليلا فرأيت أنه إذا سرنا على ست أرجل وصلنا إلى المحل المقصود بأسرع ما يمكن من الوقت[2] » ويلى الصينيين فى الشهرة المصريون ، ومن الغريب أن الكهل منهم يجارى الفتى فى العدو المستمر لما إمتاز به المصرى من القوة الجسدية المتولدة فيه نتيجة الرياضة الطبيعية فى أشغاله المتعبة واشتهر المصريون كسعاة منذ القرن الخامس الميلادى إذ استخدموا فى جماعات منظمة أطلق عليهم أسم « سما كوى » فى مصر السفلى ، وكانوا لا يزالون موجودين حتى القرن الثامن الميلادى بدليل ما نجده فى إحدى ورقات دينر البردية .

وتتفق الروايتان الشرقية والغربية فى القول بأن من أراد أن يكون ساعيا فى الإسكندرية لا بد أن يحمل شعلة فى سلة على هيئة مدفأة مثبتة فى عمود طوله قامة رجل ، وله حلقات من حديد ، وأن يقطع المسافة التى بين رشيد والإسكندرية وطولها سبعة وعشرون ميلا ويعود فى يومه قبل مغيب الشمس[3] ، فكأن وظيفة الساعى فى ذلك الوقت أعتبرت من الوظائف الحكومية الهامة لا يلتحق بها الشخص إلا بعد أن يثبت لياقته بإمتحان يجرى له ، ولابد من إثبات أهليته واستعداده الطبيعى لتلك الوظيفة لما يكتنفها من أهوال وأخطار .

ولا يزال بريد الرجالة يستعمل فى مصر إلى الآن وتنعتهم مصلحة البريد بكلمة « طوافه » وهم مكلفون بتوصيل البوستة إلى القرى الغير موجود بها — مكاتب بوستة

---

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢ (٢) الطائر الفريد ص ٨٩ ، ٢٠٤
(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٧ - مسكويه ج ٥ ص ١٩٨

واستلام المراسلات من الصناديق فى القرى المعين مرور الطواف عليها ، ومحظور عليهم أن يخالفوا الطريق المقرر مرورهم عليها أو أنهم يتأخرون عن الميعاد المحدد لهم بالجدول الذى يحمله كل منهم . وكثيرا ما تمد مصلحة البريد هؤلاء الرجالة بحيوانات ينتقلون عليها من قرية إلى أخرى تخفيفا لآلامهم ورأفة بأبدانهم ويستعينون على ضبط مواعيدهم بساعة تعيرها مصلحة البريد لهم مدة خدمتهم .

ويخيل إلى أن مملكة الهند قد فاقت الممالك الإسلامية الأخرى فى تنظيم جماعات السعاة ، ويروى القلقشندى[١] أنها رتبت لهم أماكن شبيهة بمراكز البريد فى مصر والشام ، إلا أنها تمتاز بقربها من بعضها ، وفى كل مكان من هذه الأمكنة مسجد وسوق وبركة ماء وعشرة سعاة ممن اتصف بالخفة والقوة . وجرت العادة كما هو متبع اليوم أن يحمل السعاه المراسلات داخل كيس أو جراب من الجلد معلق بإحدى كتفى الساعى أو مسترسل بعلاقة إلى جانبه الآخر على شكل حقيبة العساكر ويحمل بعضهم أجراسا[٢] . ومما هو جدير بالملاحظة أن حياة هؤلاء السعاة محفوفة بالمخاطر ، فكثيرا ما يتيهون الطريق أو تصادفهم وحوشا كاسرة تضطرهم إلى المرور فى أرض غير مطروقة وغير سابلة الأمن ومتوفرة الماء .

(٦) بريد الخيالة : أطلق عليه بن بطوطة كلمة « الولاق » وهى خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال[٣] .

والخيل هى الحيوان الشائع الاستخدام من أقدم العصور فى نقل البريد قالت عنه الرواية الغربية[٤] أنه اتخذ كوسيلة لتبادل المكاتبات السياسية بين أمم الشرق الأدنى منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد . ويظهر أن العرب لم يستخدموا الخيل إلا بعد اتساع فتوحاتهم واجتياحهم شرقا وغربا أملاك الأكاسرة والقياصرة . إذ أن شبرنجر[٥] يشير إلى استخدامهم الجمال فى شبه الجزيرة العربية وسوريا لنقل بريدهم ، على حين كان الفرس يستخدمون الخيل والبغال لهذا الغرض . ولعل شبرنجر إستند فى استنتاجه على حقيقة بلاد العرب الجغرافية فالجمل هو الحيوان الوحيد الذى استطاع من غابر العصور بصبره وجلده أن يكيف حياته بهذه البيئة الصحراوية القاسية. ولكن يجب ألا نأخذ بقول شبرنجر حتى لا نزعم أن العرب حديثوا العهد بالخيل وأنهم لم يعرفوها إلا فى عصر

(١) القلقشندى ج ٥ ص ٩٨
(٢) الطائر الفريد ص ١٥
(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١
(٤) Cambridge Anc. Hist. V.2 P.228
(٥) Sprenger P.3

الفتوحات . فالقرآن وهو مرجع تاريخى لا يحتمل الشك ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يؤكد معرفتهم للخيل بل ولجميع دواب البريد والنقل بدليل قوله تعالى « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون »[١] أما الجمل فورد في آية أخرى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت[٢] » صحيح قد يكون الجمل أول حيوان استخدمه العرب فى نقل بريدهم ، ولكن ليس صحيحا أن الجمل ظل محتكرا لنقل رسائل البريد ، فحركات التقدم والتطور التاريخى استبدلته بالخيل والبغال ، وشاع استخدام البغال بنوع خاص فى نقل البريد بمملكة تونس[٣] ، حيث كان من حق عامل البريد أن يركب بغل إما ملك له أو مستعار ويسافر إلى جهة قصده ، وكان على الولاة الذين يمر بأرضهم أن يقدموا له البدل إما من جهتهم أو عن طريق السخرة من الرعايا ويتبع العامل نفس الطريقة عند عودته إلى المكان الذى بدأ منه .

وفى الغالب كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين دابة ، ويعلقون فى اعناقها جلاجل أو سلاسل إذا تحركت سمعت لك قرقعة تعرف عندهم بقرقعة البريد[٤] . أما المراسلات فكانت تجعل ضمن أكياس من الجلد وتوضع على ظهور الدواب ، ثم تقطر الدواب بعضها ببعض ويركب على كل دابة رجل . ويتصدر القافلة قائد خبير بمعالم الطرق يتوافر فيه من الصفات ما يتصف به دليل الهجانة اليوم ، من حيث بعد النظر ، وترجمة الأثر ، وقوة الملاحظة والجراة والشهامة . وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع الدواب . ويقال أن معدل سير البريد بواسطة الخيالة والسعاه الذين يتغيرون فى مراكز قريبة يبلغ ١٢٠ ميلا أنكليريا فى كل ٢٤ ساعة[٥] .

وكان المتبع فى إختيار خيالة البريد أن يكونوا من الرجال الأشداء ذووا الجلد ، المتمرنون على الركوب والعدو ، واشهر خيالة البريد التتر الذين كثر استخدامهم فى الدولة العثمانية ، حتى صار يطلق بها أسم تترى على كل خيال حامل رسائل . ويليهم فى الشهرة خيالة الفرس فإنهم يقاربونهم فى النشاط والتجلد على السفر الطويل حتى فى المسالك الوعرة[٦] .

(١) سورة النحل
(٢) سورة الغاشية
(٣) القلقشندى ج ٥ ص ١٤٨
(٤) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٢
(٥) الطائر الفريد ص ٢٥
(٦) المرجع السابق ص ٨٩

والراجح أن حكام المسلمين من أوائل القرن الرابع الهجرى عدلوا عن استعمال الخيل فى البريد إلى اتخاذ الجمازات ، فمن ذلك أنه لما قامت دولة الفواطم ببلاد المغرب وطمعت فى الإستيلاء على مصر واقتطاعها من الدولة العباسية ، وكثرت غزواتهم على السواحل الشمالية ، وكل الخليفة المقتدر أمرصدهم إلى مؤنس الخادم وندب معه العسكر لمحاربتهم ، ولكى تصله أخبار مؤنس كل يوم رتب الجمازات من مصر إلى بغداد(١) . وذلك لما امتازت به الجمازات من سرعة نقل الأخبار .

(٧) ميزانية البريد : الحديث عن هذا الموضوع أمره شائك وغامض لقلة ما عثرنا عليه من مادة تاريخية تتعلق به ، وحتى الراوية العربية نفسها لم تبين لنا على وجه التحقيق تفاصيل هذه التكاليف ، وينبغى الإشارة إلى ما قاله ابن خرداذبه(٢) « أن سكك البريد فى المملكة تسع مائة وثلاثون سكة ، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق البنادرة (البريد) والفرانقيين لسنة مائة ألف دينار وأربعة وخمسون ألف ومائة دينار » .

لم يوضح ابن خرداذبه عما إذا كان هذا الرقم خاصا بعمال ودواب البريد فى جميع المملكة ، أو فى إقليم خراسان الذى كان يعمل به كصاحب بريد ، أو إقليم العراق باعتباره إقليم العاصمة ، الأمر الذى جر علينا مشاكل كثيرة إزاء صمته وعدم تفسيره وحمل المستشرقين على القيل والقال فى كرامة وأخلاق الشرقيين فالهير شبرنجر(٣) مثلا نقل هذا النص عن النسخة الخطية بلندن وعلق عليه بقوله ، وعلى هذا الأساس تكون مصاريف السكة الواحدة مبلغ يناهز ١٦٦ دينار ، وإذا عرفنا أن مرتب الجندى الواحد كان يبلغ مائة دينار وأحيانا يزيد على ذلك استطعنا أن ندرك أن هذا المبلغ من التفاهة بحيث لا يمكن من الأحتفاظ بعدد كبير من الخيول ، أو من إعطاء مرتبات محترمة لموظفى البريد الذين كانوا ولا بد يعيشون على الرشوة والهدايا التى تقدم لهم من رجال المنطقة التى يعملون فيها ليستعيضوا بها عن قلة مرتباتهم ، ويخلص من هذا الأستنتاج الغريب إلى القول بأن الشرقيين عامة مرضى بداء الرشوة ويستدل على هذا من تجاربه الشخصية فى هذا الموضوع ببلاد الهند ، ونحن نرى أن هذا الموضوع الذى أثاره حضرة المستشرق هو خارج عن الموضوع الذى يعالجه ، ولا يتفق بحال مع هذا الإيجاز الشديد الذى عالج به نظام البريد فى الشرق .

(١) صلة تاريخ الطبرى ص ٥٣ : ابن الأثير ج ٨ ص ٤٨٠ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٦ والجمازة شبه — محفه على محالة تجرها الخيول السريعة . يركبها عمال البريد ورجال الحرب وغيرهم ممن يتطلب عملهم السرعة — تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨١

(٢) ابن خرداذبة ص ١٥٣

(٣) Sprenger P.4

وهذا أمر يدعو إلى الغرابه والدهشة من غير شك ، ويدل على رغبة شديدة فى انتهاز الفرصة لتجريح الشرقيين ونقدهم فى أثناء بحث علمى . . . هذا فضلا عن الخطأ العلمى الكثير فهو أولا قد أخذ رقما غامضا وربما كان خاطئا بدليل أنه ذكر الرقم ١٥٤١٠١ ، على حين ورد فى النسخة المطبوعة والتى تحت يدنا ١٥٤١٠٠ ، كما أن حضرته عندما ذكر الرقم لم يتمالك نفسه من أن يتساءل عن حقيقة هذا الرقم وهل هو لكل عام أم لفترة من الزمن . ووضع بين قوسين كلمة سنويا مشفوعة بعلامة استفهام . مع أن النسخة المطبوعة ذكرت كلمة سنويا صريحة كما سبق فى النص . . . وعلى كل فهذه الكتب القديمة كثيرا ما يعتورها النقصان والزيادة ، وهو يعتمد فى هذه الفقرة على كتاب خطى نسخه بنفسه من نسخة خطية أخرى لابن خرداذبه . ويقول فى المقدمة أنه قد نقلها على وجه السرعة فلم يكن أمامه إلا أربعة أيام للقيام بهذه العملية . ومع هذه الظروف كلها فإن حضرته يتمسك بهذا الرقم كما لو كان يتمسك بنص من نصوص القرآن ، ويتخذه سندا للوصول إلى حكم تاريخى يخالف العقل والمنطق ، ثم يبنى عليه نتائج غريبة ، منها أن موظفى البريد كانوا يتقاضون الرشوة كالشرقيين جميعا وكما شاهد هو بنفسه فى الهند .

ولقد قرر السيد أمير على بحق أن هذا الرقم إنما كان خاصا بنفقات البريد فى العراق وحده . وهذا استنتاج أصح من غير شك وإليك نص عبارته(١) «ومصاريف إطعام هذه الدواب وشراء الجديد منها ومرتبات رجال البريد وموظفيه للعراق وحده بلغت ١٥٤ ألف دينار أو ما يقرب من مائة ألف جنيه . وفى حكم الخليفة الأموى هشام بلغت مصاريف البريد فى إقليم العراق فقط أربعة ملايين درهم » . وقد ذكر البعض(٢) خطأ أن الرقم الأخير هو قيمة نفقات البريد لفرع اليمن ، وواضح طبعا أن هذا القول لا يتفق مع الحقيقة التاريخية إذ لا يعقل أن تكون تكاليف فرع اليمن ٣٢٠٠٠٠ دينار على حين أن تكاليف فرع العراق ١٥٤ ألف ، وفرع اليمن من غير شك يعتبر فى المرتبة الثانية بعد فرع العراق ، والميزانية إذا وضعت لا يمكن أن توضع إلا لإقليم العراق فقط وهو كرسى الدولة ، وبهذا ترتفع نفقات المحطة الواحدة إلى ألف دينار بل ألفين إذا لم يكن فى العراق ما يقرب من مائة محطة . وبذلك يكون هناك مجال كبير لدفع مرتبات عالية تغنى الموظفين عن أخذ الرشوة . ويكفى لحفظ عدد كبير من الخيل .

(١) Ashart Hist, of the saracens P. 117

(٢) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٣ — الطائر الفريد ص ٢

على أننا من ناحيتنا لا نزال نتمسك بأن هذا الرقم الذى أورده حضرة المستشرق لا يدل بذاته على كل التكاليف التى يتكلفها البريد ، لأن النقـود كانت تؤلف جزءا صغيرا من الإيرادات والمصروفات التى احتسب الجزء الأكبر منها عينا ، فقد يأتى لمقر الخلافة عدد من الخيول أو البغال أو الجمال كضريبة من الضرائب فتخصصه الدولة لأشغال البريد وهكذا . والمفهوم أن العرب لم يعرفوا الميزانية بمعناها الدقيق كما نعرفها نحن اليوم ، والمفهوم أيضا أن كل إقليم يقوم بنفقات مافيه من جند وما فيه من مؤسسات ومنشئات ، فمحطات البريد الموجودة فى مصر يصرف عليها من غلة مصر ثم يصدر الزائد إلى العاصمة وما يصرف على بريد خراسان هو من متحصلات خراسان ثم يوجه الزائد إلى العاصمة . هذا هو المعقول وهذا هو المعروف ، بل وهذا هو الثابت لـكل من ألقى نظرة ولو عابرة على ما كان عليه النظام فى ظل الخلافة العربية ، فلم يكن النظام المركزى منسقا . ولا يمكن أن يكون منسقا نظرا لاتساع أنحاء الإمبراطورية ، وإلا فهل يريد أن يتصور حضرة المؤلف الألمانى أن رجلا بأقصى خراسان على حدود الصين كان ينتظر أن يصل إليه مرتبه الشهرى من بغداد وأن بغداد هى التى كانت تدفعه .

أما كون موظفى البريد كانوا يعيشون من الهدايا والرشا التى كانت تقدم لهم ، فهو قول ادحضه بتقديم الدليل من النصوص التاريخية التى تثبت على أن الخلفاء أنفسهم كانو أكثر يقظة ، وأكثر حرصا على إعطاء مرتبات جديرة بالاحترام لموظفى البريد ، كى يجمعون أخبارهم على الصحة ، وتفاديا لوقوعهم فيما أشار إليه الأستاذ شبرنجر من مرض الرشوة والهدايا .

إذ ورد فى الرسالة التى كتبها القاضى أبو سيف إلى هارون الرشيد فى هذا المعنى ما نصه[1] « وينبغى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال ، وليدر عليهم ، وتقدم إليهم فى أن لا يستروا عنك خبرا عن رعيتك ولا عن ولاتك ، ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليه خبرا » فـكأن القاضى أبو يوسف قرر رفع مرتبات موظفى البريد وزيادة أرزاقهم كشرط أولى لتلقف الأخبار الصحيحة منهم عما يدور فى الولايات .

وتحدث الأستاذ بارتولد[2] بصفة عامة عن رواتب العمال فى الدولة العباسية أيام

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص٤٤ — ومن قوله . وارتفعت الرواتب فى زمن الخليفة المأمون فـكان قاضى مصر فى أيامه ؛ يتقاضى راتبا قدره أربعة آلاف درهم (٨٠ جنيه انجليزيا) وفى رواية أخرى أعلى من ذلك ، أى يبلغ سبعة آلاف دينار شهريا . (٣٥٠٠ جنيه انجليزى) وقاضى القضاء خمسائة دينار (٢٥٠ جنيه انجليزى) وفى الجملة فإن رواتب العمال فى القرن الرابع وهو عهد تناقص الخلافة أعلى مما كانت فى أيام هارون الرشيد .

بعض الخلفاء وأورد لنا قيمة ما يتقاضاه بعضهم . وإن كان للأسف لم يرد مرتب صاحب البريد ، إلا أنه يفهم من الإحصائية أن مرتبات الموظفين كانت باهظة وسخية ، وربما أن صاحب البريد لا يقل مكانة عن الوزير والقاضى مثلا فلا بد وأن يوازى مرتبه مرتبهما .

وقد أشار أستاذى العبادى إلى ميزانية البريد فى العراق بأنها بلغت ١٦٠ ألف دينار . ولا شك أن مبلغا كهذا كبير إذ لاحظنا القيمة الشرائية له فى الوقت الحاضر[1] .

ولم يغفل ال[redacted] السير توماس أرنولد تلك المسألة بل يشير إليها فى إيجاز قائلا : « إن إنشاء تلك المؤسسات البريدية الـكبرى بمحطاتها المزودة بالجمال والخيول قد كلفت ثمنا باهظا ، إلا أنها قد كفلت الأمن والإشراف الدقيق على الأداة الحـكومية فى امبراطورية مترامية الأطراف كهذه[2] » .

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادى

(٢) Cambridge Med. Hist. V4. P. 283

الفصل الرابع

طرق البريد وسككه

تاريخ إهتمام الإنسانية بإنشاء الطرق قديم بقدم الحضارة البشرية . غير أن مجهود الانسان فى هذا السبيل ضئيل لا يقاس بمجهوداته الأخرى فى نواحى نشاطه العقلى ، ذلك لأن انتقال الأنسان فى حياته البدائية الأولى كان محدودا . وكان القصد منه الحصول على القوت فقط لذا كانت الطرق التى اختارها فى غدوه ورواحه أسهل الطرق وأكرمها ضيافة . . . ولما شعرت الجماعات البشرية الأولى بحاجاتها إلى نشأة القرى والمدن ، تحددت اتجاهات الطرق وألف الناس السير على هذه الطرق المعينة . . . وعلى مضى الزمن عرفت أصول الحضارة ووضعت معالم المدنية ، وحتمت الضرورة اعتماد طرق مختارة ومنفصلة على غيرها ، وهكذا ربطت الطرق البلدان وأصبح من الميسور على زعماء القبائل والعشائر أن يتصلوا بإخوانهم فى الجهات الأخرى النائية ، وهذا الاتصال لا يكون إلا عن طريق إرسال رسلهم متتبعين تلك الطرق المحدودة المعالم . . .

على أن الأمر لم يقف بالطرق عند هذا الحد بل سرعان ما اتخذت لها مكانة سامية بين جميع مظاهر الحضارة عند الأمم الراقية . وذلك بمجرد إنسياح أمة من الأمم فى بقعة فسيحة من الأرض ومد نفوذها وسلطانها على الأمم الأخرى . وهنا بدأ تفكيرها فى إنشاء طرق رئيسية من بين الطرق الفرعية المعتمدة من قبل ، واعتبرت بعض تلك الطرق الرئيسية فى نظر التطور التاريخى والإجتماعى طرقا عالمية يسلكها الزنجى والبربرى والمغولى والأوربى كالطريق البرى بين أوربا والصين مثلا والذى سيرد ذكره فيما بعد . . . ويحفظ التاريخ للرومان فضل الأسبقية على غيرهم فى الأعتناء بالطرق وتخصيص إدارة للاشراف عليها . لذلك كان من الضرورات العلمية أن أشير بكلمة عن الطرق عند الرومان قبل الكلام عن طرق البريد الأسلامية .

(١) الطرق عند الرومان : الرومان وإن كانت حضارتهم قد بدأت متأخرة عن حضارات أمم الشرق الأدنى كمصر وبابل وآشور واليونان ، إلا أنها استطاعت بفضل من تعهدوها بالرعاية والعناية أن تتغذى بفيتاميتات قوية قصرت من أمد طفولتها ، وغدت فى مصاف زميلاتها الشرقيه ، بل وبزتها فى نواحى كثيرة ، فمثلا لم يحفظ لنا التاريخ عن

البريد المصرى قدر ما حفظ عن البريد الرومانى . ولم يحفظ لنا عن الطرق المصرية القديمة قدر ما حفظ عن الطرق الرومانية . ومثل هذا يقال عن بابل وآشور فالقانون الرومانى لا يزال أثره موجودا إلى الآن . على حين أننا لم نقرأ الكثير عن قوانين بابل وآشور ، وفن العمارة واضح عند الرومان فى قصورهم ودواوين حكوماتهم . على العكس عند اليونان والمصريين لا نرى أثره إلا فى المعابد والمقابر .

لذا سنرى العرب قد فطنوا إلى ما فطن إليه الرومان من أهمية الطرق والعناية بأمرها ، ولعل هذا يكون مرجعه إلى اتساع رقعة كل من الأمبراطوريتين العربية والرومانية شرقا وغربا ، أو إلى طبيعة الحكم الذى ارتضته كل منهما ، فهو حكم أتقراطيا مركزا فى بغداد وروما ، على عكس الحكم فى فارس كان إقطاعيا ، أو يكون سببه أخيرا إلى طبيعة الموقع الجغرافى لكل من العاصمتين بغداد وروما . فكلتاها على نهر وقريبة من البحر ، وكلتاهما فى حاجة إلى طرقات مستقيمة تشق ولاياتها من مشرقها لمغربها متجهة كلها صوب العاصمة . . . فكما كانت روما قلب الإمبراطورية الرومانية القديمة الخفاق حتى قيل بحق عنها وقتذاك « كل الطرق تؤدى إلى روما » كذلك كانت بغداد فى العصور الوسطى قلب الإمبراطورية الإسلامية الخفاق وقيل عنها ماقيل عن روما خصوصا فى العصر العباسى الأول[1].

وتفسير ذلك أن الرومانيين قد أدركوا منذ عصور مبكرة ما للطرق العامة من خطورة فى حياة الأمم ، وشعروا بالحاجة المضاعفة إليها بمجرد أن اتسعت رقعة إمبراطوريتهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وكان مبعث هذه الحاجة فى أول الأمر حربيا[2] إذ كان من الضرورى فى أى وقت أن تتحرك الفرق الحربية بسرعة من ولاية إلى أخرى ، وقد شعر الإمبراطور أوجسطس برداءة طرق المواصلات ما بين إيطاليا وكل من غاليا وأعلى الرين ، كما أنه لم يكن هناك طريق سوى يتبعه صوب مقدونيا لعدم صلاحية ساحل دلماشيا لمرور الجند حتى فى أوقات السلم ، وإذا ما أراد الرومان الوصول إليه برا عن طريق الشمال نحو بسنيا Bosnia اعترضتهم جبال الألب الجوليانية Julian lAps[3] وثمة سبب آخر لاهتمام الرومان بالطرق العامة وهو ربط أطراف الأمبراطورية بالعاصمة

---

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادى .

(٢) The Roman System of Provincial Administration P. 18—Cambridge Anc. Hist Vol 10 P. 217,

(٣) Cambridge Anc. Hist. Vol.10 P. 352

حتى يسهل على الحاكمين صيانة ونقل الأخبار الرسمية ما بين روما والحكومات المحلية أو العكس ، فكأن عنايتهم بإنشاء الطرق ساعدت على نشاط وإزدهار حركة البريد عندهم.

وأقدم طريق رومانى يذكره التاريخ القديم هو الطريق الآبى Via Abi اشتق أسمه من أسم القنصل الرومانى أبيوس كلوديوس الأعمى الذى بدأ تشييده منذ اثنين وعشرين قرنا ونصف أى عام ٣١١ ق . م . ويجرى الطريق الآبى من روما إلى كابوا ثم إلى الميناء المعروف الآن ببرنديزى ، ووصف أحد المؤرخين هذا الطريق بالجملة اللاتينية — « longarum Rigina Viarum أى سلطان المسالك والممالك »(١) .

وإذا ما برحت روما شمالا لقيت طريقا رومانيا شهيرا اسمه Via Flaminia وهو بالنسبة لشمال إيطاليا كأنه الطريق الآبى بالنسبة لجنوبها ، انشىء سنة ٢٢٠ ق . م . لكنه ما لبث أن تداعى ، وبعد مضى نصف قرن بدأ الإمبراطور أوجسطس إصلاحا عاما لجميع الطرق الرومانية فى إيطاليا General cura viarum وكلف كل عضو من أعضاء مجلس الشيوخ Senatus الإشراف على إصلاح طريق واحد من بين الطرق الرومانية وأبقى من نصيبه وعلى حسابه الخاص شرف إعادة طريق فلامينيا إلى ما كان عليه ، فشيد من جديد جميع كباريه تقريبا ، ولقد أقيمت نصب وأقواس نصر لتحية أوجسطس عندما مر فوق كبرى فالفيوس آرمنيوس (٢) . وعن هذ الطريق خرج طريقان إحداهما إلى شمال أسبانيا لجنوبها إلى شمال إفريقية حتى قرطاجنة ، والآخر إلى بلاد الغال . وفى غالة نفسها يرجع تحسين طرقها إلى الإمبراطور أجريبا Agrippa الذى أتخذ مدينة lugdunum (مكان ليون الحالية) مركزا رئيسيا تفرع منها أربعة طرق — أولها إلى أكويتانيا ، وثانيها إلى نهر الرين ، وثالثها إلى بحر المانش ، ورابعها مع نهر الرون جنوبا إلى مرسيليا(٣) .

---

(١) مجلة الراديو المصرى العدد ٤٦٤ ص ٦ — ويقال أن الأمبراطور كلوديوس قارن بين الأهرام التى كانت يومئذ عجيبة الدنيا بأسرها وبين الطريق الآبى قائلا — إن الهرم الأكبر أثر يرضى غرور فرد واحد وحتى ذلك الفرد لا تدفن جثته فيه على الأغلب ولكن ما من عابر للطريق الآبى إلا وهو ذاكر بالفضل والحمد ذلك الرجل الذى شيده .

(٢) مجلة الراديو المصرى العدد ٤٦٤ ص ٦ Cambridge Anc. Hist Vol. 10 P 205
ويقال أن أوجسطس قد عهد إلى لجنة من أعضاء السناتو بمهمة الإشراف على الطرق العامة Cura viarum عرفت هذه اللجنة باسم Curatores Viarum اختيروا من بين طبقة البرايتور praetores المتخصصين فى فن إنشاء الطرق Cambridge Anc. Hist. V. X P. 205

(٣) Camb. Anc. Hist. Vol 10 P. 217

أما طريق الشرق الذى يتجه صوب البلقان فيعتبره المؤرخون بمثابة العمود الفقرى لأوربا ويرجعون الفضل فى إنشائه إلى أوجسطس أيضا ، ويبدأ من Aquileia (بين تريست وفيومى تقريبا) مارا بمدينة Singidunum (بلغراد الحالية) فى طريقه إلى بيزنطة . وهو الطريق الوحيد الذى يستطيع المسافر بواسطته فى الوقت الحاضر أن يخترق مملكة يوجوسلافيا من غربها إلى شرقها فى زمن قصير وراحة متوفرة وهو عصب المواصلات فى الممالك البلقانية على وجه العموم الآن(١) .

وتمتاز كل الطرق الرومانية باستقامتها من المبدأ حتى النهاية بصرف النظر عما يعترضها من عقبات طبيعية ، وأيضا تشتهر بقوة البناء ، ولا يزال الكثير منها باقيا إلى الآن وهى على الأغلب تستخدم كعصب للطرق الحديثة(٢) . وكانت طريقتهم فى إنشائها أن تقام على ارتفاع نسبى فوق أرض منبسطة ، ويلاحظ على جانبى الطريق الحفر التى منها أخذ التراب لإنشائه ، وكانت هذه الحفر فى نفس الوقت بمثابة خنادق محصنة تستطيع الفرق الحربية فى أية نقطة على الطريق أن تتجمع بداخلها فى أقرب وقت وفى أمان من العدو (٣) ، وعلى طول الطريق أسست محطات البريد بحيث يقسم الطريق إلى أميال وعلى رأس كل ميل حجر Milestone ويطلق على الميل الأول فى روما — The Golden Milestone — أى معلم الميل الساطع(٤). ولما كانت روما تعتمد اعتمادا كبيرا على الجنود المحاربين فى تمهيد وتعبيد تلك الطرق فى الولايات الرومانية ، فان قانون أجراريا (٥) Lex Agraria الصادر فى سنة ١١١ ق م قضى بان تكون تلك الطرق ملكا للرومان أنفسهم. أما عن أثر هذه الطرق فانه علاوة على سهولة نقل الفرق الحربية من مكان إلى آخر وعلاوة على طمأنة أل Cursus publicus على مؤسساتها ورجالها ودوابها ، فان الطرق كانت وسيلة من وسائل التبادل الفكرى والعقلى بين الشعوب الخاضعة للحكم الرومانى ، فتمكنت الحضارة الرومانية من أن تصبغهم بصبغتها الغربية وتقاليدها الوثنية أولا ثم المسيحية أخيرا ، بل وأكثر من هذا ساعدت الطرق البحرية الأساطيل الرومانية على تتبع القرصنة فى مياه البحر الأبيض المتوسط واستئصال شأفتها (٦) .

---

(١) The Roman System of Provincial Adm. P. 18-- Camb. Anc. Hist. Vol 10. p. 352.

(٢) الراديو المصرى العدد ٤٦٤ ص ٦ .

(٣) The Roman System of provincial Administration P. 18

(٤) Cambridge Ancient History Vol 10. P. 216

(٥) The Roman System of Provincial Adm. P. 116 – 117

(٦) Camb. Anc. Hist. Vol. 10 P. 217, 348.

(٢) الطرق عند العرب . تعودنا أن نلقن التلاميذ فى مدارسنا المصرية الشىء الكثير عن عظمة الأوربيين وخصوصا الرومان الأقدمين فى فن إنشاء الطرق ، وهذه من غير شك حقيقة تاريخية لا يختلف عليها إثنان ، ولا مجال لنا فى إنكارها على الرومان كما سجلناها لهم على النحو السابق ذكره . . . وإنما الشىء الذى يحز فى نفسى ويفعمنى بالحسرة والألم هو الإشادة والتشهير بعظمة الغير والجهل والقصور بفضل العرب على الحضارة الحديثة ، فالعرب الذين كونوا إمبراطورية عظيمة شملت أقطارا فى العالمين الشرقى والغربى لم يفتهم العناية بطرق المواصلات البرية والبحرية [1] . . . غير أنى لا أدرى أ كانوا فى عنايتهم مقلدين وناقلين عن الفرس والرومان ، أم أن الضرورة الملحة واتساع رقعة امبراطوريتهم ألزمتهم إنشاء الطرق لسهولة الاتصال بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية . . أم كان الحافز طبيعيا ، إكمالا لنمو حضارتهم وتمشيا مع نظرية النشوء والأرتقاء ، ويرى البعض [2] أن فرق المشاة الرومانية قد مهدت بعض الطرق فى جزء صغير من بلاد العرب ، ولكن لم يبق من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة Via ومعناها الصراط عند أهل الدين وكلمة Iter التى تستعمل نادرا بمعنى الطريق ، هذا إلى جانب علامات الطرق المسماه بالأميال ، أما الطريق السلطانى فقد أخذ العرب طريقة إنشائه عن الفرس ، كما أخذوا عنهم هذه التسمية ، ولعل طرق ذلك العهد شأن طرق اليوم لم تكن الا شبكة من المسالك المطروقة لا يربطها نظام . . . ومعنى هذا أن الأستاذ متزينفى كزميله الأستاذ شبرنجر وجود طرق منسقة ومنظمة للمواصلات والبريد عند العرب ، وهذا ليس بالشىء الغريب على الغربى فهو مشوق بطبعه إلى ايثار نفسه على الشرقى ، فحملته تلك الأثرة على الإزورار والجحود بما خطه العرب للعالم المتحضر من مدنيات جليلة القدر عظيمة الأثر ، واذا لم يكن للعرب طرق منظمة كما يقول حضرته ، أين إذن طريق وسط آسيا وطريق الخليج الفارسى ، اللذان اشتهرا فى العصور الوسطى ، وعنهما نقلت إلى أسواق أوربا منتجات

(١) كان لعرب الجاهلية طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندى . أحدهما يسير شمالا من حضرموت إلى البحرين على الخليج الفارسى ومن ثم إلى صور — والثانى يبدأ من حضرموت أيضا ويسير محاذيا للبحر الأحمر متجنبا صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنبا هضاب الشاطىء ووعورتها. وعلى الأخير تقع مكة فى المنتصف تقريبا بين اليمن وبطره . هذه الطرق التجارية أفادت العرب فائدة كبيرة وفتحت لهم بابا للرزق كبيرا ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ومنهم من كان يستخدم فى التجارة كأن يكون سائقا أو حارسا أو دليلا — فجر الإسلام ج ١ ص ٤ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٤١ .

الشرق من توابل ومنسوجات ، ومجوهرات ثمينة ، وأحجار كريمة ، وعقاقير طبية ، فشوقت الأوروبيين إلى ضرورة الإستمتاع بملاذ الحياة ، وتسابقت الدول فيما بينها على امتلاك الشرق ، ونتج عن هذا التنافس وذلك التسابق كشف طريق رأس الرجاء الصالح . . ألم تكن طرق القوافل المنظمة والطرق التى أنشأتها الخلافة العباسية هى الوسيلة الوحيدة لنقل مثل هذه المتاجر من أقاصى آسيا إلى أقاصى أوروبا . . . ألم يدل ذلك كله على يقظة رجال ديوان البريد واشرافهم على تلك الطرق وحراستها ، وحسبى دليلا على ذلك ما كتبه الكاتب الأنجليزى هارولد لامب فى وصفه لإمبراطورية تيمورلنك بقوله: «وقد اهتم تيمور بطرق المواصلات فعمر الجسور وأنشأ الطرق وأقام فيها حراسا للمحافظة فى أيام الشتاء حيث تكثر الثلوج والأمطار ، وكان هؤلاء الحراس يسألون عن كل جمل أو فرس أو غيره يسرق من القوافل التى تمر فى مناطقهم ، كما أن القوافل كانت تدفع جزية معينة لقاء هذه المحافظة التى يقوم بها جنود تيمور ، وأما الماء فكان يجلبونه بمجارير خاصة من منابع بعيدة[1] » .

إذا قيل هذا عن امبراطورية تيمور فما بالك بالإمبراطورية الإسلامية يوم أن كانت عاصمتها فى بغداد ذات الموقع الجغرافى الممتاز من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والعمرانية . . تحدث جغرافيوا العرب كثيرا عن طرق تلك الإمبراطورية وأبدى الأستاذ[2] Le Strange رأيه فى كتبهم وأثناهم على عنايتهم بعلم المسالك ، ووضع فى مقدمتهم أبن خرداذبة وقدامه ، وكان الأول مديرا لمصلحة البريد فى ولاية الجبال ، بينما كان الثانى عاملا للخراج وكلاهما تخصص فى المسافات ، أما اليعقوبى فوصف باسهاب طوبوغرافية بغداد . وابن رسته وقد اعتنى على وجه الخصوص بطريق خراسان والطريق الذى يمتد من بغداد جنوبا إلى الكوفة والبصرة فشيراز . والأربعة من جغرافى القرن الثالث الهجرى . . ثم حدث تطور فى علم الطرق وظهر فى القرن الرابع الجغرافيون القياسيون الذين أعطونا الأبعاد بالميل لكل إقليم على حدة فعد هذا تقدما كبيرا ومن مشاهير هؤلاء الإصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، والأول فارسى الموطن يعطينا وصفا حقيقيا مسهبا عن فارس ، والثانى لا يزيد عنه فى شىء من حيث المادة الجغرافية ، أما المقدسى فكتابه عظيم لأنه دون ملاحظاته الشخصية لبعض الولايات كل منها على انفراد من حيث وصف أماكنها وعادات سكانها وحالهم وحرفهم الخ . والثلاثة مما أفادتنا مادتهم فى تعيين بعض

(١) La Vie de Tamerlan P. 157 والترجمة العربية ص ٦٦ .

(٢) The Lands of Eastern Caliphate P. p. 11 — 13

المدن التى خربت على مر الأيام كما ساعدتنا على ملىء الخرائط الجغرافية لتلك الأصقاع .

وقد لخص الأستاذ أدم متز[١] أشهر الطرق المتفرعة من بغداد ، وأمانة للبحث العلمى رأينا ارجاع هذه الطرق إلى مصادرها الأصلية كى يستطيع القارىء أن يكون صورة ذهنية حقيقية عن هذه الطرق وهى فى أوج عظمتها ، وإليك هذه الطرق نقلا عن أقدم هؤلاء الجغرافيين وهما بن خرداذبة وقدامه[٢] ولنبتدىء بذكر

أولا : الطرق إلى سائر كور المشرق ونواحيه .

ابن خرداذبة وقدامه : من بغداد إلى النهروان أربعة فراسخ ، ثم إلى دير بازما أربعة فراسخ ، ثم إلى الدسكرة ثمانية فراسخ ، ثم إلى جلولا سبعة فراسخ ، ثم إلى خانقين سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر شيرين ستة فراسخ ، ثم إلى حلوان خمسة فراسخ فذلك من بغـداد إلى حلوان أحد وأربعون فرسخا . ومن حلوان إلى مادرواستان أربعة فراسخ ، ثم إلى مرج القلعة ستة فراسخ ، ثم إلى قصر يزيد أربعة فراسخ ، ثم إلى الزبيدية ستة فراسخ . ثم إلى خشكاريش ثلاثة فراسخ ثم إلى قصر عمرو أربعة فراسخ ثم إلى قرمسين ثلاثة فراسخ . فذلك من قرمسين إلى حلوان ثلاثون فرسخا .

ابن خرداذبة : من قرمسين إلى الدكان سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر اللصوص سبعة فراسخ ثم إلى خنداذ سبعة فراسخ ثم عقبة همذان إلى قرية العسل ثلاثة فراسخ ثم إلى همذان خمسة فراسخ .

قدامة : من قرمسين إلى قنطرة مريم خمسة فراسخ ، ثم إلى الدكان أربعة فراسخ ثم إلى قصر اللصـوص ستة فراسخ ، ثم إلى أسداباز سبعة فراسخ ، ثم إلى الزعفرانية ستة فراسخ ، ثم إلى همذان ثلاثة فراسخ فذلك من قرمسين إلى همذان إحدى وثلاثون فرسخا . . ومن أراد الطريق من قرمسين إلى نهاوند أخذ من قرمسين إلى الدكان سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر اللصوص تسعة فراسخ ، ثم إلى كراس خمسة فراسخ ثم الى نهاوند أربعة فراسخ . فذلك من قرمسين الى نهاوند خمسة وعشرون فرسخا . ؛ . ومن أراد من نهاوند الى همذان فمن نهاوند الى راكا ستة فراسخ ، الى الديمر خمسة فراسخ ، ثم إلى همذان سبعة فراسخ . فذلك من نهاوند الى همذان ثمانية عشر فرسخا ومن أراد من نهاوند الى الـكرج وهى قصبة الأبغارين فمن نهاوند الى راكا ستة فراسخ ثم إلى حواراب ثمانية فراسخ ، ثم الى الـكرج خمسة فراسخ . فذلك من نهاوند الى

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) راجع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولا ضرورة لتكرار ذكره وصفحاته هنا .

الـكرج تسعة عشر فرسخا . . . فمن احتاج إلى أن يعرف الطريق من همذان الى الأيغارين وقصبتها الـكرج فمن همذان الى طاسبندا خمسة فراسخ ، ثم الى حوار سبعة فراسخ ، ثم إلى الـكرج خمسة فراسخ . فذلك من همذان الى الـكرج سبعة عشر فرسخا ومن همذان الى الـكرح على رستاق سواء من همذان إلى جوران خمسة فراسخ ، ثم إلى صنداد سبعة فراسخ ، إلى سعبان سبعة فراسخ ثم إلى الـكرار تسعة فراسخ . فذلك على هذا الطريق ثمانية وعشرون فرسخا . . . ومن أراد أصبهان من الـكرج فمن الـكرج إلى خرناباذ سبعة فراسخ ، ثم إلى أبتعة سبعة فراسخ ، ثم إلى جرباذقان ستة فراسخ ، ثم إلى قنوران ثمانية فراسخ ، ثم إلى مرج ورهن سبعة فراسخ ، ثم إلى المازمين أربعة فراسخ ، ثم إلى أزميران اثنى عشر فرسخا ، ثم إلى أصبهان ثلاثة فراسخ فذلك من الـكرج إلى أصبهان أربعة وخمسون فرسخا .

ابن خرداذية وقدامة : من همذان إلى درنوا خمسة فراسخ ، ثم إلى يزدجرد خمسة فراسخ ، ثم إلى درة أربعة فراسخ ، ثم إلى طردة أربعة فراسخ ، ثم إلى الأساورة أربعة فراسخ ، ثم إلى دروة وبوستة ثلاثة فراسخ ، ثم إلى داوداباذ أربعة فراسخ ، ثم إلى سوسنقين ثلاثة فراسخ ، ثم إلى دروذ أربعة فراسخ ، ثم إلى ساوة خمسة فراسخ ، ثم إلى مشكوبة ثمانية فراسخ ، (ابن خرداذبة ٩) ، ثم إلى قسطانة ثمانية فراسخ ، ثم إلى الرى سبعة فراسخ . فذاك من همذان إلى الرى أربعة وستون فرسخا .

قدامه : ومن الرى إلى مفضلا باذ أربعة فراسخ ، ثم إلى أفريدين ستة فراسخ ، ثم إلى كاسب ثمانية فراسخ ، ثم إلى خوار ستة فراسخ ، ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ ، ثم إلى رأس الـكلب سبعة فراسخ ، ثم إلى سرخ أربعة فراسخ ، ثم إلى سنان أربعة فراسخ ، ثم إلى آخرين تسعة فراسخ ، ثم إلى قرية دابة أربعة فراسخ ، ثم إلى قومس أربعة فراسخ ، ثم إلى الحدادة سبعة فراسخ ، ثم إلى كوزستان أربعة فراسخ ، ثم إلى بذش ثلاثة فراسخ ، ثم ميمد اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى هفتدر سبعة فراسخ ، ثم إلى أسدا باذ سبعة فراسخ ، ثم إلى بهمنا باذ ستة فراسخ ، ثم إلى النوق ستة فراسخ ، ثم إلى خسرو جرد ستة فراسخ ، ثم إلى حسينا باذ أربعة فراسخ ، ثم إلى ستكردر خمسة فراسخ ، ثم إلى بيشكند خمسة فراسخ ، ثم إلى نيسابور خمسة فراسخ ، فذلك من الرى إلى نيسابور مائة وأربعون فرسخا .

ابن خرداذبة : ومن الرى إلى قزوين ذات اليسار سبعة وعشرون فرسخا ، ثم إلى أبهر اثنا عشر فراسخ ، ثم إلى زنجان خمسة عشر فرسخا . . . ومن الرى إلى مفضلا باذ أربعة فراسخ . ثم إلى كاسب ستة فراسخ ثم إلى أفريذين ثمانية فرسخا ، ثم الخوار

ستة فراسخ ، ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ ، ثم إلى رأس الكلب[١] سبعة فراسخ ، ثم إلى سمنان ثمانية فراسخ ، ثم إلى آخرين تسعة فراسخ ، ثم إلى قومس ثمانية فراسخ، فمن الرى إليها ثلاثة وستون فرسخا . ثم إلى الحدادة سبعة فراسخ ، ثم إلى بذش سبعة فراسخ ، ثم إلى ميمد اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى هفتكند سبعة فراسخ ، ثم إلى أسداباذ سبعة فراسخ ، ثم إلى بهمن أباذ ستة فراسخ ، ثم إلى النوق ستة فراسخ ، ثم إلى خسرو كرد ستة فراسخ ، ثم إلى حسين أباذ ستة فراسخ ، ثم سنكرور خمسة فراسخ ، ثم إلى بيسكند خمسة فراسخ ، ثم إلى نيسابور خمسة فراسخ فمن بغداد إلى نيسابور ثلثمائة وخمسة فراسخ[٢] .

ابن خرادبة وقدامه : من نيسابور إلى بفيس أربعة فراسخ ، ثم إلى الحمراء ستة فراسخ ، ثم إلى المثقب من طوس خمسة فراسخ ، ثم إلى النـوقان خمسة فراسخ ، ثم الى مزدوران العقبة ستة فراسخ ، ثم إلى اوكوينة ثمانية فراسخ ، ثم إلى سرخس ستة فراسخ ، ثم إلى قصر النجار ثلاثة فراسخ ، ثم إلى أشزمفاك خمسة فراسخ ، تلستانة ستة فراسخ ، ثم الى الداند انقان ستة فراسخ ، ثم الى ينوجرد خمسة فراسخ ، ثم إلى مرو خمسة فراسخ . فذلك من نيسابور إلى مرو سبعون فرسخا .

ابن حرداذبة : ومن مرو طريقان . أحدهما إلى الشاش وبلاد الترك ، والآخر إلى بلخ وطخارستان . فأما طريق الشاش والترك : فمن مرو إلى كشماهن خمسة فراسخ ، ثم إلى الديواب ستة فراسخ ، ثم إلى المنصف ستة فراسخ، ثم إلى الأحساء ثمانية فراسخ، ثم إلى بئر عثمان ثلاثة فراسخ ، ثم إلى آمل ثمانية فراسخ . فمن مرو إلى آمل ستة وثلاثون فرسخا . . . ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ ويعبر إلى فربر فرسخ ثم إلى حصن أم جعفر مغازه ستة فراسخ ومنها إلى بيكند ستة فراسخ ، ثم إلى باب حائط بخارا فرسخان

---

(١) يلاحظ اختلاف هذه الأسماء عادة على الخرائط وفى الكتب ، ويرجع (ص ١٩) Le Strange هذا الاختلاف إلى أن بعض القرى ومراكز البريد اشتق اسمها من المظاهر الطبيعية كقرية Salt, Camel village. myrtle village وهى بالفارسية على الترتيب Dih namah, Dih Ushturan, Dih murd مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأسماء الفارسية كانت شائعة الاستعمال فى فارس وترجمها جغرافيوا العرب إلى العربية . إلا أنه يلاحظ فى بعض الأحيان فى القائمة العربية اسم محطة بريد بالعربية على حين أنه لم يصلنا ما يقابلها بالفارسية كقرية Râs — âl Kalb مثلا .

(٢) فى حين أنها بلغت عند قدامه ٣٠٦ فرسخا كالآتى — من بغداد إلى حلوان ٤١ فرسخا ومن حلوان إلى قرميسين ٣٠ فرسخا ومن قرميسين إلى همذان ٣١ فرسخا ، ومن همذان إلى الرى ٦٤ فرسخا . ومن الرى إلى نيسابور ١٤٠ فرسخا = ٣٠٦

ثم إلى ماستين فرسخ ونصف ، ثم إلى بخارا فرسخ ونصف فمن آمل إلى بخارا تسعة عشر فرسخا . . . ومن بخارا إلى شرنح أربعة فراسخ ، ثم إلى طواويس ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كوكشيبغن ستة فراسخ ، ثم إلى كرمينيه أربعة فراسخ ثم إلى الدبوسيه خمسة فراسخ ، ثم إلى أربنجن خمسة فراسخ ، ثم إلى زرمان خمسة فراسخ ، ثم إلى قصر علقمه خمسة فراسخ ، ثم إلى سمرقند فرسخان ، فمن بخارا إليها تسعة وثلاثون فرسخا . . . ومن سمرقند إلى باركث أربعة فراسخ ، ثم إلى خشوفغن أربعة فراسخ ، ثم إلى بور نمذ خمسة فراسخ ، ثم إلى زامين أربعة فراسخ ، وزامين مفرق طريقين إلى الشاش والترك وإلى فرغانه .

قدامه : ومن مدينة مرو طريقان أحدهما : إلى ناحية الشاش وبلاد الترك ، والآخر إلى ناحية طخارستان ، فمن مرو إلى كشميهن خمسة فراسخ ، ثم إلى الديوان وبها سكة ستة فراسخ ، ثم إلى الطهملج موضع سكة فرسخان ثم إلى المنصف موضع سكة أربعة فراسخ ، ثم إلى الأحساء موضع سكة ثمانية فراسخ ، ثم إلى نهر عثمان موضع سكة ثلاثة فراسخ ، ثم إلى العقير موضع سكة ثلاثة فراسخ . ثم إلى آمل خمسة فراسخ فذلك من مرو إلى آمل ستة وثلاثون فرسخا . ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ ، ثم إلى قرية على فرسخ ، ثم إلى حصن أم جعفر ستة فراسخ ، ثم إلى بيكند ستة فراسخ ، ثم إلى باب حائط بخارا فرسخان ، ثم إلى ماستين فرسخ ونصف ، ثم إلى بخارا خمسة فراسخ ، فذلك من آمل إلى بخارا اثنا وعشرون فرسخا ونصف . . . ومن بخارا إلى شرنح أربعة فراسخ ، ثم إلى الطواويس ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كوك ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كرمينيه أربعة فراسخ ، ثم إلى الدبوسيه خمسة فراسخ ، ثم إلى ربنجن خمسة فراسخ ، ثم إلى زرمان ستة فراسخ ، ثم إلى قصر علقمة خمسة فراسخ ، ثم إلى سمرقند فرسخان . فذلك من بخارا إلى سمرقند سبعة وثلاثون فرسخا . . . ومن سمرقند إلى باركت أربعة فراسخ ، ثم إلى خشوفغن أربعة فراسخ ، ثم إلى فورنمذ خمسة فراسخ ، ثم إلى زامين أربعة فراسخ ، وزامين مفرق طريقين طريق إلى شاش وطريق إلى فرغانة .

ابن خرداذبة : فأما طريق شاش ؛ فمن زامين إلى خاوص سبعة فراسخ ، ثم إلى شط نهر الشاش جسر تسعة فراسخ . ثم إلى نهر ترك أربعة فراسخ ، ثم إلى شطوركت وبنونكت ثلاثة فراسخ ، ثم إلى الشاش فرسخان . فمن سمرقند إلى الشاش اثنان وأربعون فرسخا . . . ومن الشاش إلى معدن الفضة سبعة فراسخ ، ثم إلى باب الحديد ميلان ، ثم إلى كبال فرسخان ، ثم إلى غركرد ستة فراسخ ، ثم إلى اسبيجاب أربعة فراسخ ،

فمن الشاش إليها ثلاثة عشر فرسخا . . . ثم إلى شاراب أربعة فراسخ ، ثم إلى بدوخكت خمسة فراسخ ، ثم إلى تمتاج أربعة فراسخ ، ثم إلى أبا رجاج أربعة فراسخ ، ثم إلى منزل على النهر ستة فراسخ ، ثم إلى جويكت خمسة فراسخ ، ثم إلى طراز ثلاثة فراسخ ، فمن اسبيجاب إليها ستة وعشرون فرسخا . ثم إلى كويكت سبعة فراسخ . ومن طراز إلى إلى نوشجان السفلى ثلاثة فراسخ ، ثم إلى قصر باس فرسخان ، ثم إلى كول شوب أربعة فراسخ ، ثم إلى حل شوب أربعة فراسخ ، ثم إلى طولان أربعة فراسخ ، ثم إلى برکی أربعة فراسخ ، ثم إلى أسبرة أربعة فراسخ ، ثم إلى توزكت ثمانية فراسخ ، ثم إلى خرنجوان أربعة فراسخ ، ثم إلى جول أربعة فراسخ ، ثم إلى سارغ سبعة فراسخ ، ثم إلى مدينة خاقان التركشى أربعة فراسخ ، ثم إلى نوا كت أربعة فراسخ ، ثم إلى كبال ثلاثة فراسخ ، ثم إلى نوشجان الأعلى وهو حد الصين مسيرة خمسة عشر يوما للقوافل فى المرعى ، فأما لبريد الترك فمسيرة ثلاثة أيام .

قدامه : فأما طريق شاش فمن زامن إلى خاوص ستة فراسخ ثم إلى نهر الشاش خمسة فراسخ ، ثم إلى بناكت أربعة فراسخ ، ثم إلى جينانجكت أربعة فراسخ ، ثم إلى بنونكت ثلاثة فراسخ ، ثم إلى مدينة شاش فرسخان ، ثم إلى معسكرا فرسخان ، ثم إلى غركرد خمسة فراسخ ، ثم إلى اسبيشاب أربعة فراسخ ، ثم إلى شاراب أربعة فراسخ ، ثم إلى بدوخكت أربعة فراسخ ، ثم إلى تمتاج خمسة فراسخ ، ثم إلى بارجاج أربعة فراسخ ، ثم إلى منزل ستة فراسخ ، ثم إلى شاوغر ثلاثة فراسخ ، ثم إلى جويكت فرسخان ، ثم إلى طراز فرسخان ، ثم إلى نوشنجان السفلى ثلاثة فراسخ ، ثم إلى قصر باس فرسخان ، ثم إلى كول شوب أربعة فراسخ ، ثم إلى كولان أربعة فراسخ فذلك من مدينة طراز إلى كولان أربعة عشر فرسخا . . . ومن كولان إلى قرية بركى غناء أربعة فراسخ ، ثم إلى أسبرة أربعة فراسخ ، ثم إلى نوزكت ثمانية فراسخ ، ثم إلى خرنجوان أربعة فراسخ ، ثم إلى جول أربعة فراسخ ، ثم إلى سارغ سبعة فراسخ ، ثم إلى قرية خاقان التركى أربعة فراسخ ، ثم إلى كنر ميراو فرسخان ، ثم إلى نوا كت فرسخان ، ثم إلى بنجيكت فرسخان ، ثم إلى سوياب فرسخان ، ثم إلى نوشجان الأعلى وهو حد الصين[1] خمسة عشر يوما على سير القوافل فى المرعى والمياه ولبريد الترك سيره ثلثة أيام .

---

(١) ويظهر أن هذا الطريق هو طريق الصين إذ يقول المقدسى (ص٢٧٨) أنه كان بسمرقند باب يسمي باب الصين . ويقول الأستاذ أدم متز (ج ١ ص ٣٥٠) إن مجاوزة هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين كانت تتوقف على ما يكون فيه الأمن ، لأنه كان دائما معدن الخوف ، ففى=

أبن خرداذبة : أما طريق فرغانة ، فمن زامن إلى ساباط فرسخان ، ثم إلى أسر وشنة سبعة فراسخ ، فمن سمرقند إلى اسر وشنه ستة وعشرون فرسخا .. ومن ساباط إلى غلوك ستة فراسخ ، ثم إلى خجندة أربعة فراسخ ، ثم إلى صامغار خمسة فراسخ ، ثم إلى خاجستان أربعة فراسخ ، ثم إلى مدينة باب ثلاثة ثم إلى فرغانة أربعة فراسخ فمن سمرقند إلى فرغانة ثلاثة وخمسون فرسخا . . ثم إلى مدينا قبا عشرة فراسخ ثم إلى أوش عشرة فراسخ ، ثم إلى أوزكند سبعة فراسخ ، ثم إلى العقبة مسيرة يوم ، ثم إلى أطباش مسيرة يوم ، ثم إلى نوشجان الأعلى مسيرة ستة أيام ، ثم إلى خاقان التفزغر مسيرة ثلاثة أشهر .

قدامه : أما طريق فرغانة فمن زامن إلى ساباط فرسخان ، ثم إلى كركت ثلاثة فراسخ ، ثم إلى غلوك أنداز ثلاثة فراسخ ، ثم إلى خجندة أربعة فراسخ ، ثم إلى صامغر خمسة فراسخ ثم إلى خاجستان أربعة فراسخ ، ثم إلى ترمقان ستة فراسخ ، ثم إلى باب ثلاثة فراسخ ، ثم إلى فرغانة أربعة فراسخ ، فذلك من سمرقند إلى فرغانة خمسة وثلاثون فرسخا . . . ومن فرغانة إلى قبا عشرة فراسخ ، ثم إلى أوش سبعة فراسخ ، ثم إلى يوزكند سبعة فراسخ ، ثم إلى العقبة مسيرة يوم ، ثم إلى أطباش مسيرة يوم ، ثم إلى نوشجان الأعلى ست مراحل ، ثم إلى تفزغر مسيرة ستة أيام .

ابن خرداذبه وقدامه . الطريق من مرور إلى طخارستان ، من مرو إلى فاز سبعة فراسخ ، ثم إلى مهدى أباذ ستة فراسخ ، ثم إلى يحيى أباذ سبعة فراسخ سبعة فراسخ ثم إلى القريتين خمسة فراسخ ، ثم إلى أسدباز سبعة فراسخ ، ثم إلى حوزان ستة فراسخ (٥ عند قدامة) ثم إلى قصر الأحنف أربعة فراسخ ، ثم إلى مرو الروذ خمسة فراسخ ثم إلى أرسكن خمسة فراسخ ، ثم إلى الأسراب سبعة فراسخ ، ثم إلى كنجا باذ ستة فراسخ ، ثم إلى الطالقان ستة فراسخ ، ثم إلى كنسحاب خمسة فراسخ ، ثم إلى أرغين خمسة فراسخ ، ثم إلى قصر خوط خمسة فراسخ ثم إلى الفارياب خمسة فراسخ ثم إلى القاع تسعة فراسخ ، ثم إلى الشبورقان تسعة فراسخ ، ثم إلى السدرة ستة فراسخ « ليس بها إلا سكة بريد وخانات » ، ثم إلى دست كرد خمسة فراسخ ، ثم إلى الغور أربعة فراسخ ثم إلى بلخ ثلثه فراسخ[1] .

=طوال العصر الإسلامى بل فى أثناء القرن الرابع من الهجرة كان الناس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الطرق التى تخترق هذا الإقليم وهو الطريق الذى يجتاز فرغانة وحوص التاريم ، وكان أهل الصين يؤثرونه فى القرن الثامن الميلادى ، وسار معه فيما بعد الرحالة الكبير ماركو بولو فلا نجد له ذكرا عند المؤلفين .

(١) من مرو إلى بلخ ماية وستة وعشرون فرسخا — ابن خرداذبة ص ٣٢ .

قدامة : من بلخ إلى سياجرد خمسة فراسخ ثم نهر بلخ جيجون سبعة فراسخ .

ابن خرداذبه وقدامه : طريق الصغانيان ، من الترمز إلى صريخان ستة فراسخ ، ثم إلى دارزنجى ستة فراسخ ، ثم إلى برنجى سبعة فراسخ ، ثم إلى الصغانيان خمسة فراسخ ، ثم إلى بونذا ستة فراسخ ، (ثلاثة عند قدامه) ثم إلى هموارن سبعة فراسخ ثم إلى أبان كسوان ثمانية فراسخ ، ثم إلى شومان خمسة فراسخ ، ثم إلى واشجرد أربعة فراسخ . ثم إلى الراست مسيرة أربعة أيام وهى أقصى خراسان من تلك النواحى .

ابن خرداذبة : الطريق من بلخ إلى طخارستان العليا . من بلخ إلى ولارى خمسة فراسخ ، ثم إلى خلم خمسة فراسخ ، ثم إلى بهار ستة فراسخ ، ثم إلى بكبانول خمسة فراسخ ، ثم إلى قارض عام سبعة فراسخ .

قدامه : من بلخ إلى طخارستان العليا . من بلخ إلى ولارى خمسة فراسخ ، ثم إلى سواحى ثلاثة فراسخ ، ثم إلى خلم ثلاثة فراسخ ، ثم إلى بهار سبعة فراسخ ، ثم إلى بكبانول خمسة فراسخ ، ثم إلى قارض عامر سبعة فراسخ .

ثانيا : الطرق إلى نوحى :

الاهواز ، وفارس ، وأصبهان ، وكرمان ، وسجستان

قدامه : فمن بغداد إلى كلواذى فرسخان ، وإلى المدائن خمسة فراسخ ، وإلى سيب بنى كوما سبعة فراسخ وإلى نعمانية أربعة فراسخ ، وإلى جبل خمسة فراسخ ، وإلى نهرسابس سبعة فراسخ ، وإلى فم الصلح خمسة فراسخ ، وإلى واسط سبعة فراسخ فذلك من واسط إلى مدينة السلم خمسون فرسخا ، ومن واسط إلى الرصافة عشرة فراسخ ، وإلى القطر اثنا عشر فرسخا ، وإلى نهر معقل ستة فراسخ ، وإلى مدينة البصرة أربعة فراسخ ، فذلك من واسط إلى البصرة خمسون فرسخا ، ومن البصرة إلى الأبلة أربعة فراسخ ، ثم إلى بيان خمسة فراسخ ، ثم إلى حصن مهدى على الظهر ستة فراسخ ، وفى الماء على نهر الجديد ثمانية فراسخ ، ومن حصن مهدى إلى سوق الأربعاء أربعة فراسخ ، ثم إلى المحول ستة فراسخ ، ثم إلى دولاب ثمانية فراسخ ، ثم إلى سوق الأهـواز فرسخان ، فذلك من البصرة إلى سوق الأهواز ستة وثلاثون فرسخا .

الطريق من سوق الأهواز إلى فارس

ابن خرداذبة

من الأهواز إلى أزم ٦ فرسخ
ومنها إلى عبدين ٥ «
ثم إلى رام هرمز ٦ «
ثم إلى الزط ٦ «
« « هليزان ٨ «
« « أرجان ٨ «
« « داسين ٥ «
« « بندك ٦ «
« « خان حماد ٦ «
« « الدرخويد ٤ «
« « النوبندجان ٨—٦ «
« « كرجان ٥ «
« « الخرارة ٧ «
« « جوين ٥ «
« « شيراز ٥ «

ومن سوق الأهواز إلى دورق فى الماء ١٨ فرسخ وعلى الظهر ٢٤ فرسخ
ومن شيراز إلى فسا ٣٠ فرسخ
« فسا « درابجرد ١٨ «
« شيراز « جور ٢٠ «
ومنها « البيضاء ٧ «
ومن شيراز « النوبندجان ٢٣ «
« « « اصطخر ١٢ «

قـــدامة

من سوق الأهواز إلى
حويرول ٢ فرسخ
ثم إلى أزم ٤ «
ثم إلى سابك ٤ «
« « قرية الحبارى ٣ «
« « العين ٣ «
« « رام هرمز ٤ «
« « وادى الملح ٤ «
« « الزط ٢ «
« « خابران ٣ «
« « المستراح ٢ «
« « دهليزان ٢ «
« « كبارستان ٣ «
« « بسابك ٣ «
« « أرجان ٥ «
« « داسين ٧ «
« « بندق ٦ «
« « خان حماد ٦ «
« « أمران ٩ «
« « النوبندجان ٦ «
« « الـكركان ٥ «
« « الخرارة ٥ «
« « خـــلان ٥ «
« « جويم ٤ «
« « شيراز ٥ «

فمن الأهواز إلى شيراز مائة فرسخ وفرسخان

الطريق من شيراز إلى كرمان ثم إلى سجستان

ابن خرداذبة

من شيراز إلى الراديان ٧ فرسخ
ثم إلى خرمه ٧ «
« « البرانجان ٤ «
« « كند ٦ «
« « الحيرة ٦ «
« « بئر عقبة ٥ «
« « الميسكانان ٨ «
« « صاهك ٨ «
« « سروشك ٧ «
« « شهر بابك ٧ «
« « قصر النعمان ٨ «
« « قرية إبان ٤ «
« « المرجان ٤ «
« « السيرجان ٤ «
« « قهستان ٦ «
« « قراطة ٦ «
« « رستاق ٦ «
« « خناب ٤ «
« « الفبيرا ٥ «
« « خان جوزان ٥ «
« « خان خوخ ٦ «
« « سروستان ٧ «
« « ديروزين ٥ «
« « بم ٩ «
« « نرماشير ٧ «
« « النهرج ٧ «
ثم إلى الاحساء ٨ فرسخ
« « جرجمنارة ٩ «
« « رباط بعيدة ٧ «
« « اسبيذ ٩ «
« « كراغان ٨ «
« « بئر القاضى ٨ «
« « راشد ٦ «
« « كاونيشك ٤ «
« « بردين ٨ «
« « جارون ٥ «
« « سجستان ٦ «
ومن سجستان إلى هراة ٨٠ فرسخ

قدامة

من شيراز إلى اصطخر ١٢ فرسخ
ثم إلى زياد أباذ ٨ «
« « جوبانان ٤ «
« « قرية عبد الرحمن ٦ «
« « قرية آلاس ٧ «
« « صاهك ٦ «
« « سرمقان ٩ «
« « بشتخم ١٠ «
« « بيمند ١٠ «
« « السيرجان ٤ «
فمن شيراز إلى السيرجان ٧٦ «
من السيرجان إلى قهستان ٦ «
ثم إلى رباط كومخ ٨ «
« « ساهوى ٦ «
« « أمسير ٤ «
« « خناب ٦ «
« « غبيرا ٤ «
« « كورم ٨ «
« « كشك ٨ «
« « رائين ١٠ «
« « دارجين ٨ «
« « بم ١٢ «
« « نرماسير ٨ «
ثم إلى سجستان ١٠٠ فرسخ
فمن السيرجان قصبة كرمان إلى سجستان ١٨٨ فرسخ

قدامة : الطريق من شيراز إلى أصبهان .

من شيراز إلى نيسابور ٧ فرسخ ومن نيسابور إلى مائين ٧ فرسخ ثم إلى عقبة كيسا ٣ فرسخ ثم إلى خوسكان ٧ فرسخ ثم إلى قصراين ٥ فرسخ ثم إلى اصطخران ٧ فرسخ ثم إلى خوارش ٦ فرسخ ثم إلى سراى ماس ومروة ٤ فرسخ ثم إلى كرو ٧ فرسخ ثم إلى الخان ٩ فرسخ ثم إلى اصبهان ٧ فرسخ . فذلك من شيراز إلى أصبهان ٧٠ فرسخ .

ومن أراد أن يأخذ من الأهواز إلى أصبهان فمن سوق الأهواز إلى عسكر مكرم ٨ فرسخ ثم إلى الميانج ٧ فرسخ ثم إلى ايذج ٣ فرسخ ثم إلى برنا بل ٤ فرسخ ثم إلى رستا كرد ٧ فرسخ ثم إلى شليل ٥ فرسخ ثم إلى خوز ستان ٩ فرسخ ثم إلى أربهشت أباذ ٤ فرسخ ثم إلى كريركان ٧ فرسخ ثم إلى بابكان ٧ فرسخ ثم إلى الخان ٧ فرسخ ثم إلى أصبهان ٧ فرسخ فذلك من الأهواز إلى أصبهان ٨٥ فرسخ على طريق ايذج .

ابن خرداذبه : الطريق من شيراز إلى نيسابور .

من شيراز إلى الزرقان ٦ فرسخ ثم إلى قنطرة الكوسجان ٢ فرسخ ثم إلى أصطخر ٤ فرسخ ثم إلى برد ٣ فرسخ ثم إلى منزل فيه بئر ٩ فرسخ ثم إلى جه ٥ فرسخ ثم إلى الكرجار ٤ فرسخ ثم إلى كركولان ٥ فرسخ ثم إلى هندسك ٧ فرسخ ثم إلى مهراباذ ٣ فرسخ ثم إلى أبركويه ٣ فرسخ ثم إلى مهاجر ١٠ فرسخ ثم إلى قصر الأسد ١٥ فرسخ ثم إلى قصر الجوز ٧ فرسخ ثم إلى القلعة ٥ فرسخ ثم إلى يزد ٦ فرسخ ثم إلى أنجيرة

٦ فرسخ ثم إلى خراته ١٣ فرسخ ثم إلى ساغند ١٢ فرسخ ثم إلى رباط محمد بن يزداد ٨ فرسخ ثم إلى خان اشتران ٦فرسخ ثم إلى الحبائك ٧فرسخ ثم إلى جواران ٤ فرسخ ثم إلى طمحرهان ٤فرسخ ثم إلى الطبسين ٨فرسخ ثم إلى قرية محمد بن خرزاذ٤فرسخ ثم إلى سرخذ ٤ فرسخ ثم إلى أفريذرن ١٢ فرسخ ثم إلى زنجى ١٢ فرسخ ثم إلى الطريثيث ٤فرسخ ثم إلى خاسكير ٨ فرسخ ثم إلى قرى قهستان ٤ فرسخ ثم إلى الهوار ٦ فرسخ ثم إلى قبرسه ٦ فرسخ ثم إلى نيسابور ٦ فرسخ ومن نيسابور إلى هراة ٨٠ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من الأهواز إلى أصبهان .

من إيذج إلى جواردان٣ فرسخ ثم إلى رستاجرد٤فرسخ ثم إلى سليدست ٦فرسخ ثم إلى برين ٥فرسخ ثم إلى سوجر ٦ فرسخ ثم إلى الرباط ٧ فرسخ ثم إلى خان الأبرار ٧ فرسخ ثم إلى أصبهان ٧ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من فارس إلى أصبهان .

من فارس إلى كام فيروز ٥ فرسخ ثم إلى كورد ٥ فرسخ ثم إلى تجاب ٤ فرسخ ثم إلى سمارم ٥ فرسخ ثم إلى سياه ٥ فرسخ ثم إلى البورجان ٧ فرسخ ثم إلى كيبالى ٦ فرسخ ثم إلى خان الأبرار ثم إلى أصبهان .

ابن خرداذبة : الطريق من أصبهان إلى الرى .

من اليهودية إلى برخوار ٣ فرسخ ثم إلى رباط رز ٧ فرسخ ثم إلى أنبارز ٥فرسخ ثم إلى أضعافه ٦فرسخ ثم إلى الدنار ٤ فرسخ ثم إلى باذ ٥ فرسخ ثم إلى أبروز ٥فرسخ ثم إلى صواخر ٩فرسخ ثم إلى المقطعة ٥فرسخ ثم إلى قارص ٩فرسخ ثم إلى قم ٦فرسخ ومن قارص إلى الدير ٧ فرسخ ثم إلى دزه ٧ فرسخ ثم إلى الرى ٧ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من شيراز إلى درابجرد .

من شيراز إلى قرية بكار ثلاثة فراسخ ثم إلى الرمان ٤ فرسخ ثم إلى خورستان ٩ فرسخ ثم إلى كرم ٥ فرسخ ثم إلى فسا ٤ فرسخ ثم إلى طمستان ٤ فرسخ ثم إلى الفستكان ٦ فرسخ ثم إلى فساروذ ٤ فراسخ ثم إلى درابجرد ٨ فراسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من اصطخر إلى السيرجان مدينة كرمان .

من اصطخر إلى حفر ٧ فراسخ ثم إلى البحيرة ٥فراسخ ثم إلى أسبنجان ٧ فراسخ ثم إلى قرية الآس ٤ فراسخ ثم إلى الصاهك الكبرى ٦ فراسخ ثم إلى قرية الملح ٩ فراسخ ثم إلى موريانه ٨ فراسخ ثم إلى روان ٣ فراسخ ثم إلى المرجان ١٠ فراسخ ومن شيراز إليها أحدوسبعون فرسخا . ثم إلى الروث ٣ فرسخ ثم إلى فرمان ٢ فرسخ

ثم إلى السيرجان ١١ فرسخ فمن السرجان إلى السيرجان ١٦ فرسخ ، ثم إلى نارما شير ٧ فرسخ ثم إلى النهرج ٤ فرسخ . . ومن الرجان إلى بيمند ٤ فرسخ ، ثم إلى السيرجان ٤ فرسخ ثم إلى الأرحاء ٦ فرسخ ، ثم إلى أستور ٤ فرسخ ثم إلى خان سالم ٨ فراسخ ، ثم إلى بأخته ٨ فراسخ ، ثم إلى وادى قهندز ١٢ فرسخ ، ثم إلى أسبيذنه ٤ فرسخ ، ثم إلى المعدن ٤ فراسخ ، ثم إلى الرباط ٤فراسخ ، ثم إلى جيرفت ٤ فرسخ ثم إلى بم ٢٠ فرسخ ، ثم إلى نهر سليمان ٢٠ فرسخ ، ثم إلى الدهقان ٥٠ فرسخ فمن جيرفت إلى أول عمل مكران ٤١ فرسخ .

ابن خرداذبة : الطريق من الفهرج إلى السند .

من الفهرج إلى الطابران ١٠ فراسخ ، ثم إلى باسورجان ١٤ فرسخ . ثم إلى قرية يحى بن عمرو ١٠ فرسخ ، ثم إلى هذار ١٠ فرسخ ، ثم إلى مدر ١٠ فرسخ ، ثم إلى موسارة ٩ فرسخ ثم إلى درك باموبه ٩ فرسخ ، ثم إلى تجين ١٠ فرسخ ثم إلى مقاطعة البلوص ٢٠ فرسخ ، ثم إلى الجبل المالح ٦ فرسخ ، ثم إلى النخل ٩ فرسخ ثم إلى قلمان ٦ فرسخ ، ثم إلى سراى خلف ٤فرسخ، ثم إلى قنزبور ٣ فرسخ ، ثم إلى حيس ٢٠ فرسخ ثم إلى سراى داران ١٠ فرسخ ، ثم إلى الجيثه ١٠ فرسخ ، ثم إلى قصدار ١٠ فراسخ ثم إلى الجور ٤٠ فرسخ ، ثم إلى أسروشان ٤٠ فرسخ ، ثم إلى قرية سليمان بن سميع ٢٨ فرسخ ثم إلى المنصورة ٨٠ فرسخ فمن أول عمل مكران إلى المنصورة ٣٥٨فرسخ.

ابن خرداذبة : الطريق من البصرة إلى المشرق مع ساحل فارس .

من البصرة الى جزيرة خارك ٥٠ فرسخ ثم الى جزيرة لاوان ٨٠ فرسخ ، ثم الى جزيرة ابرون ٧ فرسخ ، ثم إلى جزيرة خين ٧ فراسخ ، ثم إلى جزيرة كيس ٧فراسخ ثم إلى جزيرة بن كاوان ١٨ فرسخ ، ثم إلى أرموز ٧ فراسخ ، ثم إلى ثارا مسيرة ٧ يوم ، ثم الى الأيبل مسيرة ٨ يوم ، ثم إلى مصب مهران نهر السند فى البحر٢فرسخ ومن مهران الى أوتكين ٤ يوم ، ثم الى كولى ٢ فرسخ ، ثم إلى سندان ١٨ فرسخ ، ثم إلى ملى ٥ يوم ، ثم الى بلين ٢ يوم ، ثم الى اللجة العظمى ٢ يوم . . . ومن بلين تفرق الطرق فى البحر . فمن أخذمع الساحل فمن بلين الى بابتن ٢ يوم ، ثم الى السنجلى وكبشان يوم ، ثم الى مصب كودافريد ٣فرسخ ، ثم إلى كيلكان واللوا وكنجه ٢ يوم ، ثم إلى سندر ١٠فراسخ ، ثم إلى اونشين ١٢ فرسخ ، ثم إلى أبينه ٤ يوم . . . ومن بلين إلى سرنديب يوم ومن أراد الصين من سرنديب إلى جزيرة النكبالوس ١٠ يوم ثم إلى جزيرة كله ٦ يوم ، ثم الى جزيرة بالوس ٢ يوم ، ثم إلى جزيرة جابه ٢فرسخ ،

ثم إلى بلاد منبت العطر ١٥ يوم . . والطريق إلى الصين من مايط إلى قمار ٥ يوم ، ثم الى الصنف ٣ يوم ، ثم إلى لوقين ١٠٠ فرسخ ، ثم الى خانفو ٤ يوم فى البحر و ٢٠ يوم فى البر ثم إلى خانجو ٨ يوم ، ثم إلى قانطو ٢٠ يوم .

ثالثا : الطريق إلى نواحى الشمال :

قـدامة

من سن سميرة إلى الدينور	٥ فرسخ
ثم إلى الخورجان	٩ »
« « تل وان	٦ »
« « سيسر	٧ »
« « اندراب	٤ »
« « البيلقان	٥ »
« « برزة	٦ »
« « سابرخاست	٨ »
« « المراغة	٧ »
« « ده الخرقان	١١ »
« « تبريز	٩ »
« « مرند	١٠ »
من المراغة إلى كولسره	١٠ »
ثم إلى سراة	١٠ »
« « النير	٥ »
« « أردبيل	٥ »
« « خان بابك	٨ »
« « برزند	٦ »
« « بهلاب	١٢ »
من أردبيل إلى موقان	٤ »
ومن برزة إلى تفليس	٢ »

ابن خرداذبة

من الدينور إلى الجبارجان	٧ فرسخ
ثم إلى تل وان	٦ »
« « سيسر	٧ »
« « أندراب	٤ »
« « البيلقان	٥ »
« « برزة	٦ »
« « سابرخاست	٨ »
« « المراغه	٧ »
« « داخرقان	١١ »
« « تبريز	٩ »
« « مرند	١٠ »
« « الخان	٤ »
« « خوى	٦ »
ومن المراغه إلى كورسره	١٠ »
ثم إلى سراة	١٠ »
« « النير	٥ »
« « أردبيل	٥ »
« « موقان	١٠ »
ومن أردبيل إلى خشى	٨ »
ثم إلى برزند	٦ »
« « ساد راسب	٢ »
« « زهركش	٢ »
« « دو الرود	٢ »

قـدامة

ومن تفليس إلى جابروان	٦ فرسخ
ثم إلى نريز	٤ »
« « أرمية	١٤ »
« « سلماس	٦ »
ومن مرند إلى الجار	٤ »
ثم إلى خوى	٦ »

ومن أراد أرمينيه من هذا الطريق فمن مرند إلى السرى ١٠ فرسخ على الوادى ومن الوادى إلى نشوى ١٠ فرسخ ومن نشوى إلى دبيل ٢٠ فرسخ . . ومن أراد ورثان إلى برذعه فمن ورثان إلى قومام ٣ فرسخ ثم إلى البيلقان ٧ فرسخ ثم الى برذعه ٣ فرسخ .

ابن خرداذبة

ثم إلى البذ	١ فرسخ

والطريق من برزند إلى صحراء بلاسجان وإلى ورثان آخر عمـل أذرربيجان ١٢ فرسخ .

ومن المراغة إلى جنزه	٦ فرسخ
ثم إلى موس أباذ	٥ »
« « برزه	٤ »
« « جابروان	٨ »
« « نريز	٤ »
« « أرميه	١٤ »
« « سكماس	٦ »

ومن مرند إلى الوادى ١٠ فرسخ ثم إلى نشوى ١٠ فرسخ ثم إلى دبيـل ٢٠ فرسخ

ومن ورثان إلى درمان	٣ فرسخ
ثم إلى البيلقان	٩ »
« « برذعه	١٤ »
« « البذ	٣٠ »

رابعا : الطريق إلى مكة :

ابن خرداذبة وقدامه . من بغداد إلى جسر كوش ٧ فرسخ ثم إلى قصر ابن هبين ٥ فرسخ ثم إلى سوق أسد ٧ فرسخ ثم إلى شاهى سبعة فرسخ (٥ قدامه) ثم إلى الـكوفة ٥ فرسخ ثم الى القادسية ١٥ ميلا ثم إلى النديب ٦ ميلا ثم إلى المغيثة ٢٤ ميل ثم إلى القرعاء ٣٢ ميل ثم الى واقصه ٢٤ ميل ثم الى العقبة ٢٩ ميل ثم الى القاع ٢٤ ميل ثم الى زبالة ٢٤ ميل ثم الى الشقوق ٢١ ميل (١٨ قدامه) ثم الى قبر العبادى ٢٩ ميل ثم الى الثعلبية ٢٩ ميل ثم الى الخزيميه ٣٢ ميل (٣٣ قدامه) ثم الى الاجفر ٢٤ ميل ثم الى فيد ٣٦ ميل ثم إلى توز ٣١ ميل (٣٣ قدامه) ثم الى سميراء ١٣ ميل (١٦ قدامه) ثم الى الحاجر ٣٣ ميل (٢٣ ميل قدامه) ثم الى معدن ٣٤ ميل (٢٧ ميل قدامه) .

ابن خرداذبة : فمن أخذ على المدينة فمن المعدن الى العسيله ٤٦ ميل ثم الى بطن نخل ٣٦ ميل ثم إلى الطرف ٢٢ ميل ثم إلى المدينة ٣٥ ميل .

قدامه : من النقره إلى مغيثه الماوان ٢٧ ميل ثم إلى الربذة ٢٤ ميل ثم إلى معدن بنى سليم ١٩ ميل ثم إلى العمق ٢٦ ميل ثم إلى أناعية ٣٢ ميل ثم إلى المسلح ٣٤ ميل ثم إلى الغمرة ١٨ ميل ثم إلى ذات عرق ٢٦ ميل — فاذا رجعنا إلى النقرة فمنها إلى العسيلة ٤٦ ميل ثم إلى بطن النخل ٣٦ ميل ثم إلى الطرف ٢٢ ميل ثم إلى المدينة ٣٥ ميـل .

ابن خرداذبه وقدامه . الطريق من المدينة إلى مـكة .

من المدينة إلى الشجرة ٦ ميل ثم إلى مكل ١٢ ميل ثم إلى السياله ١٩ ميل ثم إلى الرويثه ٣٤ ميل ثم إلى السقيا ٣٦ ميل ثم إلى الأبواء ٢٩ ميل ثم إلى الجحفة ٢٧ ميل ثم إلى قديد ٢٧ ميل (٢٦ قدامة) ثم إلى عسفان ٢٤ ميل ثم إلى بطخامر ٣٣ ميل (١٦ ميل) ثم إلى مـكة ١٦ ميل .

ابن خرداذبة : طريق الجاده من معدن النقره إلى مـكة .

من المعدن إلى مغيثة الماوان ٣٣ ميل ثم إلى الربذة ٢٤ ميل ثم إلى معدن بنى سليم ٢٤ ميل ثم إلى السليلة ٢٦ ميل ثم إلى العمق ٢١ ميل ثم إلى الأفيعة ٣٢ ميل ثم إلى السلح ٣٤ ميل ثم إلى الغمرة ١٨ ميل ثم ذات عرق ٢٦ ميل ثم إلى بستان بنى عامر ٢٢ ميل ثم إلى مـكه ٢٤ ميل فمن بغداد إلى مـكة ٢٧٥½ فرسخ : ٨٢٧ ميل .

الطريق من مـكة إلى اليمن

ابن خرداذبة

من مـكة إلى بئر ابن المرتفع ثم إلى قرن المنازل ثم إلى الغتق ثم إلى صفن ثم إلى تربه ثم إلى كرى ثم إلى رنيه ثم الى تباله ثم إلى بيشة بعطان ثم إلى جسداء ثم إلى بنات حرب ثم إلى يبمبم ثم إلى كتنة ثم إلى الثجة ثم إلى سروم راح ثم الى المهجرة ثم إلى عرقه ثم الى صعده ثم إلى الأعمشية ثم إلى خيوان ثم إلى أثافت ثم

قـدامة

من الغمرة إلى الجـدد ١٢ ميل وهو موضع البريد ثم إلى الفتق ثم إلى تربه ثم إلى صفر وهى منزل فيه داران لصاحب البريد فى الصحراء ثم إلى كرادبه وبه منزل صاحب بريد ثم إلى زنية ثم إلى تبالة ثم إلى بيشه ثم إلى جسداء ثم إلى بنات حرم ثم إلى يبمبم ثم إلى كنتبه ثم إلى الثجة موضع البريد ثم

ابن خرداذبة

الى صنعاء فمن صنعاء إلى خيوان ٢٤ فرسخ ومن خيوان الى صعده ١٦ فرسخ ومن صعده إلى المهجرة ٢٠ فرسخ فبين المهجرة وصنعاء ٦٠ فرسخ

قـدامة

إلى شروم راح ثم إلى المهجرة ثم إلى عرقة ثم إلى صعده ثم إلى الأعمشية ثم إلى خيوان ثم إلى أثافت ثم إلى ربده ثم إلى صنعاء قصبة اليمن وهذا الطريق هو الذى عليه الأميال وهو طريق العوامل والعمال

ابن خرداذبه . من صنعاء إلى صدى وجعفى وشنوه ٤٢ فرسخ ومن صدى إلى حضرموت ٣٠ فرسخ ثم صنعاء إلى حضرموت ٧٢ فرسخ . ومن صنعاء إلى ذمار ١٦ فرسخ ثم إلى نسفان وكحلان ٨ فرسخ ومن نسفان إلى حجر وبدر ٢٠ فرسخ ومن حجر وبدر إلى قرية عدن ٢٤ فرسخ فمن صنعاء إلى عدن ٦٨ فرسخ . ومن ذمار إلى علو يحصب ٨ فرسخ ثم إلى السحول ٨ فرسخ ثم إلى الثجة ٨ فرسخ ثم إلى الجند ٨ فرسخ . . . فمن صنعاء إلى الجند ٤٨ فرسخ، ومن صنعاء الى العرف ٨ فرسخ ثم إلى الهان ١٠ فرسخ ثم الى جبلان ١٤ فرسخ، فمن صنعاء إلى جبلان ٣٢ فرسخ ومن جبلان الى زبيد ورمع ١٢ فرسخ[١] .

ولقد علق الأستاذ ادم متز[٢] على الطرق المتجهة صوب مكة بقوله : وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها فى موسم الحج من جميع أنحاء الدول الإسلامية ولم تـكن فريضة الحج وحدها هى التى تجذب هذه الجماعات بل كان يغريها أمان الطريق أيضا فى حماية قوافل الحج الـكثيرة التى كانت تنهال إلى هناك من شق النواحى ، فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١ هـ إلى الشام ومصر وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البوزنطيين ففى سنة ٣٣٥ هـ التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة وكان فيهم قاضى طرسوس ومعه مائة وعشرين ألف دينار .

---

(١) وهناك طرق كثيرة من عواصم الأمصار إلى مكة ذكرت مراكزها دون مسافاتها ورغبنا عن ذكرها هنا كالطريق من مصر إلى مكة ثم من دمشق إلى مكة ، ثم من البصرة إلى مكة ، ثم من اليمامة إلى مكة الخ .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٣٥٣ .

خامسا : الطريق إلى نواحى المغـرب :

ابن خرداذبة وقدامه . الطريق من بغداد إلى الرقه : من بغداد إلى السيلحين ٤ فرسخ ثم إلى الانبار ٨ فرسخ ثم إلى الرب ٧ فراسخ ثم إلى هيت ١٢ فرسخ ثم إلى الناووسه ٧ فراسخ ثم إلى آلوسه ٧ فرسخ ثم إلى الفحيمة ٦ فرسخ ثم إلى النهية ١٢ فرسخ ثم إلى الدازقى ٦ فرسخ ثم إلى الفرضه ٦ فرسخ ثم إلى وادى السباع ٦ فرسخ ثم إلى خليج بنى جميع ٥ فرسخ ثم إلى الناش ٧ فرسخ (٦ قدامه) ثم إلى نهر سعيد ٨ فرسخ ثم إلى الجروان ١٤ فرسخ ثم إلى المبارك ١١ فرسخ ثم إلى الرقه ٨ فرسخ .

قدامه : طريق دمشق من الرصافة . من الرقه إلى الرصافة ٨ فرسخ ومن الرصافة طريقان أحدهما إلى دمشق فى البريه وآخر على حمص فى العمران فأما طريق العمران فمن الرصافة إلى الزراعة ٤٠ ميل ثم إلى قسطل ٣٦ ميل ثم إلى سلمية ٣٠ ميل ثم إلى حمص ٢٤ ميل ثم إلى شمسين الشعر ١٨ ميل ثم إلى قارا ٢٢ ميل ثم إلى النبك ١٢ ميل ثم إلى القطيفة ٢٠ ميل ثم إلى دمشق ٢٤ ميل . . . فأما طريق البريه . من الرصافة إلى دمشق . فمن الرصافة إلى الحزبه ٣٥ ميل واسمها بطلاميا ثم إلى الندبب ٢٤ ميل ثم إلى نهيا ٢٠ ميل ثم إلى القريتين ٢٠ ميل ثم إلى جرود ٣٦ ميل ثم إلى دمشق ٣٠ ميل ومن سلمية إلى دمشق فى طريق يعرف بالأوسط من سلميه إلى فرعايا ١٨ ميل ثم إلى ماء شريك ٢٠ ميل ثم إلى صدد ١٨ ميل ثم إلى النبك ٣٥ ميل .

ابن خرداذبة : من حمص إلى دمشق . من حمص إلى جوسيه ١٦ ميل ثم إلى قارا ٣٠ ميل ثم إلى النبك ١٢ ميل ثم إلى القطيفة ٢٠ ميل ثم إلى دمشق ٢٤ ميل .

قدامة : من حمص إلى دمشق . من حمص إلى جوسيه ١٣ ميل ثم إلى ابعاث ٢٠ ميل ثم إلى بعلبك ٣ ميل ثم إلى عين الجر ٢٠ ميل ثم إلى القرعون ١٥ ميل ثم إلى العيون ٢٠ ميل ثم إلى طبريه ١٥ ميل .

ابن خرداذبه وقدامه : من دمشق إلى طبريه . من دمشق إلى المكس ١٢ ميل ثم إلى جاسم ٢٤ ميل ثم إلى نيف ٢٤ ميل ثم إلى طبريه ٦ ميل .

ابن خرداذبة وقدامه . من طبريه إلى الرملة . من طبريه إلى اللجون ٢٠ ميل ثم إلى قلنسوه ٢٠ ميل ثم إلى الرملة ٢٤ ميل .

قدامة وابن خرداذبة : من مدينة السلم إلى البردان ٤ فرسخ ثم إلى عكبرا ٥ فرسخ ثم إلى باممشا ٣ فرسخ ثم إلى القادسية ٧ فرسخ ثم إلى الكرخ ٥ فرسخ ثم إلى جبلتا ٧ فرسخ ثم إلى السورقانيه ٥ فرسخ ثم إلى بارما ٥ فرسخ ثم إلى السن ٥ فرسخ ثم إلى

الحديثة ١٢ فرسخ ثم إلى طهمان ٧ فرسخ ثم إلى الموصل ٧ فرسخ ثم إلى بلد ٧ فرسخ ثم إلى باعيناثا ٧ فرسخ ثم إلى برقعيد ٦ فرسخ ثم إلى أذرمة ٦ فرسخ ثم إلى تل فراشه ٣ فرسخ ثم إلى نصيبين ٤ فرسخ . . ومن نصيبين مفرق طريقين أحدهما ذات اليمين إلى نواحى الشمال المقاربة لما ذكرنا من المشرق إليها والآخر إلى سائر نواحى المغرب . الأول من نصيبين إلى دارا ٥ فرسخ ثم إلى كفر توثا ٧ فرسخ ثم إلى قصر بنى نازع ٧ فرسخ ثم إلى آمد ٧ فرسخ ثم إلى ميافارقين ٥ فرسخ ثم إلى إرزن ٧ فرسخ . . . والطريق من آمد إلى الرقه ذات الشمال منها إلى الشمشاط ٧ فرسخ ثم إلى تل جوفر ٥ فرسخ ثم إلى جرنان ٦ فرسخ ثم إلى بامقدا ٥ فرسخ ثم إلى جلاب ٧ فرسخ ثم إلى الرها ٤ فرسخ ثم إلى حران ٤ فرسخ ثم إلى تل محرا ٤ فرسخ ثم إلى باجروان ٧ فرسخ ثم إلى الرقة ٣ فرسخ . . . وأما الطريق من نصيبين إلى الرقة فمنها إلى دارا ٥ فرسخ ثم إلى كفر توثا ٧ فرسخ ثم إلى العراده ٣ فرسخ ثم إلى رأس عين ٤ فرسخ ثم إلى الجارود ٥ فرسخ ثم إلى حصن مسلمه ٦ فرسخ ثم إلى باجروان ٧ فرسخ ثم إلى الرقه ٣ فرسخ ... فأما الطريق من بلد ذات الشمال إلى قرقيسيا وسنجار وطريق الفرات فمن بلد إلى تل أعفر ٥ فرسخ ثم إلى سنجار ٥ فرسخ ثم إلى عين الجبال ٥ فرسخ ثم إلى سكير العباس ٩ فرسخ ثم إلى الغدين ٥ فرسخ ثم إلى ماكسين ٦ فرسخ ثم إلى قرقيسيا ٧ فرسخ . . وأما الطريق من الرقة الثغور فمن الرقه إلى عين الروميه ٦ فرسخ ثم إلى تل عبدا ٧ فرسخ ثم إلى سروج ٧ فرسخ ثم إلى المزنبه ٦ فرسخ ثم إلى سميساط ٦ فرسخ ثم إلى حصن منصور ٦ فرسخ ثم إلى ملطية ١٠ فرسخ ثم إلى كمخ ٤ فرسخ ثم إلى زبطره ٤ فرسخ ثم إلى الحدث ٤ فرسخ ثم إلى مرعش ٥ فرسخ .

الطريق من الرملة إلى مصر

ابن خرداذبة

من الرملة إلى أزدود ١٢ ميل ثم إلى غزة ٢٠ ميل ثم إلى رفح ١٦ ميل ثم إلى العريش ٢٤ ميل ثم إلى الورادة ١٨ ميل ثم إلى الثعامه ١٨ ميل ثم إلى العذيب ٢٠ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل ثم إلى جرجير ٣٠ ميل ثم إلى الفاضرة ٢٤ ميل ثم إلى مسجد قضاعه ١٨ ميل

قـدامة

من الرملة إلى ازدود ١٢ ميل ثم إلى غزة ٢٠ ميل ثم إلى رفح ١٦ ميل ثم إلى العريش ٢٤ ميل ومن العريش يفترق إلى اثنين : طريق الجفار من العريش إلى الوراده ١٨ ميل ثم إلى البقارة ٢٠ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل . وأما طريق الساحل فمن العريش إلى

قـدامة	ابن خرداذبة
المخلصه ٢١ ميل ثم إلى القصر ٢٤ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل ومنها طريق الصيف إلى جرجير ٣٠ ميل ثم إلى فاقوس الفاضرة ٢٤ ميل ثم إلى مسجد قضاعه ١٨ ميل ثم إلى بلبيس ٢١ ميل ثم إلى مصر ٢٤ ميل . . ومنها طريق الشتاء إلى المرصد ومن المرصـد إلى الفاضرة ٣٤ ميل .	ثم إلى بلبيس ٢١ ميل ثم إلى الفسطاط ٢٤ ميل .

سادسا : الطريق من الفسطاط إلى برقة وأفريقية والغرب :

ابن خرداذبه وقدامه . من الفسطاط إلى الإسكندرية من الفسطاط إلى ذات السلاسل ٢٤ ميل ثم إلى مرنوط ٣٠ ميل ثم إلى كوم سويد ٢٢ ميل ثم إلى الرافقة ٢٤ ميل ثم إلى قرسطا ٣٠ ميل ثم إلى كربون ٢٤ ميل ثم إلى الإسكندرية ٢٤ ميل .

ابن خرداذبه وقدامه : من الإسكندرية إلى برقة . من الإسكندرية إلى نونيه ٢٠ ميل ثم إلى ذات الحمام ١٨ ميل ثم إلى جنة الروم ٣٤ميل ثم إلى الطاحونة ٣٠ ميل ثم إلى كنائس الجون ٢٤ ميل ثم إلى جب العوسج ٣٠ ميل ثم إلى سكة الحمام ٣٠ ميل ثم إلى قصر الشماس ٢٥ ميل ثم إلى خربة القوم ١٥ ميل (٢٥ قدامه) ثم إلى خرائب أبى حليمة ٣٥ ميل ثم إلى العقبـة أو المسقية ٢٠ ميل ثم إلى مرج الشيخ ٢٠ ميل ثم إلى جب عبد الله ٣٠ ميل ثم إلى جياد الصغير ٣٠ميل ثم إلى جباب الميدعان ٣٥ميل ثم إلى وادى مخيل ٣٥ ميل ثم إلى جب جلمان ٣٥ ميل ثم إلى وادى المغار ٣٥ ميل ثم إلى ناكيست ٢٥ ميل ثم إلى البدانه ٢٥ ميل ثم إلى برقة ٦ ميل .

ابن خرداذبه وقدامه . من برقة إلى طرابلس : من برقة إلى ملتنيه ٢٥ ميل (١٥ قدامه) ثم إلى قصر العسل ٢٩ ميل ثم إلى أبوان ١٢ ميل ثم إلى سلوق ٣٠ ميل ثم إلى برمست ٢٤ ميل ثم إلى بلبو ٢٠ ميل ثم إلى اجدابيه ٢٤ ميل ثم إلى حى نجوه (حرفن) ٢٠ ميل ثم إلى سبخه منهوسا ٣٠ ميل ثم إلى قصر العطش ٣٤ ميل ثم إلى اليهوديتين ٣٤ ميل (٢٤ قدامه) ثم إلى قصر العبادى ٣٤ ميل ثم إلى سرت ٣٤ ميل ثم إلى القرنين ١٣ ميل (١٨ قدامه) ثم إلى قصور حسان ٣٠ ميل ثم إلى

المنصف ٤٠ ميل ثم إلى تورغا ٢٤ ميل ثم الى دعوعا ٢٠ ميل ثم إلى ونداسا ١٨ ميل ثم إلى المجتنى ٢٢ ميل ثم إلى وادى الرمل ٢٠ ميل ثم إلى طرابلس ٢٤ ميل .

ابن خرداذبه وقدامه . من طرابلس إلى القيروان : من طرابلس إلى بترة ٢٤ميل ثم إلى بئر الجمالين ٢٠ ميل ثم إلى قصر الزرق ٣٠ ميل ثم إلى بادرخت ٢٤ ميل ثم إلى النوارة ٣٠ ميل ثم إلى قابس ٣٠ ميل ثم إلى بئر الزيتونة ١٣ ميل (١٨ قدامه) ثم إلى كبابه ٢٤ ميل ثم إلى الـكبس ٣٠ ميل ثم إلى القيروان ٢٤ ميل .

ابن خرداذبه . من القيروان إلى قرطبة : من أفريقية (القيروان) إلى تونس مرحلتان على البغال وبين تونس وبين الأندلس أرض البحر وهو هناك ٦ فراسخ ثم إلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة ٦ يوم .

٣ — السـكك :

يقول Sprenger[1] أن كلمة سكة مستمدمعناها من كلمة حارة (طريق) وأن التعبير العربى والرسمى عن كلمة محطة البريد هو « سكة — والجمع سكك » . وكانت المسافة بين محطة وأخرى يطلق عليها رسميا كلمة سكة[2] . أما التعبير الشائع المستعمل بين الناس فـكانت كلمة بريد . أما فى مصر فـكانت محطات البريد تسمى مراكز البريد وقد عرفها القلقشندى[3] بأنها الأماكن التى تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريديه فيها فرسا بعدفرس. أمامؤرخوا العرب فأطلقوا عليها كلمة منازل . من ذلك ماذكره الطبرى[4] عن المنصور أنه لما دخل آخر منزل نزله من طريق مكة نظر فى صدر البيت الذى نزل فيه فإذا فيه مكتوب : بسم الله الرحمن الرحيم .

أبا جعفـر حانت وفاتك وانقضت   سـنوك وأمر الله لابد واقع
أبا جعفـر هل كاهن أو منجم   لك اليوم من حر المنيـة مانع

فدعا المنصور بالمتولى لإصلاح المنازل فقال له ألم آمرك ألا يدخل المنزل أحد من الدعاة ، قال يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها فقال اقرأ ما فى صدر البيت مكتوبا . قال ما أرى شيئا يا أمير المؤمنين . فدعا برئيس الحجبة فقال اقرأ ما على صدر البيت مكتوبا . قال ما أرى على صدر البيت شيئا . فأملى البيتين فـكتبا عنه ،

(١) مقدمة Sprenger .

(٢) فى لسان العرب (ج ٤ ص ٥٣) السكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط وكان يرتب فى كل سكة بغال وبعد ما بين السكتين فرسخان وقيل أربعة .

(٣) القلقشندى ج ١٤ ص ٢٧٢ .

(٤) الطبرى مجلد III ج ١ ص ٤٤٩ .

فالتفتا إلى صاحبه فقال اقرألى آية من كتاب الله جل وعز تشوقنى إلى الله عز وجل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» . فأمر به فوجى فبكاه وقال ما وجدت شيئا تقرأه غير هذه الآية ، فقال يا أمير المؤمنين محى القرآن من قلبي غير هذه الآية ؛ فأمر بالرحيل عن ذلك المنزل تطيرا مما كان وركب فرسا فلما كان فى الوادى الذى يقال له سقر ، وكان آخر منزل فى طريق مكه كبا به فرسه فدق ظهره ومات فدفن ببئر ميمون . . . . يفهم من هذا أن طريقة العرب كانت عبارة عن تقسيم كل طريق إلى محطات أو مواقف أفراس أو هجن فيستبدل عمال البريد أفراسهم بأفراس مستريحة فى كل موقف التماسا للسرعة(١) . وهذا الموقف ورد فى كتبهم تحت اسم « السكه » وقد بلغ عدد هذه السكك أيام الإمبراطورية العباسية ٩٣٠ سكة كما ذكر علماء المسالك(٢). وإلى القارىء إحصاء رسمى عن أماكن سكك البريد وطرقه ، ولو أنها لا تخلو من بعض التكرار كما وصلتنا عن اثنين فقط من جغرافى القرن الثالث الهجرى وهما ابن خرداذبه وقدامه :

سكك طريق المشرق

ابن خرداذبة : من سرى من رأى إلى الدسكره ١٢ سكة ومن بغداد الى الدسكره ١٠ سكة ثم الى جلولا ٤ سكة ثم الى حلوان ١٠ سكة ثم الى نصير أباد ٩ سكة ثم الى قرمسين ٦ سكة ، ثم الى خردان ١٠ سكة ، ثم الى همذان ٣ سكة ، ثم الى مسكرجه ٢١ سكة ، ثم الى الرى ١١ سكة ، ثم الى قومس ٢٣ سكة ، ثم الى نيسابور ١٩ سكة .

قدامة : من بغداد الى دسكره ١٠ سكة ، ثم الى جلولا ٤ سكة ، ثم الى حلوان ١٠ سكة ثم الى قصر أباد المحطة الأخيرة فى هذه المقاطعة ٩ سكة ، ثم الى قرماسين ٦ سكة ، ثم الى جدار آخر محطة فى منطقة البريد الى دينوار ١٠ سكة ، ثم الى مدينة همذان ٣ سكة ثم الى مشكوبه آخر محطة فى مقاطعة همذان فى اتجاه الرى ٢١ سكة .

ابن خرداذبة : من سامرا الى واسط على البريد ما يأتى :

من سامرا الى عكبرة تسع سكك ومنها الى بغداد ٦ سكك ومنها الى المدائن ٣ سكة ، ثم الى دير العاقول ٤ سكة ، ثم الى جرجرايا ٨ سكة ، ثم الى جبل ٥ سكة ، ثم الى واسط

(١) تاريخ التمدين الإسلامى ج ١ ص ١٨٢ — Cambridge Med. Hist. Vol 4P. 283
(٢) ابن خرداذبه ص ١٥٣ — وما ذكرناه من سكك فهى عنه ولا داعى لتكرار اسمه وصفحات الكتاب .

٨ سكة — ومن بغداد الى واسط ٢٥ سكة ، (٤٠ ؟) وبين واسط والحدود من الأهواز ٢٠ سكة ، ثم الى نوبندجان ١٧ سكة ، ثم الى شيراز ١٢ سكة ، ثم الى اصطخر ٥ سكة .

قدامة : من بغداد الى المدائن ٣ سكة ، ثم الى جرجرايا ٨ سكة ، ثم الى سكة جبل ٥ سكة ، ثم الى واسط ٨ سكة ، ثم الى سكة باذبين ٣ سكة ، ثم الى ديرمانيه فى نهاية شواطىء الدجلة نحو الأهواز ١٣ سكة ، ثم الى نهر تبرين ٤ سكة ، ثم الى سوق الأهواز ٣ سكة ، ثم الى البرجان آخر محطة فى هذه المقاطعة من الأهواز ١٤ سكة ، ثم من الرجان لغاية سكة الرجان سكة واحدة ، ثم من سكة الرجان لغاية نوبندجان ١٧ سكة ، ثم الى شيراز ١٢ سكة ، ثم الى اصطخر ٥ سكة — وسكك طريق العادل من بادس الى البصرة فيه فيوج مرتبون ومن بادس الى عبدس ٥ سكة ، ومن عبدس الى سكة المدار ٨ سكة ، ومن المدار الى البصرة وكانت فيها دواب البريد ٣ سكة — السكك على الطريق الى بادس من البصرة من بادس الى ٥٠٠٠٠ سكة ثم الى سكة من دار (؟) ١٨ سكة ثم الى البصرة ٣ سكة وكان بها خيول لحمل البريد .

قدامة : من حلوان حتى شهر زور ٩ سكة ومن حلوان حتى مدينة السيروان ٦ سكة ، ثم الى سرسميرة ٤ سكة ثم الى دينور سكتين ثم الى يزدجرد على حدود دينور فى الطريق الى زنجان ١٨ سكة ومن سكة يزدجرد الى زنجان ١١ سكة — ومن زنجان الى المراغة ١١ سكة ومن المراغة الى اليانج سكتان ، ثم الى أرديبل ١١ سكة ومن سكة ورثان آخر نقطة من أعمال أذربيجان ١١ سكة ، ومن سكة ورثان الى مدينة برذعة ٨ سكة ، ومن سكة برذعة الى المنصورة ٤ سكة ، ومن برذعه الى مدينة المتوكلية ٦ سكة ومن المتوكلية الى تفليس ١٠ سكة ، ومن البرذعة الى الباب والأبواب ١٥ سكة ، ومن برذعة الى وابيل ٧ سكة .

ابن خرداذبه . من حلوان الى شهر زور ٩ سكة ومن حلوان الى شيروان ٧ سكة ومن حلوان الى الضيمرة ٤ سكة .

ابن خرداذبة : الطريق الى اذربيجان وأرمينيه . من سر سميرة الى الدينور ٢ سكة ومن الدينور الى زنجان ٢٩ سكة ثم الى المراغة ١١ سكة ثم الى الميانج ٢ سكة ثم الى أردبيل ١١ سكة ثم الى ورثان وهى آخر عمل أذربيجان ١١ سكة — ومن ورثان الى برذعة ٨ سكة ثم الى المنصورة ٤ سكة ومن برذعة الى تفليس ١٠ سكة ومن البرذعة الى الباب والأبواب ١٥ سكة ومن البرذعة الى دابيل ٧ سكة .

قدامه وابن خرداذبة : الطريق نحو نهاوند من مدران فى جيبت من دينوار إلى نهاوند ٣ سكة .

قدامة: سكك الطريق العادل إلى قم وأصبهان . من الزرقاء إلى قم ٣ سكة ومن قم إلى أصبهان ٤٧ فرسخ ومن قم إلى سكة الرود آخر عملها مما يلى أصبهان ١٣ سكة والطريق العادل من الدكان الى قزرين من دكان الى قزرين سكة .

ابن خرداذبه : من حمدان الى قم ٤٧ سكة ومن الورقاء الى قم ٣ سكة ومن قم الى أصبهان ١٦ سكة ومن ما دران الى نهاوند ٣ سكة .

سكك طريق المغرب

قدامة : من بغداد الى البروان ٢ سكة ثم الى عكبرة ٤ سكة ثم الى سامرة ٧ سكة ثم إلى جبلتا ٧ سكة ثم إلى السن ١٠ سكة ثم إلى الحديثة ٩ سكة ثم إلى الموصل ٧ سكة ثم الى بدء بلدجبت ١ سكة ثم إلى حدود مقاطعة الموصل حتى سكة بلد ٣ سكة ومن بلد حتى أذرمه ٩ سكة ثم إلى نصيبين ٦ سكة ثم إلى كفر توتا ٣ سكة ثم إلى رأس عين ١٠ سكة ثم إلى الرقة ١٥ سكة ثم الى النقيرة نهاية المقاطعة من دير نصر ١٠ سكة ومن النقيرة الى منبيج ٥ سكة ثم الى حلب ٩ سكة ثم الى قنسرين ٣ سكة ثم الى مبدأ مقاطعة حمص ١ سكة . ومن سكة المرج وهى أول سكة تلى عمل قنسرين الى حوران ٧ سكة ثم الى حماة ٢ سكة ثم الى حمص ٤ سكة ثم الى المحمدية ٤ سكة ثم الى بعلبك ٥ سكة ثم الى دمشق ٩ سكة ثم إلى دير أيوب فى نهاية هذه المقاطعة ٧ سكة ومن دير أيوب الى طبرية ٦ سكة ثم الى اللاجون فى مقاطعة الأردن ٤ سكة ثم الى الرملة قصبة فلسطين ٩ سكة ثم الى سكة المغينة آخر عمل فلسطين ٩ سكة ثم الى نهاية الطريق من جنار حيث تقع سكة البارورية ١٧ سكة .

ابن خرداذبة : من سامرا حتى جبلتا ٧ سكة ثم الى السن ١٠ سكة ثم الى الحديثة ٩ سكة ثم الى الموصل ٧ سكة ثم الى بلد ٣ سكة ثم الى أذرمة ٩ سكة ثم الى نصيبين ٦ سكة ثم الى كفر توتا ٣ سكة ثم الى رأس العين ١٠ سكة ثم الى الرقة ١٥ سكة ثم الى النقيرة آخر عمل ديار مضر ١٠ سكة ثم الى مانبج ٥ سكة ثم الى حلب ٩ سكة ثم الى قنسرين ٣ سكة ثم الى صور ١٠ سكة ثم الى حماه ٢ سكة ثم الى حمص ٤ سكة ثم الى خرشنة ٤ سكة ثم الى بعلبك ٦ سكة ثم الى دمشق ٩ سكة ثم الى دير أيوب ٧ سكة ثم الى طبرية قصبة الأردن ٦ سكة ثم الى اللجون ٤ سكة ثم الى الرملة وهى قصبة فلسطين ٩ سكة ثم الى الجفار ١٧ سكة ثم الى البارورية ١٧ سكة .

ابن خرداذبة وقدامة : من الفسطاط الى الاسكندرية ١٣ سكة ثم الى جب الرمل على الطريق الى برقة ٣٠ سكة .

قدامة : سكك طريق العادل من منبج إلى الثغور الشامية . من حلب إلى قنسرين ٧ سكة ثم الى أنطاكيا ٤ سكة ثم الى اسكندرونه ٤ سكة ثم الى المصيصة ٧ سكة ثم الى أطنه ٣ سكة ثم الى طرسوس ٥ سكة ومن المصيصة الى عين زربه ٢ سكة — الطريق من طبريه الى صور ٧ سكة .

ابن خرداذبة : الطريق من حلب الى الثغور الشامية . من حلب الى قنسرين ٧ سكة ثم الى أنطاكية ٤ سكة ثم الى الاسكندرونه ٤ سكة ثم الى المصيصة ٧ سكة ثم الى أذنه ٣ سكة ثم الى طرسوس ٥ سكة .

قدامة : الطريق العادل من نصيبين أرزن وخلاط . من نصيبين الى مدينة أرزن ١١ سكة ومن بدليس الى خلاط ٤ سكة .

الطريق العادل من كفر توتا الى سميساط . من كفر توتا إلى آمد ٧ سكة ومن آمد إلى تل جوفر سكتان ثم إلى سميساط ٦ سكة ثم إلى قاليقلا ٢ سكة .

الطريق العادل من ديار مضر إلى طريق الفرات . من الرقة إلى سكة ديار آخر عمل ديار مضر ٩ سكة .

الطريق العادل من حصن مسلمة إلى الثغور الجزرية على حران والرها من الحصن إلى حوارن ٣ سكة ومن حران إلى الرها ٢ سكة ومن الرها إلى سميساط ٣ سكة ومن سميساط إلى حصن منصور ٢ سكة .

ابن خرداذبة : سكك اليمن . بين غمره وصنعاء ٤٩ سكة ومن صنعاء إلى ذمار ٤ سكة وبين ذمار وعدن ٧ سكة وبين زمار والجند ٤ سكة وبين صنعاء ومأرب ٧ سكة وبين مأرب وعبدل وهى حضرموت على الإبل ٩ سكة .

قدامة : هذه السكك رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسما للبريد .

هذه سكك البريد التى قال عنها شبرنجر(١) أنها لم تكن أفضل منها فى عهد الأتراك ، فلم يكن الإنسان يستطيع البقاء فيها طويلا ، ولم تكن تتألف إلا من سقيفة صغيرة من القش ، ومن شجرتين يستظل تحتهما زوج من الخيول أو البغال . وهذه السقيفة المغطاه فى حقيقة الأمر مفتوحة من ثلاث جهات وإلى جوارها بعض العشش حيث يسكن الأشخاص الذين يعتنون بالدواب . وعلى الرغم من أن ابن خرداذبة(٢) تحدث عن محطات البريد المزوده بالخيول فإنه لا يزال هناك محل للظن بأن هذه كانت وقفا على الأشغال

---

(١) مقدمة Sprenger ص ٢ ، ٣

(٢) ابن خرداذبه ص ٢٢٥ ، ٢٢٦

الهامة التى تستخدم بريدا خاصا ، وإلا فإنه فى بلاد فارس بصفة خاصة قلما كان الخطاب فيها ينقل من محطة بريد إلى أخرى بواسطة خيل متجددة . نستنتج من هذا أن الأستاذ المستشرق ينكر بصراحة العبارة وجود نظام ثابت للبريد إلا أن يكون هناك خطاب من الدرجة الأولى من الأهمية موجها من الخليفة أو بأمره أو بأمر وزيره إلى ناحية من النواحى ، أو أن يكون هناك خبر فى منتهى الخطورة يراد إبلاغه للخلافة . فهنا وهنا فقط ينقل الخطاب من محطة إلى محطة بواسطة خيول تتجدد فى كل مرحلة . وفيما خلا هذه الأحوال الخاصة القليلة فلا محل للقول بوجود نظام كامل ثابت للبريد بأكثر مما عليه الحال فى الهند المتخلفة والإمبراطورية العثمانية التى كانت فى حالة الذبول .

وإذا جاز الخطأ على ابن خرداذبه فى المسألة المالية فاننا قد نصدق ذلك لأنه لم يكن هناك ميزانيات تنشر على رءوس الأشهاد كما هو حالنا اليوم . أما كونه يشير إلى ما ورد عن ابن خرداذبة من وجود محطات للبريد بها الخيول الكثيرة . يشير إلى ذلك بكثير من الشك والافتراض فهذا أمر لا جدال يجب أن يصدق فيه المؤرخ العربى لأنه أمر يشاهد بالعين . وهو لم يكن يعرف أن أحدا سيحاول فى مقبل الشرقيين أن ينكر وجود نظام كامل للبريد فيعمل على المغالاة والتضخيم . بل إن ابن خرداذبة ثقه فى هذه الناحية لأنه كان موظفا للبريد بالذات وهذا الموضوع من أخص وظيفته . فالخيول كانت موجودة إذن ، ولو أنه من غير المعقول أن توجد فى جميع المحطات أرقام ضخمة من الخيول . بل المعقول أن تكون هناك محطات رئيسية وأخرى فرعية وحسبى أن أشير إلى عبارة ابن خلدون(١) وقد سبق ذكرها فى الفصل الثانى « فابعثنى على أربعين من دواب البريد ، وأبعث إلى كل يوم أربعين رجلا مددا . . . »

هذه النص يدلنا على أن قائله أراد أن يبادر إلى ميدان القتال بأسرع ما يمكن فلم يكن أمامه إلا أن يستخدم أسرع الوسائل فى ذلك الوقت ، فاقترح دواب البريد أو بالأحرى أن يكون انتقاله على أسلوب نظام البريد . إذ لو كان الأمر مجرد خيول عادية وانتقال عادى لما كان الأمر يأخذ صورة النجده به ولا معنى لتخصيصه بأربعين ، فلا جدال أن الدولة تستطيع أن تجهز فورا مائتى أو ألف فارس أو أكثر يسافرون فورا ، وإنما اقتصر على أربعين من دواب البريد لأنه لا يمكن أن يكون هناك أكثر من هذا العدد من الخيول المجهزة للبريد فى المحطات المختلفة . وإذن فنحن أمام نص يدلنا على أن قوافل البريد السريعة كان ينقل عليها فرق صغيرة من الجيش يبلغ عددها أحيانا الأربعين . . .

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٣ ص ٨٩ .

وقد زاد عدد الخيول المجهزة عن الأربعين فكان فى بعض المحطات أيام تيمورلنك(١) مائة رأس ، وفى غيرها أكثر من ذلك حتى إذا أراد تيمور أن يعود مسرعا وجد فى المحطات ما يحتاجه من الخيل القوية السريعة . فالحال لم يكن مجرد عشه صغيره بها زوج من الخيول كما تصور حضرة المستشرق بل أكثر من هذا أنشئت المصانع وخزانات المياه فى بعض الطرق الرئيسية . ففى سنة ١٦١ هـ أمر الخليفة المهدى(٢) باتخاذ المصانع فى طريق مكة وبتجديد الأميال والبرك وبحفر الركايا . . . ويظهر من بعض الأخبار التى تؤيدها الآثار أنه كان لدمشق مركز مهم لبريد العرب حتى أنه بقى اسمه إلى الآن مطلقا على أشهر محل من المدينة وهو باب البريد(٣) .

شاهد المقدسى(٤) هـذا الباب وقال عنه « ويدخل العامة إلى محراب الجامع الأموى من أربعة أبواب . باب البريد عن اليمين كبير له فرخان عن يمين وشمال على كل واحد من الباب الأعظم . وللفرخين مصراعان مصفحة بالصفر المذهب ، وعلى الباب والفرخين ثلاثة أروقة كل باب منها يفتح إلى رواق طويل » .

وقيل سبب تسمية هذا المحل باسم البريد أنه كان مركزه فيه أيام العرب ، وقيل بل لأن البريد كان يمر منه(٥) .

(٤) الرباطات(٦) : تقول الرواية التاريخية(٧) أن المسافر على الطريق فى بلاد فارس يجد ما يسمى « رباطا » فعند ما يحط المسافر رحاله فى أحد هذه الأربطة فإن أول ما يفعله هو أن يدق له وتدا فى الأرض يربط به حبلا وإلى هذا الحبل يعلق المسافر حيوانه أو دابته فيربط إحدى أرجلها الخلفية إليه . ومن هنا سمى هذا المكان حيث يربط الحيوان «رباطا» وقد تطور معنى هذه الكلمة ، وتوسع فيها فأصبحت تطلق على المراكز العسكرية حيث تقف الجنود لمواجهة العدو لمدة معينة أو على سبيل الدوام والاستمرار

---

(١) La vie de Tamerlan P. 157

(٢) أبو الفداء جـ ٢ ص ٤٣ .

(٣) الطائر الفريد ص ٢٢ ، ٢٣ .

قال الشاعر : ما بين جابيها وباب بريدها قمر يغيب وألف بدر يطلع

(٤) المقدسى ص ١٥٨ .

(٥) الطائر الفريد ص ٢٢ و ٢٣ .

(٦) للرباطات علاقة بموضوع البريد لأنها قامت بعمل السكك تماما فى الجهات التى لم يكن بها سكك ، إذ كنت تجد بها أماكن للاستراحة وخزانات للمياه ، كما أنها قامت بالمحافظة على الأمن ومراقبة الطرق . وهذا كله بساعد بطبيعة الحال عمال البريد على اجتياز الجهات الموحشة لتأدية وظائفهم . ويظهر أنها كانت شائعة فى الجهات الصحراوية وعلى الحدود الشرقية الشمالية والشرقية .

(٧) القدسى ص ٦٦ .

استخدمت هذه المخافر التى تبنى فى الطرق الصحراوية رباطات للزهاد ، وفى الوقت نفسه حصون عسكرية للجند ، وكثر عددها بنوع خاص فى بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد ويذكر الاصطخرى(١) أنه يوجد بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، فى كثير منها إذا أنزل النازل أقيم له علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك .

والحق أن شرق المملكه الإسلامية أكرم من غربها ، فيحدثنا ابن حوقل(٢) مثلا أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم أقام رباطات ووقف على مصالحها بقرا سائمة ، وجعل عليها قوامين يحلبونها ، ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها وما من رباط إلا فيه المائة بقره وما فوق ذلك لهذا الوجه . ويؤيد ذلك ما شاهده الاصطخرى(٣) إذا يقول . وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف مرتباتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبل الجاه ووجوه الخير إلا القليل منهم. وليس من بلد ولا منهل ولا مفازه مطروقة ولا قرية آهله إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه . . . وكذلك كانت توضع جباب الماء فى الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل فى الطريق وربما حمل إليها الماء من بعيد(٤) . ويذكر الاصطخرى(٥) أيضا أن رباط أبى على ابن رستم يسكنه رجاله على النوب وهو منزل للماره وله ماء جار من قرية بالقرب منه إلى حوض فى الرباط .

ويختـار أهل القرى بفارس من بين أنفسهم رجلا مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية ويسمونه الجزيز(٦) . وفى البلاد التى كانت نصرانية من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين ، وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلبا للراحة . إذ يوجد بدير يوحنا على مقربة من تـكريت على نهر الفرات ، وبدير باعربا إلى الشمال من ذلك أماكن خاصه لتضييف المسافرين(٧) . الذين من أجلهم بنيت المساكن بكثرة فى بعض الأربطة . بلغت فى إحداها عشرين مسكنا ، وفيه ماء وعليه رحى صغيرة ، وبالرباط زوع ونخيل ومراع(٨) . ويذكر بعض الرحالة أنه رأى على مقربة من بحيرة وان بأرمينية طريقا على امتداده عمد مقامه على الأرض ليسير المسافرون

---

(١) ص ٢٩٠ . (٢) ابن حوقل ص ٢٠٨ . (٣) الاصطخرى ص ٢٩٠ .
(٤) المقدسى ص ٤١٦ . (٥) الاصطخرى ص ٢٢٩ .
(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٧) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٨) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٦٤٥ .

لاتقاء شره ومراقبة حركاته(١) . ويؤيد هذا المعنى ما ورد على لسان القرآن خاصا بقتال النبى مع الـكفار « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . »(٢) ويسمى الجنود القائمون على هذا الأمر فى هذه النقطه مرابطين . « يا أيها الذين آمنو اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون »(٣) وقد خص المؤرخون(٤) بلاد فارس بالأربطة نظرا لاتساعها وكثرة القلاقل التى تسودها والتى زادت شر اللصوص خصوصا فى الصحراء الواقعة بين يزد وطبس . وكان عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) أول من أقر الأمن فى هذه الربوع ، ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللصوص ، واستبدال غيرها بها بين الحين والحين ، لتستطيع القوافل المسافرة فى حراسة الحـكومه اجتياز هذا الإقليم آمنة. وحوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ابتنى عضد الدولة مخفرا معه خزان للماء العذب . وقد وصفه المقدسى(٥) بقوله « رباط آب شتران هو معدن الخوف ومأوى الـكوج ، به قناة عذبة تصب إلى بركة ، والرباط حسن ، مارأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم ، من الحجارة والجص على عمل حصون الشام ، وعليه ابواب حديد ، وهو شديد العمارة ، وفيه قوم يحفظونه ، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك الشرق » ولـكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمن الطريق. فالمقدسى نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة فى سبعين يوما مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخا بتقدير ابن خرداذبة، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها(٦) ولأن الطريق كان — على حد قوله(٧) — مخوفا من قوم يقال لهم القفص ، يسيرون اليه من جبال كرمان ، قوم لا خلاق لهم ، وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس وجلاده ، لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تقتل الحيات، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى يتصدع .

---

(١) مقدمة Sprenger . (٢) سورة الأنفال .
(٣) سورة آل عمران . — وفى المصباح المنير (جـ ١ ص ٢٩٣) الرباط ما يربط به القربه وغيرها والجمع ربط ، والرباط اسم من رابط مرابطة من باب قاتل إذا لازم ثغر العدو ، والرباط الذى يبنى للفقراء مولد ويجمع فى القياس ربط ورباطات وفى كتاب « الإدارة الإسلامية فى عز العرب » ذيل ص ٢٠ . المرابطة . أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره ، وكل مستعد للقاء صاحبه فـكانوا يرابطون أى يقيمون على جهاد عدوهم بالحرب ومرابطات المسلمين مواضع خيامهم المرابطة والمرابطة هم الجماعة رابطوا . (٤) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ جـ٢ ص٣٥٣ .
(٥) ص ٤٨٨ . (٦) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ جـ ٢ ص ٣٥٤ .
(٧) المقدس ص ٤٨٨ .

أيام المطر والضباب بهديها . كما أقيمت فى الطريق الذى بين نفراوه وقسطيليه خشب يهتدى المسافرون بها لـكيلا يضلوا فى الأرض السواخه التى بين هذين البلدين[١] .

انتهينا من فصل الطرق وما يتعلق بها من سكك ورباطات ، ولابد من أن نتذكر — لنعرف قدر تلك الطرق — العقبات الطبيعية والحواجز الجغرافية من أنهار وجبال وهضاب إلى صحارى وغابات ومستنقعات ، وكلها كانت حجر عثرة فى شق تلك الطرق ، ولـكن المتخصصين فى بنائها تغلبوا عليها فرفعوا أرضا وخفضوا أخرى ، واجتازوا نهرا ، واخترقوا جبلا[٢] . . . . وإنى أعتقد أن الأمريكيين والإنجليز يتشبهون فى حربهم الحالية[٣] بالعرب فيما يتعلق بالطرق ؛ فطرقهم بصحراء ليبيا وإيران المقسمة إلى أشواط وفى آخر كل شوط استراحه وعمال للصيانة ، ما هى إلا صورة لما كانت عليها أيام العباسيين غير أن السيارة حلت محل الحصان والسائق حل محل الفارس . فـكما كان عامل البريد يستبدل فرسه بآخر مستريح ، ويأكل وينام بسكة البريد كذلك يفعل السائق ، يقطع شوطه بالسيارة ثم ينزل ليأكل وينام ثم يركب سيارة فارغة ليعود إلى قاعدته — أما السيارة التى بدأ بها الشوط منذ حين فتفحص فحصا سريعا ثم تنطلق مزودة بالوقود يقودها سائق جديد وهكذا حتى تصل إلى نهاية الخط .

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٣

(٢) يقول الأستاذ ادم متز (ج ٢ ص ٣٤٣) أن جنكيزخان أنشأ طريقا يخترق جبال تيان شان جنوب بحيرة صيرم ، أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تتسع كل منها لعربتين تسيران متحاذيتين.

(٣) الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) .

الفصل الخامس

البريد فى مصر الإسلامية

المعروف أن العرب بعد أن تم لهم فتح الشام سنة ٢١ هـ استأذن قائدهم عمرو بن العاص الخليفة عمر فى فتح مصر ، ولسنا فى صدد الـكلام عن هذا الفتح ، وهل كان صلحا أم عنوة ، وهل حدث فى سنة ١٦ هـ أو عشرين هـ أو ٢٥ هـ على رأى . فهذا موضوع يحوطه الغموض ، واختلفت فى الحـكم عليه الروايات ، ولا يزال فى حاجة إلى عرض جديد وتصفية جديدة . . . والمعروف أيضا أن مصر ظلت خاضعة للرومان مدة تزيد على الستة قرون شاهدت فى خلالها تشكيلات حكومية متباينة ، تخضع كلها فى جوهرها لقواعد الحضارة الرومانية وقد قدر للمصريين أن يهضموا من تلك القواعد ما يتفق وروحهم وتقاليد بلادهم . . . فلا غرابة إذن أن نرى معظم هـذه القواعد معمولا بها حتى بعد الفتح العربى ، فالعرب قد فطنوا من أول الأمر إلى أنه يوجد بمصر نظام إدارى مستقر من قديم الزمان وإدارة مالية محكمة .

فأحسنوا فى الاحتفاظ بهذه النظم الإدارية والمالية مع تعديل يسير فى بعض الأحوال ويفهم من الوثائق[١] أن نظام البريد كان من أهم تلك النظم الرومانية الموروثة بفسطاط مصر وكثيرا ما عولت حكومة الفسطاط على عمال البريد فى الأخبار التى ترد إليها من المديريات عن تحصيل الضرائب الأميرية هناك .

(١) البريد المصرى من الفتح حتى عصر الظاهر بيبرس (٢٠ — ٦٥٦ هـ) :

لـكى نفهم هـذه الفترة يحسن أن نقسمها إلى ثلاثة مراحل : المرحلة الأولى من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ وفيها امتازت مصر بأنها كانت ولاية عربية بمعنى الـكلمة يوم أن كان يحكمها وال من قبل الخليفة ، فلم يكن له شخصية دولية بالمعنى القانونى اليوم . . والمرحلة الثانية هى المرحلة التى تمتعت فيها مصر بصفة الدولة المستقلة استقلالا لا يكاد يكون تاما . ولم يكن يربطها بالخلافة الإسـلامية إلا السيادة الإسمية[٢] فقط أيام الطولونيين

(١) Henri lammens : Etudes sur le Siécle des O mayyades P. 314.

(٢) مظاهر هذه السيادة كانت ممثلة فى ذكر اسم الخليفة فى الخطبة وعلى السكة وفى دفع الجزية سنويا لدار الخلافة .

(٢٥٤ – ٢٩٢هـ) والأخشيديين (٣٢٣ – ٣٥٨هـ) ثم الأيوبيين أخيرا (٥٦٧ – ٦٥٦هـ) وكانت الغلبة فى هذه المرحلة للعنصر التركى بطبيعة الحال . فعلى الرغم من استقلال هذه الأسر بمصر إلا أن عمداءها كانوا حريصين على الحصول على تفويض شرعى من الخلافة كى تقرهم حكاما على مصر . . . والمرحلة الثالثة هى المرحلة التى شطرت المرحلة الثانية شطرين فجاءت بعد الأخشيديين وقبل الأيوبيين وعرفت بعصر الفاطميين (٣٥٨ – ٥٦٧هـ) وفيها تمتعت مصر بالاستقلال التام واعترفت الدبلوماسية المعاصرة وقتذاك بشخصيتها الدولية .

فى الواقع تاريخ البريد فى هذه الفترة يمكن أن أصفه بالبتر لما يحيطه من الغموض واللبس ، فتارة أعثر على إشارة عابرة من كلمة أو كلمتين يرد فيها ذكره ، وأخرى ينضب معينه ويجف تماما ، وعلى ضوء هذه الشذرات ، وبقدر ما وصلنى من مادة مبعثرة هنا وهناك حاولت جهد طاقتى أن أخفف من حدة هذا الغموض . فمثلا فى المرحلة الأولى من عهد الفتح يشير التاريخ[1] فى سياق حديثه عن سياسة الولاه إزاء أهل الذمة من القبط واليهود والإغريق ، يشير إلى حذرهم فى تأمين أهل الذمة على تنفيذ سياسة جمع الجزية بالعدل والطمأنينة، مستعينين فى ذلك بصاحب البريد الذى عهد إلى عماله فى الأقاليم بمراقبة جهات الضرائب للحيلولة دون تعسفهم مع أهل الذمة .

وفى نهاية هـذه المرحلة تقريبا نلحظ تطورا فى سياسة عامل البريد فى مصر ، إذ نراه فجأة يزج بنفسه فى تيار النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين ، فعلى الرغم من تبعية « واضح » عامل بريد مصر[2] لصاحب البريد فى بغداد وكونه مسئولا أمامه إلا أنه يقدم أدوات البريد من دواب ورجال لأحد الخارجين على الخليفة الهادى وهو إدريس بن عبد الله عند مروره بمصر فى طريقه إلى بلاد المغرب ، يضع واضح أدوات البريد تحت تصرف إدريس فيستخدمها ليحارب الدولة فى بلاد المغرب فينجو بنفسه ويؤسس حكما مناوئا للعباسيين هناك ، وقد دفع واضح ثمن هـذه الخيانة غاليا على النحو الذى ذكرناه فى الفصل الثانى .

وفى بداية المرحلة الثانية يلبس البريد المصرى لباس القومية ويتوق إلى الإنفصال عن إدراته العليا فى بغداد ، وذلك فى وقت قبضت العناصر غير العربية على ازمة الأمور فى بغداد وفى الولايات . ونمت فى الأخيرة روح التمرد والأنفصال ، وتجلت بنوع خاص

(١) Etudes sur le Siécle des 6mayades P. 314.

(٢) المقدسي ص ٢٤٤ — الطبرى بجموعة ٣ جـ ٢ ص ٩٦٠ .

فى مصر ، فابن طولون أراد الإستفادة من مركز مصر الجغرافى وبالتالى من إدارة البريد فى تحقيق أطماعه الشخصية ، وكانت الظروف طواعية أمره فينجح فى تعيين أحد صنائعه صاحبا للبريد[1] فى الحضرة الخليفية ، فيجىء بطبيعة الحال أكثر اخلاصا له من الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) ، ويترصد الكتب التى ترد من العناصر المعادية لابن طولون فى مصر للإيقاع به عند الخليفة فيردها إليه ، ويعرف ابن طولون أصحابها ويراقبهم مراقبة دقيقة ، ثم يفتك بهم ، وما زال على هذا الحال حتى طهر مصر من أعدائه واطمأن بفضل الجاسوسية التى أقامها فى بغداد لحسابه ، على أن الأمور لم تهدأ بالنسبة لابن طولون عند هذا الحد فسرعان ما تشتد العاصفة وتعمل على اقتلاعه من من ولاية مصر لولا سهر عمال بريده واعتماده عليهم ، فلما وقع الجفاء بين الموفق طلحة وابن طولون فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) كتب الأول إلى قواد مصر ليفسدهم على ابن طولون ، ولكن كتب القواد وقعت فى يد ابن طولون وزادته توكيدا فى عداء الموفق له . وتفنن كلاهما فى التنكيل والكيد بالآخر . وحفظ لنا القريزى[2] الكتب المتبادلة بينهما وكلها تدل على العداء المر بين الرجلين . من ذلك ما يحكى عن الموفق أنه أرد أن يشغل قلب أحمد بن طولون فدس من سرق نعله من بيت حظية له لا يدخله إلا ثقاته ثم بعثها إليه . فقال له الرسول « من قدر على أخذ هذا النعل من الموضع الذى تعرفه أليس هو بقادر على أخذ روحك »[3] . فالموفق من ناحية يريد أن يشهر بسمعة ابن طولون لدى الخليفة ، ومن ناحية أخرى يريد أن يشعر ابن طولون بقوته وقدرته على الإبقاء عليه فى مصر أو إخراجه منها .

ونزل ستار الرواية العدائية بين خمارويه بن أحمد بن طولون والموفق بهزيمة الأخير وعقد الصلح بين مصر وبغداد ، ومن شروطه زواج الخليفة المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩هـ) من ابنة خمارويه (قطر الندى) وتغالى أبوها فى جهازها مما حدانا إلى القول بأن هذا الزواج كان مسألة سياسية أريد من ورائها امتصاص ثروه مصر لإضعاف قوة آل طولون . ولا أدل على هذا من أن يأمر خمارويه إدارة بريده بإعداد الطريق بين بغداد والقطائع على صورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ من قبل فيبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصرا فخما فيما بين مصر وبغداد . ثم تخرج قطر الندى مع عمها خزرج وصحب

(١) مصر فى ظلال الحكم الإسلامى ص ٨٥ — تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٣) « « « « ١٨٠ — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع جـ ١ ص ١١٨ .

أبيها . فيسيرون بها سير الطفل فى المهد ، ولذلك لم تعان شيئا من ألم السفر على بعد الشقة ، وكأنها فى منازلها المختلفة لم تغادر بيت أبيها[١] .

وأصاب بغداد من الإحن والكوارث فى ظل سيادة البويهيين والسلاجقة ماجعل مادة المؤرخين عن البريد تنعدم انعداما كليا ، والمعروف عن السلطان السلجوقى ألب أرسلان أنه أبطل نظام البريد عند العباسيين ١٠٦٣ (٤٥٥ هـ)[٢] ولم يحفظ لنا التاريخ فى الكتب التى تناولتها شيئا عن بريد الاخشديين . وظل حال البريد كذلك حتى أتت الدولة الزنكية فأعادت انشائه وتنظيمه من جديد ودام الأمر كذلك أيام بنى أيوب[٣] . . . ولكن على أية صورة أعيد تنظيمه وإنشائه ، هذا ما فشلت بحق فى تحقيقه[٤] وحتى الدولة الأيوبية نفسها لم تترك لنا آثارا عن بريدها . وكم كانت دهشتى عظيمة عندما تناولت كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى وزير صلاح الدين الأيوبى . وأنا مشوق لإيجاد مادة خصبة فيه عن البريد فإذا بأملى يتبدد ويصبح ضربا من ضروب الخيال عندما أراه يتحدث عن قوانين الدولة الإدارية والإقتصادية ولم يشر إلى كلمة البريد إطلاقا . وكذلك كان الحال عند شهاب الدين فى كتابه « الروضتين فى تاريخ الدولتين » ثم تأتى المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه الفترة والتى عرفتها بعصر الفاطميين ، وكنت متوقعا أيضا مادة غزيرة فى كتب هذا العصر ، فإذا بالبريد الفاطمى لم يكن أسعد حظاً من زميليه الإخشيدى والأيوبى . هذا على الرغم من استقلال مصر استقلالا كليا وانقطاع صلتها ببغداد واتصالها بالبلاطين البيزنطى فى شرق البحر الأبيض المتوسط والأموى فى غربيه ، ولم يشر أستاذى الدكتور حسن ابراهيم فى كتابه « الفاطميون فى مصر » وهو صورة صادقة للتطور التاريخى فى هذا العصر إلى نظام البريد عندهم ، مع أنه تكلم باسهاب عن حضارة الفاطميين ونظم حكمهم ، وليس معنى هذا أن الفاطميين لم يعرفوا قيمته ولم يعتنوا به ، وإنما سنرى فى الفصل القادم اهتمامهم به من ناحية أخرى عن طريق الحمام الزاجل .

يستفاد من هذا أن بريد مصر ظل خاضعا فى إدارته لبغداد حتى استعر أوار الفتن فى أنحاء الامبراطورية وانتهز ولاة مصر الفرصة وقطعوا صلتهم ببغداد ، وانفردت مصر ببريدها الخاص على أن هذا الانفراد أو إن صح الاستقلال لم يكن دائما إلا فى العهد

(١) مصر فى ظلال الحكم الإسلامى ص ٩١ — تاريخ الإسلام السياسى حـ ٣ ص ٢٨٢ .
(٢) Sauvaget . (٣) التعريف ص ١٨٦ — القلقشندى جـ١٤ ص٣٦٩ .
(٤) أشار Sauvaget ص ١١ إلى استخدام الأيوبيين للحمام الزاجل فقط وللسعاة المشاة والإبل فى الضرورات التى تستلزم سرعة نقل الرسالة .

الفاطمى وجزء من عهد الأسرة الطولونية . وما عداهما فكانت هناك رابطة بين مصر وبغداد . وقد فسر البعض هذا التحليل بقوله[١] : فلما استقل الولاة بحكم مصر ألغوا بريد الخلفاء ، وأنشأوا لأنفسهم بريدا خاصا كان ينقله السعاة المشاة ثم استخدم السعاة الجمال إلى أن تولى الظاهر بيبرس حكم مصر سنة ١٢٦٠ م . فتيقظ إلى عظم الفائدة التى يجنيها من ورائه ، فتوسل به فى ربط أجزاء دولته المترامية الأطراف عندما بدأ فى توحيد قوى الإسلام فى الشرق عقب الحروب الصليبية ، فارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء المملكة بشبكة من البريد البرى والجوى[٢] .

(٢) بريد السلطان الظاهر بيبرس : لما وصل إلى مصر نبأ إغارة المغول على بغداد وقتلهم الخليفة العباسى المستعصم سنة ١٢٥٨م ثارت ثائرتها وخرجت لصدهم عن أملاكها فى الشام ، وهزمت زعيمهم هولاكو فى موقعة عين جالوت المشهورة سنة ١٢٦٠م ، ويرجع الفضل فى هذا الانتصار إلى بيبرس أحد قواد المماليك الذى نصب نفسه سلطانا على مصر وجعل حكمه شرعيا فى البلاد بإحيائه الخلافة العباسية فى القاهرة . ولهذا وقع اختيارنا على عصره لدراسة البريد المصرى فيه دراسة وافية . وأيضا لأن مصر فى هذا العصر بلغت قوتها المادية والمعنوية إلى أوج عظمتها واحتشدت فيها قوى العالم الإسلامى أجمع وأصبحت دولة كبيرة يشار إليها بالبنان . فدراسة بريدها فى هذا العصر هو أصدق مثل لبريد الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى . وتقول الرواية المعاصرة للظاهر بيبرس على لسان ابن فضل الله العمرى أن الظاهر لما أراد تجهيز دولة إلى دمشق عين لها نائبا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للانشاء ، وكان الصاحب شرف الدين[٣] أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب الإنشاء . فلما مثل إلى الظاهر ليودعه أوصاه وصايا كثيرة ، أكدها مواصلته بالأخبار وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج وقال له : «إن قدرت أن لا تبيتنى كل ليلة الا على خبر ولا تصبحنى الا على خبر فافعل فعرض له بما كان عليه البريد فى الزمان الأول وأيام الخلفاء . وعرض عليه لحسن موقعه منه وأمر به . قال عمى : « فكنت أنا المقرر له قدامه وبين يديه ، وحدثنى بذلك مفصلا مطولا عن عمى جمال الدين عبد الله الدوادارى البريدى المعروف بابن الشديد ، وهاهو الآن على ذلك وهو جناح الإسلام الذى لا يحص ، وطرف قامته التى لا تقص[٤] » . هذه الرواية توضح

(١) تاريخ البريد ص ٢٧ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦١٠ — النظم الإسلامية ص ١٥٨ — الظاهر بيبرس ص ١٣٥ . (٣) الصاحب شرف الدين هو عم ابن فضل الله العمرى .
(٤) التعريف ص ١٨٧ — القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٧٠ .

مدى اهتمام الظاهر بيبرس بنظام البريد منذ ساعة توليه الحكم ، والجهود التى بذلها لتركيز نظامه وتثبيته حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل بالقاهرة الى دمشق — وهما المركزان الأساسيان فى عهده للبريد — فى أربعة أيام ويعود فى مثلها ، كما ترد اليه أخبار الممالك فى كل جمعة مرتين[١] .

ومما يدل على أن نظام البريد قد بلغ فى عهده مبلغا من الدقة يستوجب الإعجاب أن السلطان نفسه كان يعلق أهمية كبرى على سفر البريد فى مواعيده المقررة . . . . الأمر الذى آزره على صد غارات التتر فى الوقت المناسب كما آزره على تفقد الحالة فى مختلف أنحاء السلطنة والإلمام بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولاة والحكام[٢] . . . ولم يتأت ذلك كله للظاهر بيبرس إلا بعد أن أنفق أموالا ضخمة فى سبيل ترتيبه[٣] . وكان قصده من وراء ذلك قصر استعماله لصالح الحكومة فقط ولحمل العمال وناقل البريد[٤] .

وسندرس الآن أهم الطرق التى أنشأها السلطان بيبرس . وكانت كلها تتشعب من المركز الرئيسى الهام بقلعة الجبل بالقاهرة . واليك أهم تلك الطرق البريدية كما وردت فى أكثر من مصدر[٥] .

(١) الطريق من قلعة الجبل إلى قوص محاذيا للنيل ومارا بالجيزة إلى برفشت ثم إلى منية القائد ابن خصيب ثم إلى الأشمونين ثم إلى ديروط الشريف ثم إلى المنهى ثم إلى منفلوط ثم إلى أسيوط ثم إلى طما ثم الى المراغة ثم إلى بلنسون ثم جرجا ثم البلينة ثم هوثن ثم إلى الكوم الأحمر ثم خان الدرنبا ثم قوص[٦] وهى مركز تجارى غاية فى عظم الشأن وملتقى الطرق ، فمنها يبتدىء طريق إلى أسوان[٧] فبلاد النوبة ويركب البريد الهجن ، ويقال أن الخزينة العامة كانت تدفع سنويا مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التى يتطلبها ذلك الطريق[٨] ومنها أيضا يبتدىء الطريق إلى عيذاب وهى ميناء على

(١) المقريزى — السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ ، Precis de L' Hist V. 11 P. 253—Lane Poole P.P. 246-264 Sauvaget P. 10,

(٢) تاريخ البريد فى مصر ص ٤٠ . (٣) المقريزى السلوك جـ ١ القسم الثانى ص. ٤٤٦ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦١٠ ، الظاهر بيبرس ص ١٣٥ .

(٥) التعريف ص ١٨٧ — ١٩٠ — زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٧٣ — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ — Precis Vol.11 P. 259 .

(٦) زبدة كشف الممالك ص ١١٧ . (٧) من مصر إلى أسوان مسافة ٢٥ مرحلة وتمتاز جميع بلاد مصر بتقارب مسافاتها فلا يكون بين البلد والبلد أكثر من يوم أو يومين — الإدريسى ص ٥٢

(٨) Nassiri Khosrau P. 118, — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٣ ,

البحر الأحمر اتخذه التجار والحجاج على السواء ، وكلا الطريقين يوصل إلى مراكز للتعدين ومناجم من الزمرد فى صحراء العرب[١] وطريق عيذاب ذو شأن خطير فى نظرنا لأنه كان موجودا منذ العصور القديمة . غير أن بدايته لم تكن ثابتة فى العصر الأسلامى بل تراوحت أحيانا بين قفط وقوص وأحيانا كانت عند أدفو بل عند أسوان حتى ثبتت عند قنا حوالى القرن ١٦ م . وقد قدرت المدة اللازمة لقطع الطريق بعشرة أيام غير أن هذه المدة فى الحقيقة كانت محض استثناء لأن الزمن اللازم أطول منها بكثير . . . وهناك طريق آخر عبر الصحراء من قوص إلى القصير التى لم تكن لها مطلقا من الأهمية ما كان لميناء ليكاس ليمان Leukos Limen التى حلت القصير محلها[٢] .

(٢) أما بريد الأسكندرية فكان له طريقان ، أحدهما محاذ للصحراء ويسمى ، طريق الحاجر مارا بالجيزة فوردان ودمنهور ، والثانى يسير بين فرعى النيل مارا بقليوب ومنوف والمحلة الكبرى وقد تمكن الرحالة ابن جبير أن يقطع الطريق الثانى فى ثلاثة أيام ونصف[٣] على حين أن الأدريسى[٤] يقول من الأسكندرية إلى مصر ٩ يوم .

(٣) وأما الطريق إلى دمياط فمن مركز القلعة إلى سرياقوس فمدينه بلبيس وهى آخر المراكز السلطانية وفيها يتفرع خطان أحدهما إلى دمياط مارا باشمون الرمان وفارسكور والآخر إلى غزة فدمشق[٥] .

(٤) الطريق إلى دمشق والفرات ، يبدأ من بلبيس وهى آخر المراكز التى لخيل السلطان وهى الخيل التى تشترى بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات ، ثم ما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفه ، يحضر بها أربابها عند هلال كل شهر إلى المراكز وتستعيدها فى آخر الشهر ويأتى غيرها ، ومن هنالك سميت خيل الشهارة ، وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة ويدوغها بالداغ السلطانى وما دامت تستجد فهى قائمة ، ومتى إكترى أهل نوبة ممن قبلهم فسدت المراكز لأن الشهر لا يهل وفى خيل المنسلخ قوة لا سيما والعرب قليلة العلف ، وتستخدم خيل الشهارة هذه من السعيدية أول مركز بعد بلبيس حتى العريش وهى آخر مراكز العرب الشهارة ثم مما يليها خيل السلطان ذوات الإصطبلات والخدمة تشترى بمال السلطان وتكلف منه[٦] .

(١) المقتطف عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧ . (٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣) ابن جبير ص ٤٤ — زبدة كشف الممالك ص ١١٩ — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ .

(٤) الإدريسى ص ١٥٠ . (٥) زبدة كشف الممالك ص ١١٩ .

(٦) التعريف ص ١٩٠ — ١٩٢ — القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٧٧ — راجع =

عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره . ولا ستتباب الأمن قال فيها المقريزى(١) «إن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء» . وزاد قوله توكيد اما ذكره القلقشندى . «وسرعان ما بدلت المراكز الخوف أمنا والوحشة أنسا»(٢) .

ولا شك أن المراكز الكبرى كانت مجهزة بأبنية تسمى بحسب العصر والمكان والغرض الذى شيدت من أجله خانات أو فنادق أو وكالات (okell أو okelle)(٣) وابن بطوطه(٤) رحالة القرن ١٤م الكبير يقول فى هذا المعنى «ثم وصلت إلى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ولكل منزل منها فندق يسمونه الخان ينزل المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته» ، وكتب المقريزى(٥) أيضا عن خانات القاهرة وذكر منها خان مسرور وخان قوصون وخان الخليل . ولسنا فى حاجة إلى التعرض إليها فى قليل أو كثير وإنما الذى يعنينا منها خانات البريد التى امتازت ببساطة بنائها ، ولكنها على اتساع كاف لتخصيص محل لإقامة الصلاة ، ونافورة وأحواض الماء الصالح للشرب ، وسوق صغيرة يعرض فيها ما يحتاج إليه المسافر ، فضلا عما يلزم للموظفين والدواب من الغذاء . ولذا كان فى الإمكان تقليل ما يحمل من الزاد والماء إلى أدنى حد ، ولم تكن الحاجة ماسة إلى نقل الأدوات اللازمة لنصب الخيام . وكان من صالح التجار أنفسهم أن يؤسسوا الخانات ولو فى أبسط أشكالها كأن يبنوا قاعة مسقوفة .

وقد يكون من السخف أن نعزوا إلى السلاطين المماليك تأسيس هذه الفنادق فإنهم إنما هم أشاعوا استعمالها .

---

(١) Precis V. 11 P. 2 58 — خطط المقريزى ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) القلقشندى ج ١٤ ص ٣٨٠ — الواقع أن فضل الاهتمام بالطرق ما بين مصر والشام يرجع إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى شيدبها الحصون والقلاع وزودها بالحراس والماء والزاد وغدت القوافل الحربية والتجارية تعبرها فى آمان وسلام ؛ وورث خلفاء صلاح الدين عنه تلك العناية بالطرق ، ونخص منهم بالذكر السلطان الكامل بن العادل الذى أقام فى كل طريق خفراء تحفظ المسافرين ، وبلغ من مهابته أن الرمل — فيما بين العريش ومصر — كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير والأحمال من الثياب من غير خوف . وسرق مرة فيه بساط فأحضر الكامل العربان الذين يخفرون الطريق وألزمهم بإحضاره وإحضار سارقه فبذلوا عوضه شيئا كثيرا ، وهو يأبى إلا إحضار السارق والبساط . السلوك للمقريزى ج ١ قسم ا ص ٢٥٩ و ٢٦٠ .

(٣) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٥

(٤) ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣ — Precis V. II P. 258

(٥) المقتطف سبتمبر سنة ٩٣٧ ص ٤٦

ويمتد الخط من العريش الى غزة وتعتبر دهليز مصر وبداية الإقليم السورى الفلسطينى ، ومنها الى دمشق فحمص وحماة وحلب حتى يصل الى ضفاف الفرات حيث توجد قلعة برته التى كانت تعتبر مفتاح السلطنة . ومن حمص يتفرع طريقان أحدهما للقوافل يصل الى بغداد(١) وتدمر . والآخر يؤدى الى قلعة رحاب على الفرات . ومن دمشق يتفرع ثلاث طرق . أولها الى عكة وصيدا وبيروت ، وثانيها الى بعلبك ، وثالثها الى مكة وينتهى عند قلعة الكرك شرق البحر الميت(٢) .

وحسبنا من هذا أن نعرف أن الطريق البريدى بين دمشق والقاهرة هو نفس الطريق الحربى الذى سلكه الغزاة فى دخولهم الأراضى المصرية منذ أقدم العصور فهو الطريق الذى اجتازه بنو اسرائيل عند خروجهم من مصر . وهو الطريق الذى سلكه السيد المسيح وهو طفل بصحبة أمه مريم ويوسف النجار فرارا من يهود فلسطين الى مصر . وهو الطريق الذى وطئته أقدام جنود قمبيز والإسكندر وعمرو ابن العاص . . . وعلى طول هذه الطرق جميعا حدد بيبرس مراكز فيها خيول مجهزة فى جميع الأوقات يستطيع فيها البريديون أن يستبدلوا جيادهم(٣) . وكانت المسافة بين المحطتين المتعاقبتين لا تتجاوز أربعة فراسخ(٤) ، وتقارب المحطات بهذه الصفة يساعد الرسل على اجتياز المسافات البعيدة بسرعة عظيمة .

وقد زود الظاهر بيبرس تلك المراكز بكل ما يحتاج اليه المسافر(٥) من زاد وعلف كما راعى فيها توافر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد ، وأعد بكل منها خيولا عرفت بخيل البريد وعندها عدة سواس ، وللخيل رجال يعرفون بالسواقين ، وأحدهم سواق يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطانى ، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته ، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطانى(٦) .

كذلك اهتم السلطان بيبرس بأن يكون السفر آمنا هينا ، فأقام فى كل طريق خفراء يحفظ المسافرين(٧) . فكانت الطرق عامرة خصوصا فى الشام حيث يوجد بها

= Sauvaget P. 24 عن طرق البريد الفرعية التى أنشأها بيبرس فى سوريا وتاريخ إنشائها .

(١) من مصر إلى بغداد ٥٧٠ فرسخا أى ١٧١٠ ميلا . الأدريسى ص ١٦٣ .

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١١٠ . (٣) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٧ .

(٤) تاريخ البريد فى مصر ص ٣٨ . (٥) القلقشندى ج ١٤ ص ٢٧٢ .

(٦) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٦٧ — الظاهر بيبرس ص ١٣٥ .

(٧) Quatremére V. 1 ier parti P. 227

والحق أننا نعرف أنه يوجد بسوريا خانات أو فنادق من أواخر القرن ١٢ م [١] والنصف الأول من القرن ١٣ م بل قبـل ذلك أبدى ناصر خسرو [٢] إعجابه بعظم اتساع مائتى فندق بمصر القديمة . وإنى أعتقد أن الإكثار من تشييد هذه الفنادق وتزويدها بالنافورات المائية والحوانيت على طول الطرق كان الحافز له تغلب النزعة الدينية على نفوس سلاطين المماليك بغية الحصول على أجر كبير فى الآخرة . ويؤيد ذلك ما نقشه أمير شيخو على واجهة إحدى النافورات شمال القلعة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل أى الأعمال يثاب عليها المرء فأجاب تقديم الماء للظامئين [٣] .

Comme on demandait au prophète quel-etait l'acte le plus méritoire; il repondit donner de l'eau a boire.

(٣) إدارة البريد المملوكى : كان يدير أعمال البريد « ديوان الإنشاء » الذى يتولاه الديوادار ويلقب كذلك باسم أمير البريد ، ومن واجبه السهر على سرعة إرسال بريد السلطان وإذاعة أوامره . ومن خصائصه أن يقدم للسلطان التقارير الخاصة بالأعمال الإدارية ، والأوراق التى يراد توقيعها ، والإلتماسات التى يرجو أصحابها مقذبلة السلطان [٤] وللديوادار مساعد يقال له « كاتب السر » يتولى بنفسه تصدير البريد وإعطاء قوائم السفر التى تجيز لحاملها الحصول من المحطات المختلفة على جياد بالعدد الذى يلائم مكانته وأهمية مأموريته [٥] . ولعل السبب فى إسناد إدارة البريد إلى ديوان الإنشاء وعدم إنشاء ديوان خاص لها كما كان الحال أيام الخلفاء يرجع إلى طبيعة عمل كل من ديوانى البريد والإنشاء ، فكلاهما جزء مكمل للاخر حسب النظم الديوانية المملوكية .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بريد من بلد من بلاد المملـكة أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر بين يدى السلطان ، فيقبل الأرض ، ثم يأخذ الدوادار الـكتاب فيمسحه بوجه البريدى ثم يناوله للسلطان فيفضه ، ويجلس كاتب السر فيقرأه عليه ويأمر

(١) تاريخ البريد ذيل ص ٣٧ — Precis Y. II P. 272 شهد سوفاجيه بقايا هذه الخانات على الطريق من جهة دمشق إلى حمص وطريق حلب الرحبة وطريق دمشق بعلبك وأرجعها إلى العصر الأيوبى وقال إن بيبرس اتخذها محطات للبريد حيث يجد عمال البريد والمسافرون مايلزمهم من خبز وأحذية وعلف للخيل — Sauva get G. 29-30

(٢) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٤ — Nassiri khosrau G. 156

(٣) Precisde l'hist. Vol 2 P. 277

(٤) القلقشندى ج ١٤ ص ٢٧١ — النظم الأسلامية ص ٢٥٨

(٥) تاريخ البريد فى مصر ص ٣٩ وراجع sauvaget p. 28

فيه بأمره [١] . وإذا أمر السلطان بكتابة شىء على لسان أحد من الدوادارية حمل بريدى من البريدية الرسالة كذلك عن ذلك الدوادار إلى كاتب السر فيسمع كلام البريدى ، ويكتب على القصة إن كانت أو ورقة مفردة ما مثاله . « حضرت رسالة على لسان فلان البريدى بكذا وكذا » . ويعينه على من يكتبه من كتاب الإنشـاء [٢] ؛ وهذا يدل على ما كان يتمتع به البريدى من ثقة غالية أكثر من كاتب الإنشاء فكأن كلامه حجة بعد السلطان مباشرة .

وقد عهد إلا الدوادار [٣] حفظ ألواح البريد بالديوان ، فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه بعنقه فى ذهابه وإيابه ، وكانت هـذه الألواح من الفضة ، وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة » ، وعلى الوجه الآخر ماصورته ، « عز لمولانا السلطان الملك فلان ملك الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، فلان ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلانى فلان خلد الله ملـكه » ، وفى ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدى فى عنقه بإدخاله رأسه بين البندين ، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه والشرابة خلفه من فوق ثيابه ، فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح يعلقه فى عنقه ويذهب إلى جهة قصده ، فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدى ، وبواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد ، ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود ، فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء [٤] .

ولقد كان عنصر الفطنة والذكاء من العناصر الضرورية عند اختيار رسل البريد أشار إليه القلقشندى [٥] بقوله ، « إذا كان الرسول متمكنا من عقله ، عالما بما يأتى وما يذر ، كفى ملـكه مؤنة غيبته وأجاب عن كل ما يسأل عنه ، وإذا كان بخلاف ذلك انعكست القضية ، ورجع على مرسله بالوبال » . ويستشهد بحكاية دحية الـكلبى حين

(١) القلقشندى ج ١٤ ص ٥٩ (٢) القلقشندى ج ٦ ص ١٩٤

(٣) ويذكر البعض (Precis V. II P. 246) أن أسرار الدولة كانت موكولة إلى الضباط المتعطشين دائما إلى تدبير المؤامرات فانتزعت إدارة البريد فى عصر المماليك الشراكسة من الدوادار وهو ضابط مملوكى وسلمت مقاليدها إلى كاتب السر وهو موظف مدنى .

(٤) القلقشندى ج ١٤ ص ٣٧١ — Precis v, II p. 258 — النظم الأسلامية ٢٥٨ — sauvaget p. 20

(٥) القلقشندى ج ٦ ١ص ٣٦٠ .

دخل على قيصر بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال له دحية : هل تعلم أ كان المسيح يصلى ، قال نعم ، قال فانى أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح فى بطن أمه ، فألزمه من صلاة المسيح أنه عبد لله تعالى. . . وكانوا يتصفون أيضا بالإخلاص واليقظة ، وهذا مانلمسه فى رواية المقريزى[١] عن حادثة طريفة وقعت للسلطان الظاهر بيبرس نفسه مع أحد عمال البريد تجلى فيها اخلاصهم لواجبهم وتنفيذهم الأوامر السلطانية بنصها وروحها حتى على السلاطين أنفسهم . ففى أثناء تجوال بيبرس فى دولته بالشام أراد التوجه إلى مصر خفية ، فدبر حيلة خرج بها من القصر ولم يفطن به أحد ، وتكون ركبه من خمسة أنفس ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص . وفى مكان يسمى القصير المعينى دخل السلطان إلى الوالى ليأخذ فرسه فقام إليه بنحو خمسين رجلا لهاوشه وقال « الضيعة ملك السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرسا ، تروحوا وإلا قتلنا كم » فتركوه وساقوا إلى بيسان وأتوا دار الوالى وقالوا « تريد خيلا للبريد » فأنزلهم وقعد السلطان عند رجل الوالى وهو نائم ، ثم التفت إلى أحد الأمراء وقال « الخلائق على بابى وأنا على باب هذا الوالى لا يلتفت إلى ولـكن الدنيا نوبات » وطلب السلطان من الوالى كوزا فقال « ما عندنا كوز ، إن كنت عطشانا اخرج واشرب من برا» ، فأحضر إليه أحد الأمراء كوزا (قارورة) شرب منه وركبوا وصبحوا جنيين فوجدوا بها خيلا للبريد عرجاء معقرة (مجرحة الظهر) فركب السلطان منها فرسا لم يكد يثبت عليه من رائحة عقوره .

والقصة تفسر حسن اختيار السلطان بيبرس لعمال البريد من الثقات الأمناء الذين ينتخبون عادة من خدمه ، ذوى الـكفاءة والذكاء لإبلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ، الأمر الذى أ كسبهم مكانة محترمة حببت السلطان فيهم ، وكثيرا ما كان يثيب الأمناء منهم ، ويغدق عليهم من النعم ما يغدق عادة على كبار رجال الدولة .

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن قانون الانتقال من قطر إلى آخر ، وهل كان ذلك مباحا للمسافرين بلا قيد أو شرط ، وهل كان للسابلة حرية اجتيـاز تلك الطرق بكل بساطة . . . الجواب على ذلك ماحفظته لنا سجلات إدارة البريد المملوكية ، وما تضمنته الرواية التاريخية قديما وحديثا . . ففى مصر بنوع خاص كان بها منذ أقدام العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية

(١) السلوك للمقريزى الجزء الأول القسم الثانى ص ٥٧٥ — Quatremére v lier parti p. p.63, 64

التى يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدون إذن أولى الأمر ، ويقال أن عامل مصر أصدر أمره سنة ١٠٠ ﻫ بالقبض على من وجد مسافرا أو متنقلا من مكان إلى مكان من غير سجل ، وإذا وجد صاعدا أو نازلا من مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيها (فيه) . ولدينا طائفة من هـذه السجلات أو الجوازات وجدت ضمن ما عثر عليه من أوراق البردى ، ويؤخذ من رواية لمؤرخ عربى أنه كان لا بد من جواز للخروج من مصر ، ولا بد أن يدرج فى هذا الجواز كل من يرافقون المسافر ولو كانوا عبيده[١] .

وابن بطوطة الرحالة المشهور يقول فى هذا الصدد ، أنه عنـد مركز بريد قطيا المشهورة تفتش أمتعة التجار ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيهـا الدواوين والعمال والـكتاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطيا على أموال الناس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين ، وطريقها فى ضمان العرب وقد وكلوا بحفظه ، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتى الأمير صباحا فينظر إلى الرمل فان وجد به أثرا طالب العرب باحضار مؤثره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء[٢] .

أما فى المشرق فالأمر على خلاف ذلك ، إذ نجد المقدسى يستنكر ما حدث فى أيام عضد الدوله من أنه لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من يحمل جوازا[٣] .

يتبين لنا إذن صحة ما تعملة مصلحة الحدود المصرية الآن من توزيع عسا كرها وضباطها فى نقط معينة عند مداخل مصر لتفتيش الغادين والرائحين ، وعدم السماح لمن لا يحملون منهم جوازات مرور جيئة وروحة ، وأن إنشأ إدارة خاصة بوزارة الداخلية لإعطاء جوازات السفر خارج القطر ، كل ذلك ما هو إلا صورة ناطقة بما نقلناه عن أصول الحضارة الإسلامية ونظمها لدى أسلافنا الصالحين .

(٤) البريد وحمل الثلج: بقى للقارىء مسألة أخرى اعتنت بها إدارة البريد المملوكى يحتم علينا الواجب العلمى والأمانة التاريخية أن نسوقها له ، وهى ما وضعته تلك الإدارة من ترتيبات لحمل الثلج من دمشق إلى القاهرة لتبريد الماء فى زمن الحر ، وكان لنقله مراكب تحمله فى البحر ، اختلفت عدتها باختلاف الأوقات — فبلغت حينا ثلاثا

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣ (٣) المقدسى ٤٢٩

وحينا آخر إحدى عشر مركبا ، وكانت منتظمة الرحلات فيما بين شهرى أبريل ونوفمبر من كل سنة ، تأخذ طريقها من الثغور الشـامية وهى بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط المحروس ، ثم ينقل من مراكب بحر النيل ثم يؤتى به إلى بولاق، ومنها ينقل الثلج على البغال السلطانية إلى الشربخاناه حيث تخزن فى صهريج ، والواصلون بالمراكب فى البحر يعودون على البريد فى البر ، وينقل من الثلج فى البر صنف أنظف وأنقى مما ينقل فى البحر ، ويجهز مع كل نقله بريدى بيده تذكرة ومعه ثلاجون خبراء بحمله ومداراته طول الطريق وهو خاص بمشروب السلطان ، والمرصد لـكل نقله خمسة أحمال والمرصد فى كل مركز ستة ،ليكون أحدهم فضله ، وعدة نقلاته أوان الثلج إحدى وسبعين نقله ، وكان للهجن منظر يثير دهشة السوريين(١) .

وأقيمت له المراكز على طول الطريق من دمشق إلى القاهرة مثلها مثل مراكز البريد، فمن دمشق إلى الصمين ثم منها إلى طفس ثم إلى أربد ثم إلى جينين ثم إلى فاقون ثم إلى لد ثم إلى غزة ثم إلى العريش ثم إلى الواردة ثم إلى المطيلم ثم إلى قطيا ثم إلى الصالحية ثم إلى بلبيس ثم إلى القلعة(٢) ، وقد اعتنى بنوع خاص محمد بن قلاوون بهذه المراكز وعين فى كل منها ست هجن ، خمسة للأحمال وهجن للهجان ، وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملـكة الشامية ، ومن الواردة إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية(٣).

هذا بلا ريب تطور ملموس فى نظام البريد كونه يستخدم فى الإشراف على تحقيق الرغبات الشخصية للماليك بعد أن كان القصد منه أولا المصلحة الحـكومية فى الدولة ، ويروى لنا الفقهاء من القرن الرابع عشر أن البريد كان يستخدم لإحضار مغن مشهور إلى البلاط أو مملوك أمرد(٤) .

والنتيجة الطبيعية لتلك المجهودات العظيمة التى بذلها سـلاطين المماليك فى سبيل إنشاء نظام للبريد على قوائم وأسس متينة لم تكن قاصرة على تمتع الحـكومة بثمار ذلك النظام بل وأيضا الأفراد ، فالاهتمام بطرق البريد ومحطاته أدى بدوره إلى تنشيط تجارة الأفراد بدرجة ملموسة الأثر ، بالنظر إلى تشييد الخانات وحفر الآبار وتأمين الطرق . ومما يدلنا على أن سلاطين المماليك المتأخرين وملوك الشرق الآخرين لم يهملوا شأن البريد

(١) زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — التعريف ص ١٩٧ ، ١٩٩ — القلقشندى ج ٤
١ ص ٣٩٦ .

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١١٧

(٣) التعريف ص ١٩٩ — القلقشندى ج ١٤ ص ٣٩٧ .

(٤) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٧

وجود تلك الخانات التى لازلنا نشاهدها فى الطرقات القديمة مثل الطريق المحاذى للبحر من دمشق الى الغرب(١) .

ويجب ألا ننسى أن مركز مصر الجغرافى يعين تمام التعيين دورها الإقتصادى فطرق مواصلاتها تعمل على توكيد تقدمها التجارى ، فتعقد العلاقات عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والشرق الأقصى من جهة ، ومع حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق موانيها من جهة أخرى ، وكان قلب الحياة النابض فى شمـال مصر حيث قام تبادلها التجارى فى أوسع حدوده بالإسكندرية .

(١) دائرة المعارف الأسلامية ج ٣ ص ٦١١

الفصل السادس

البريد الجوى

لم نقصد من هذه التسمية ماهو شائع ومتداول الفهم الآن من ذلك البريد الجوى الصناعى ، أعنى به طائرات البريد ، وإنما قصدت إطلاق هذه التسمية على حمام الزاجل المعروف بحمام الرسائل ، ويعبر عنه أحيانا بالهدى[1] أو كما أسماه البعض بحمام البطاقة ، وهذه اللفظة مأخوذة من بتاكيون باليونانية ومعناها رقعة وهى القطعة الصغيرة من الورق ، وقد أطلق هـذا الإسم على الحمام لحمله صغائر الرسائل ، وقال البعض الآخر إن اسم ورقاء بالعربية أطلق فى الأصل على هـذا النوع من الحمام لحمله ورق الرسائل وهو مشهور بسرعة الطيران[2] .

(١) بريد الحمام قبل الإسلام : من العجيب أن استخدام الطيور فى حمل الرسائل قديم جداً فى التاريخ ، والفضل الأول فى ذلك يرجع إلى سيدنا نوح عليه السلام على ماجاء فى التوراة ، ذلك أنه أرسل حمامة من الفلك أثناء الطوفان فعادت إليه بغصن من شجر الزيتون فى منقارها ، فاعتبرها المؤرخون أول حمامة أطلقت من السفينة إلى البر[3] . ثم جاء من بعده سيدنا سليمان عليه السلام وقد منحه الله سبحانه وتعالى من قوة السيطرة والاستعلاء على مخلوقاته ما ذكر فى القرآن الكريم من قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون[4] » . وكان الهدهد إحدى تلك الطيور التى جندت وجيشت ، فلعبت دوراً دبلوماسيا خطيراً فى صراعه العنيف مع بلقيس ملكة سبأ . . . والقرآن الكريم وهو أقدم كتاب عربى إسلامى ، وهو كتاب تاريخ كما هو كتاب دين وتشريع قد نطق بما أداه الهدهد من الجاسوسية والاستطلاع مالم يستطع عامل البريد فى عصر من العصور التاريخية أن يؤديه حتى ولا سفراء العصر الحاضر ، فعند ما كان سيدنا سليمان[5] يتفقد الطير لم يجد الهدهد وقد سأل عنه خاصة

(١) النظم الأسلامية ص ٢٥٨ (٢) القلقشندى جـ ١٤ ص ٣٩٠ - الطائر الفريد ص ٨
(٣) تاريخ البريد فى العالم ص ١٤ — الطائر الفريد ص ١١ . وراجع هامش ص ٢٨٢ من السلوك جـ ١ قسم ١ للمقريزى .
(٤) سورة النمل . (٥) تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ٩٠ — تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٦٧٦

ليستخبره على بعد الماء فى الوادى الذى نزل به فى مسيره ، والهدهد يعلم مكانه . فغضب وتوعده « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لا أذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين[1] » .

وصار هـذا الخبر للهدهد عذرا وحجة عند سليمان درأ به عندما كان أوعد به . فقال له سليمان قد اعتللت « قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابى هذا فألقه إليهم . ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملؤ إنى ألقى الى كتاب كريم[2] » . اعتقد سيدنا سليمان[3] أن ليس فى الأرض أحداً له مملكة معه ، فلما دله الهدهد على ملك هو لغيره وقوم كفرة يعبدون غير الله رأى فى غزوهم الثواب العظيم . وحقت للهدهد المعذرة وصحت له الحجة فى مغيبه . فهدهد سيدنا سليمان هو سفير أحد أصحاب الجلالة فى عصرنا الحاضر ، وأسفرت دبلوماسية الهدهد عن هذه العبارة الخالدة على لسان بلقيس . « قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين[4] » وهذا القول الكريم لم يدع مجالا للشكاك والهواة أن ينكروا ويجحدوا مقدرة الطائر على نقل الأخبار .

وتاريخ بنى اسرائيل[5] يشير الى مجهودات الحمام فى هذا المضمار يوم أن تكاثر الأعداء حول يهوشع وأعيته الحيل فى الخلاص منهم ، فوقف يبكى ويطلب من ربه أن يفرج عنه وعن بنى اسرائيل ، وأخذ يهوشع يتمنى على ربه حمامة ، فاذا بحمامة قد حطت فى حجره فكتب كتابا إلى بينج ابن عمه الملك على السبطين يطلب منه النجدة ، ثم طوى الكتاب فخطفته الحمامه بفيها وحلقت وطارت ورمت الكتاب فى حجر بينج وهو جالس على كرسى ملكه يحكم فى قومه ، وأجاب الحمامة الى طلبها وكتب الله النصر لبنى اسرائيل .

على أن أول من استخدم الحمام الزاجل فيما بعد الأنبياء والرسل الفرس الذين نقل عنهم الإغريق طريقة تدريبه على حمل الرسائل فاستخدموه فى نقل أنباء الألعاب الأولمبية[6] . وجاء من بعدهم الرومان فاستخدموه فى سباق العجلات ، وأول من جاء عنه أن مصارعا من جزيرة إيجين أخذ معه حمامة إلى محل الألعاب الأولمبية ،

(١) سورة النمل .
(٢) سورة النمل . (٣) تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ٩١
(٤) سورة النمل . (٥) تاريخ اليهود ص ٢٣
(٦) Encyclopaedia Brit. v. 17 P. 921

فإذا تغلب على مصارعيه علق فى عنقها قطعة من الأرجوان وأطلقها فتبلغ بيتها فى ذلك اليوم ، فيعرف أهله بفوزه ، وكانت تلطخ الحمامة أحيانا بلون قرمزى كما فعل طورسينوس Torisinus حينما أخبر أباه بانتصاره فى الألعاب الأولمبية(١) كذلك كان الذين لا يستطيعون الذهاب إلى سباق العجلات فى روما يرسلون إليه أصدقاءهم وغلمانهم ومعهم حمام البطاق فيطلقونه عند نهاية السباق مصبوغا أو مخضبا بلون الحزب الذى فاز فى السباق فترجع إلى أوكارها فيعرف أصحابها من اللون ما إذا كانوا قد ربحوا أو خسروا . ومن ذلك تنبه العالم المتمدين إلى صلاحية الحمام الزاجل للتراسل(٢) ، وليس خطر اقتناء حمام الزاجل إبان الحرب بدعا أو جديدا ؟ فقديما تساءل المؤرخ بلينيوس إذ لمس أثر الحمام فى إفشاء أخبار المتحاربين فقال « لماذا تقام الأسوار ويضرب الحصار ، وتبث العيون والأرصاد فى السهول والأودية وتنصب الشباك فى الأنهار والجداول . وللأخبار رسول أمين وسبل خالصة فى الهواء » وسعر قوله ما قاله زملاؤه مؤرخو الفرنجة أن أول من استخدم الحمام فى الحرب هم الرومان إذ أرسل أنطونيوس حين حاصر مورينا سنة ٤٣ ق . م إلى رئيس حكومته رسالة معلقة بعنق حمامة فأجابه عنها برسالة معلقه فى رجلها(٣) .

ويستدل من قول هؤلاء المؤرخين أن التراسل بواسطة الحمام كان وافيا بالمقصود فى تلك الأيام وشاع استعماله بين جميع الأمم وقتذاك . سيما البحارة المصريون والإغريقيون الذين اعتادوا — فى عهد البطالمة — إطلاق الحمام فى الجو ايذانا باقترابهم من أرض الوطن(٤) ولعل الحمام كان أحد العوامل التى ساعدتهم على شق عباب البحار بعد أن كان من سبقهم يجوبونها على مقربة من الشاطىء خشية أن يضلوا أو تعترضهم الأهوال والمخاوف . أما الصينيون(٥) فقد ذكرت كتبهم أنهم استخدموا الحمام الزاجل فى أواخر القرن السابع الميلادى . والفضل فى ذلك يرجع إلى تجار العرب والهنود الذين جلبوه معهم إلى هناك .

(٢) بريد الحمام الزاجل فى الدولة الإسلامية : ثم جاء الإسلام وأحدث انقلابا خطيرا اهتزت له عروش القياصرة والأكاسرة . وأدخل تغييرات جديدة فى نظم الحكم

(١) Ameer Ali S, P, 118
(٢) الطائر الفريد ص ١١ — تاريخ البريد فى العالم ص ١١ .
(٣) الطائر الفريد ص ١١ (٤) تاريخ البريد فى مصر ص ٤٠ .
(٥) الحضارة الأسلامية فى القرن ٤ ج ٢ ذيل ص ٣٥٧ — المقتطف عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧ .

على النحو الذى رأيناه فى نظام البريد ، غير أن عناية خلفاء المسلمين بحمام الزاجل(١) . لم تكن دون عنايتهم بالبريد البرى . فمن ادارة تشرف على الحمام فى أنحاء المملكة . ومن عمال فى الأبراج يراقبون مجىء الحمام وسفره ، ومن بغال تنقل مجاميع الحمام من المطارات الرئيسية الى الفرعية . كل ذلك جمعه ورتبه نظام دقيق شامل ستراه بعد ثوان . يقال أن أول استخدام للحمام فى حمل الرسائل نشأ فى الموصل . . . ثم فى مصر على عهد الفاطميين ثم العباسيين . قامت بين الأسكندرونة فى سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب(٢) بينما يقول العلامة هيوبرت(٣) برد أن الخليفة المهدى ثالث خلفاء بنى العباس هو أول من نظم استخدام الحمام فى البريد وذلك فى القرن الثامن الميلادى فى حين أن أول وثيقة جاءت مصداقا لهذا الموضوع وجدت فى حكم المعتصم عندما أرسلت إليه — وهو بمدينة سامرا — أنباء القبض على بابك بواسطة حمام الزاجل واليك نص عبارة المسعودى(٤) أحد مؤرخى القرن الرابع الهجرى « وأطلقت الطيور الى المعتصم . وكتب اليه بالفتح . فلما وصل ذلك ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح ، وأظهروا السرور ، وكتب الكتب الى الأمصار بالفتح » على أن الخلفاء من بعده خطو خطوات واسعة فى تنظيم نقل البريد بواسطة الحمام ، ففى حكم الخليفة الناصر لدين الله يبدو أنها كانت تستخدم على نطاق واسع(٥) .

وفى أوائل القرن الرابع نجد أخبارا كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق ، فمن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة فى سنة ٣٠٤ هـ وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه فى يومه(٦) وحكى عريب فى حوادث سنة ٣١١هـ أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد بن العباس قبل أن يجىء الخبر الى البصرة بأربعة أيام . ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك وأن الخبر أتاهم من وقته فى جناح طائر(٧) . وعند ما قرب القرامطة

(١) الزجل ، الرمى بالشىء تأخذه بيدك فترمى به والزجل ارسال الحمام الهادى من مزجل بعيد . وقد زجل به يزجله . وزجل الحمام يزجلها زجلا أرسلها على بعد وهى حمام الزاجل والزجال وربما أوقع الزاجل على الغناء قال وهو يغنيها غناء زاجلا . والزجل رفع الصوت المطرب وقال : يا ليتنا كنا حمامى زاجل — لسان العرب ج ١٣ ص ٢٠
(٢) زبدة كشف الممالك ص ١٧ — الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٤ ٢١ التعريف ص ٥٨ . (٣) مجلة المستمع العربى العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨ .
(٤) مروج الذهب طبعة باريس ج ٧ ص ١٢٦ — Ameer Aly S. P. 118
(٥) Ameer Aly S. P. 118 (٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٧) صلة تاريخ الطبرى ص ٥٧

من الأنبار تشوق المقتدر إلى معرفة أخباره ، فلما عرف أبو على بن مقلة ذلك طلب أطيارا وأنفذها الى الأنبار وكتب له عليها أخبار القرمطى وقتا بعد وقت(١) . فلما اشتد خطر القرامطة فى تلك السنة رتب الوزير على بن عيسى بين بغـداد وبين مقرهم المرتبين ، وسلم اليهم مائة طائر إلى مائة رجل يكتبون له على أجنحتها كتبا بخبر العدو فى كل ساعة(٢) . وفى سنة ٣٢١ هـ استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير ابن مقلة أخبار سلامة الكوفة من القرمطى لأن أطيار جاره — وهو من أهل الكوفة — حملت اليه أنباء أصدق مما حملته أطيار صاحب المعونة المعين فى الكوفة من قبل الوزير ، فتعجب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بأخبار الكوفة من صاحب المعونة(٣) .

ومن غريب أخبار سنة ٣٢٨ هـ أن طائراً وقع لغلمان بجكم فوجدوا على ذنبه كتابا من بجكم بخط كاتبه إلى أخيه يعرفه فيه أخبار بجكم وأسراره ، ووصلت الرسائل فى ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار فى يوم وليلة(٤) وفى النصف الثانى من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر بن أبى الحسن الشريف — وكان علويا وجيها متمولا ببغداد — طيور كوفية وبالكوفة طيور بغدادية ويكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر فى ساعة أو نحوها ، وجلس هذا الشريف عند الوزير مرة فوصل إلى الوزير خبر وصول رسول القرامطة إلى الكوفة وأنه لا بد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول ، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخبر وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتثال الإشارة وهو جالس مع الوزير وكان هـذا يحسبه متهاونا فى الأمر(٥) .

ويغلب على الظن أن مؤسس فرقة القرامطة فى القرن الثالث الهجرى قد عول كثيرا على البريد الجوى فى انجاح حركته واحداث الارتباكات فى جنوب العراق . وهذا من غير شك عمل كبير قامت به الحمامة ، ذلك الطائر الوديع ، ذو الصوت الموسيقى الجميل ، وهـذا العمل لا يمكن أن يتم بغيرها اللهم الا بواسطة التلغراف اللاسلكى ، وهذا لم يكمل اتقانه الا فى الأزمنة الحديثة وحتى بالرغم من هذا فإنه لم يكن من المستطاع الاستغناء عن الحمام فى نقل الأخبار .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٥ — ٢٤٠ ، تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٩٨
(٢) تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٩٨
(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤١٦ (٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج٢ ص٣٥٨ .
(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

ويعلل الأستاذ هيوبرث(١) برد سبب اهتمام خلفاء المسلمين بالبريد الجوى بأن طريق السفر فى الصحراء كان غير آمن فى العصور الوسطى فتغلبوا على وحشته بواسطة القوافل المسلحة التى تتكون عادة من نحو ألفين أو ثلاثة آلاف(٢) من الإبل . تنظم تنظيما محكما مرة أو مرتين فقط كل عام ، وخوفا من أن تضل هذه القوافل الطريق أو تضيع لجأوا إلى حراستها بواسطة اقامه أبراج الحمام فى حلب ودمشق والبصرة وغيرها من المدن الواصلة إلى مكة وبغداد وهما أهم مدينتين للقوافل فى ذلك العصر . . . . وذلك لأن الحمام الزاجل اعتبر فى ذلك الوقت الوسيلة الوحيدة للمراسلات بين الأماكن المنقطعة فى الصحراء وبين المدن المعمورة . فيطلق بعض هذه الحمام إلى حلب أو البصرة لإخبار التجار المنتظرين هناك بمكان القوافل القادمة . وجرت العاده أن يحتفظ بالطيور الفارهة لاستخدامها فى وقت الخطر فيطلقها رئيس القافلة فى اللحظة التى يداهمه الخطر فى الصحراء طالبا المعونة من آخر مدينة غادرتها القافلة ؛ ولم تمض سويعات قليلة حتى يكون الطائر الفاره قد حمل رسالته وتكون النجدة فى طريقها إلى القافلة وإذا رأى رئيس القافلة الكبرى الطريق آمنا كتب بذلك رسالة وارسلها بالحمام الزاجل إلى القوافل الصغيرة التى تريد أن تتبع الطريق ذاته ، ثم تطور الأمر واصبح الحمام يستعمل أيضا فى البريد الرسمى ويؤدى غرضا حكوميا هاما .

(٣) المطارات الجوية : وعلى الرغم مما سبق ذكره فإن الدولة الإسلامية لم تعتن بالحمام الزاجل العناية الكافية ، ولم تخصص له الإدارات الخاصة الا فى العصور الإسلامية الوسطى ، وكانت مصر بلا ريب سباقة الى استخدامه بنظام منقطع النظير من حيث الدقة والإحكام ، خصوصا بعد أن آلت اليها زعامة الأمم الشرقية عقب وفاة نور الدين محمود الذى يرجع إليه الفضل الأكبر فى تنسيق هذا النوع من البريد، اذ وصل التراسل بالحمام الزاجل فى عهده إلى مرتبة البريد الإعتيادى بنوع مستوفى النظام من مراكز ومستخدمين. حتى يقال أنه نظم خطا لنقل البريد بين مصر والشام وأعد له مطارات ذات أبراج فى كل ثلاثة عشر ميلا . وأقام لها نظارا وحراسا يراقبون وصول الحمام نهارا وليلا ، خوفا من أن يمر عليهم وهم عنه غافلون والى جانب هذا الخط الرئيسى أنشأ خطوطا ثانوية أخرى منها(٣) : —

(١) مجلة المستمع العربى العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨
(٢) رأى استرابو هذه القوافل التجارية فى العصور القديمة وشبه القافلة منها بجيش وذكر الطبرى أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير . فجر الإسلام ج ١ ص١٦ .
(٣) زبدة كشف الممالك ص ١١٧ . تاريخ البريد فى مصر ص ٤١ — ٤٣ — الطائر الفريد فى وصف البريد ص ١٠ — ١١ .

(١) الخط من مطار قلعة الجبل (القاهرة) إلى الوجه القبلى (قوص وأسوان وعيذاب) .

(٢) الخط من مطار قلعة الجبل إلى الاسكندرية وبه مطاران منوف العليا ودمنهور الوحش .

(٣) الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمياط وبه مطاران بنى عبيد وأشمون الرمان

(٤) الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمشق عن طريق غزة والقدس وبه مطارات عديدة .

(٥) الخط من مطار دمشق إلى برته على نهر الفرات .

(٦) الخط من مطار دمشق إلى بيروت وطرابلس .

(٧) الخط بين حلب والرحبة على الفرات .

(٨) الخط بين غزة والكرك على البحر الميت .

(٩) الخط بين دمشق وبعلبك .

(١٠) الخط بين برتة وقيصرية .

واذا دققنا النظر فى تلك الخطوط نلحظ أنها نفس الخطوط الذى انتظم فيها نقل البريد بواسطة الجياد فى ذلك العهد ، غير أن الحمام يقطع المحطة فى ثلث الوقت الذى يقطعها فيه الجواد . ويوجد فى كل مطار من مطارات الحمام برج أو أكثر يحفظ فيه الحمام من المحطتين السابقة واللاحقة ، لكى تحمل الحمامة رسالتها إلى المحطة التى جلبت منها ، وعليه فقد كان لزاما أن تتبادل المحطات الحمام ، وتتم عملية التبادل باستخدام جياد السلطان لنقل الحمام بين المطارات تحت إشراف المراقبين الذين شيدت لهم فى المطارات الهامة أماكن للاستراحة . ولنقل احدى الرسائل من خط ما لابد من استخدام جميع الأبراج الواقعة على طول هذا الخط ، بمعنى أنه اذا أراد حاكم دمشق مثلا أن يبعث برسالة إلى القاهرة استخدم لهذا الغرض حمامة من حمام المطار التالى وهو مطار « تفاس » ولا تزال الرسائل تنتقل كذلك من تفاس إلى بيسان ومن بيسان إلى جنين فنابلس فأورشليم ، فقاطبة فغزة فالورادة فالصالحية حتى تصل إلى بلبيس فترسل منها إلى القاهرة .

ولا شك أن تسلم الرساله من الحمامة وشدها إلى أخرى فى كل محطة يستغرق الكثير من الوقت ، ولكن ضياع الوقت لم يكن يذكر فى شىء الى جانب ما فى هذه الطريقة من المزايا العظيمة . وأول هذه المزايا أن قصر المسافة بين المحطات لم يكن يحتم استخدام الحمام من نوع الزاجل الصميم وهو نوع كان ولا يزال نادرا وغالى الثمن ، ولذلك

أستخدم الحمام العادى ، أضف الى ذلك أن قصر المسافة من شأنه أن يقلل من الأخطار التى يستهدف لها الحمام ، وذلك مما يزيد الثقة والأمل فى وصول الرسائل . ويوجد فضلا عن ذلك بريد مباشر بين عاصمة السلطنة وسائر الولايات ، فإذا أراد السلطان مثلا أن يبعث برسالة من القاهرة الى دمشق أطلق من أبراجه حمامه من حمام دمشق فتصل اليها الرسالة فى مرحلة واحدة بغير توقف ، ولم يكن يستخدم لمثل هذه الأسفار البعيدة غير حمام الزاجل الصميم ، والفارق بين هذا الحمام وغيره كالفارق بين أفراس الرهان والنقل(١) .

أما كيفية التراسل بالحمام فكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها ، وجرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ، ترسلان مع حمامتين تطلق إحداها بعد ساعتين من إطلاق الأخرى حتى إذا ضلت إحداها أو قتلت وافترسها الجوارح أمكن الاعتماد على الأخرى ، وجرت العادة كذلك ألا يطلق الحمام فى الجو الماطر ولا أن يطلق قبل تغذيته الغذاء الكافى(٢) . وكانت الطريقة المتبعة إذا بطق الطائر من مطار قلعة الجبل إلى مطار الأسكندرية فلا يسرح إلا من منية عقبة بالجيزة وهى أول المراكز ، واذا سرح الى الشرقية لا يطلق الا من مسجد التين خارج القاهرة وكان يسير مع المطيرين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من موظفى ادارة الحمام بالقاهرة . وكذلك كانت العادة فى كل مملكة أن يتوخى الإبعاد فى التسريح عن مستقر الحمام والقصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها من قريب(٣) .

أما كيفية التراسل الحربى بواسطة الحمام فقد اتبع الأقدمون طريقة وضع الرسالة ضمن كيس من الجلد الرقيق أو ضمن قارورة من الورق الذهبى لحفظ الرسالة من العوارض الجوية وتعلق بعنق الحمامة أو رجلها ، وأما المتأخرون فيضع بعضهم الرسالة ضمن غلاف صغير من الورق المزيت ويعلقونها فى عنق الحمامة وبعضهم يضعها فى جوف ريشة ويربطون تلك الريشة بالريشة المتوسطة من ذنب الحمامه ، وهذه الطرقة أستر للتراسل الا أن الرسالة لا تكون وافية بالمقصود لصغر حجمها(٤) . فعند حدوث أمر ذى بال يعلق السلطان الخبر بعنق الحمامة . ويضع ضمن القارورة رسالة أخرى من

---

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٤٣ — تاريخ البريد فى العالم ص ١٠ — الطائر الفريد فى وصف البريد ص ١١ .

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ — النظم الإسلامية ص ٢٥٨ — الظاهر بيبرس ص ١٣٧ . (٣) المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ — الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢٤٤

(٤) الطائر الفريد ص ٩ — تاريخ البريد فى العالم ص ٩ .

الورق الرقيق أسماها « ورق البطاق » ثم يوضع على ظهرها وقت سفر الحمامة بالتدقيق التام ، ويقيد حارس كل مركز عند وصول الحمامة الى البرج ساعة وصولها اليه وذهابها منه وذلك على ظهر الرسالة التى تحملها الحمامة(١) .

وامتازت رسائل الحمام بالإيجاز فيستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل فى ذلك العصر . ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وايراد المطلوب صيغة مقتضبة كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا هـذا . ولا بد وأن يكتب سرح الطائر ورفيقه ، حتى ان تأخر الواحد ترقب حضوره أو تطلب ، ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجمل ويكتب آخرها حسبلة ، ولا تعنون الا اذا كانت منقولة مثل أن تسرح الى السلطان من مكان بعيد فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد ، ولكل وال تصل اليه يكتب فى ظهرها انها وصلت اليه ونقلها حتى تصل مختومة(٢) .

(٤) الحمام الزاجل فى مصر الإسلامية : تبع انتقال حكم الفواطم من بلاد المغرب الى مصر تمتع الأخيرة بكثير من النظم الإدارية ذات الطابع المصرى الخالص ، ذلك أن الفاطميين قد حافظوا على العناية بالحمام وبالغوا فيه حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام(٢) . واستخلصنا من روايتين للقلقشندى وجاستون(٣) فييت أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية (الكرز) وأنه يحب أن يراها . ويوجد بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطاقته يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ويرسلها الى مصر ففعل ، وانطلقت مائة وعشرون حمامة صوب العاصمة فوصلت أبراجها الا عشر منها فى ثلاثة أيام أو أربعة على أكثر تقدير . وجمع الوزير الحبات وقدمها الى العزيز فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه . . . وقد لفت نظرى اختلاف المؤرخين فى زمن وصول الحمام من دمشق إلى القاهرة ، فالقلقشندى يقول أنه وصل فى نفس اليوم الذى أطلق فيه سراحه من دمشق ، ويقول جاستون فييت أنه وصل بعد ثلاثة أيام أو أربعة وقد يكون كلاهما صادقا فيما يقول ، فالقلقشندى يخيل الينا أنه قصد استخدام

(٥) الطائر الفريد ص ٩ .

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ — النظم الإسلامية ص ٢٥٨ — الظاهر بيبرس ص ١٣٦ تاريخ البريد ص ٤٣ (٢) التعريف ص ٥٨ — زبدة كشف الممالك ص ١١٧ — مجلة المستمع العربى العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨ . (٣) القلقشندى ج ١٤ ص ٣٩١ — المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ .

الحمام الزاجل الأصيل فى آداء هذه المهمة وهذا النوع من الحمام له خط مباشر من القاهرة إلى الشام فمن المعقول أن يصل فى نفس اليوم الذى أطلق فيه . . . على حين جاستون فييت أحتسب الزمن ثلاثة أيام أو أربعة ، وهذا صحيح أيضا على اعتبار أن الحمام الذى استخدمه الوالى كان من النوع العادى وهذا يحتاج إلى زمن أطول نظرا لإنتقاله من برج الى آخر على طول الخط الجوى من الشام الى القاهرة . ومما ذكره القلقشندى أيضا أن الوزير اليازورى المغربى وزير المستنصر بالله الفاطمى استخدم الحمام فى نقل الأخبار ما بين تونس وبلاد المغرب ومصر . . .

ثم حدث أن تقوضت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبى الذى انفرد بملك مصر والشام وتوسع فى تنظيم إدارة البريد الجوى ، واستفاد كثيرا من خدماتها إبان الحروب الصليبية . ففى وقت حصاره مدينة عكا فى أغسطس سنة ١١٩٠ م . انقطعت صلته بمصر والعالم الخارجى إلا عن طريق الجو حيث شقت أسراب الحمام الزاجل عنان السماء حاملة فى أجنحتها أنباء مصر وما يجرى فيها من حوادث ، على حين حمل بعضها الآخر الرسائل الودية بين السلطان وبين صديقه الإمبراطور اسحق(١) .

والمستنتج من خلاصة هذه الروايات التاريخية أن تاريخ ذلك العهد قد حفل بطريف أخبار الحمام الزاجل والأدوار التى استخدم فيها فى الحروب والسياسة والإدارة . وظلت ابراجه ونظمه فى مصر وسوريا موضع العناية حتى غزا التتر سوريا فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، فشتتوا الحمام ودمروا أبراجه وأتلفوا محطات البريد ومسالك البريدين(٢) . . . ولكن مما لا شك فيه أن هـذه المحطات والمسالك أعيد إصلاحها فى عهد السلطان الظاهر بيبرس الذى لم تكن عنايته بالبريد الجوى أقل منها بالبريد البرى . وساعد الحمام الزاجل خلفاءه على ضبط الأمن وإخماد الفتن والثورات . من ذلك ما رواه ابن بطوطة (٣) عن الناصر محمد أن ثورة قامت فى الأسكندرية بين المسلمين والنصارى واستفحل خطرها ولكن طير الخبر على جناح الحمام فتداركها الملك الناصر وهى فى مهدها ، وحدث مثلها فى مدينة جبله بالشام وطار الحمام إليه بالخبر وتعاون عن طريق البريد الجوى مع عماله هناك على إطفائها فكان الفضل فى ذلك للحمام طبعا .

(١) كتاب الفيح القسى لعماد الدين الكاتب ص ١٧٧ — Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem P. 270 — راجع المقريزى : السلوك هـ ٣ قسم ٢ عن الدور الذى قام به الحمام الزاجل فى الخلاف القائم بين ملوك بنى أيوب ص ٢٨٥ .

(٢) تاريخ البريد فى مصر ص ٤٤ .

(٣) ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨ ، ٦٢ .

أثمان حمام الزاجل :

ومما يدل على مبلغ إتقان هذا البريد الجوى أن حمامه عرف بعلاماته تشبها برسل البريد البرى كبصم منقاره ببصمات خاصة ونقش اسم السلطان عليها ، ونمرتها على رجليها أو قص ريشه بطرق معروفة . فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه إلى حد أنه إذا كان جالسا على مائدته أو نائما فى فراشه أو داخل حمامه فإنه يسرع حالا إلى نزع البطاقة[١] الأمر الذى يفسر اهتمام السلاطين وحرصهم على الوقوف على كل ما يتجدد فى أنحاء امبراطوريتهم فيأخذون حذرهم ويستعدون للطوارئ .

ووضع تحت إمرة السلطان فى القاهرة وحدها عدد وافر من الحمام الزاجل قدره المقريزى[٢] بألف وستمائة حمامة . ولم يبالغ المقريزى حين قال أن الحمام فى سائر الأبراج فاق العد والحصر، وأن السلطان يستطيع وهو فى أية بقعة من بقاع السلطنة أن يتصل بسائر حكام الولايات بفضل الحمام الذى يرافق ركابه أينما ذهب .

ومما لا شك فيه أن إدارة بريد الحمام الزاجل قد كلفت خزانة الدولة الأموال الباهظة وفى اعتقادى أن نفقاتها قد تزيد على نفقات البريد العادى ، وقد يكون لهذا الاعتقاد شىء من الصحة إذا أدركنا أن خلفاء بنى العباس بل والطبقات الممتازة فى العراق سيما بالبصرة قد تنافسوا فى اقتناء الحمام الزاجل إلى حد الإفراط حتى الفقهاء ورجال الدين أنفسهم لا يمتنعون عن المنافسة فيه والإخبار عنها . ومن طريف ما يذكر أن أهل البصرة وجهوا إلى بكار بن شيبة البكرانى قاضى مصر — وكان فى فضله وعقله ودينه وورعه على مالم يكن عليه قاض — بحمامات لهم مع ثقات وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ففعل[٣] .

وكان لهذا التنافس أثره الملموس فى ارتفاع أثمان الحمام وقد ذكرت الرواية التاريخية أن حمامة بيعت فى بغداد على عهد العباسيين بسبعمائة دينار (أى نحو ٣٥٠ جنيها) وأخرى حملت إليها من القسطنطينية فبيعت بألف دينار (أى نحو ٥٠٠ جنيها) وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا[٤] . الأمر الذى جعلهم يعتنون بإدارته

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ . النظم الإسلامية ص ٢٥٨ . الظاهر بيبرس ص ١٣٦ .
(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٧٥ — Lane Pole His Hist. P. 246 — الهلال مجلد ٧ من السنة العاشرة ص ٢١٥ راجع Sauvaget P. 37
(٣) القلقشندى ج ١٤ ص ٢٦٠ .
(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٨٦ القلقشندى ج ١٤ ص ٣٤٠ . الهلال مجلد ٧ من السنة ١٠ ص ١٨٦ .

وبتعيين موظفين عندهم دفاتر بأنساب الحمام وبعد المسافات التى أرسلت فيها . . . وكما اعتنوا بأنساب الخيل والإبل اعتنوا بالحمام ، فألف بعضهم كتبا تبحث في أصلها ومميزاتها وخصائصها ونظموا الأشعار فيها[١] .

وحاز حمام العراق الشهرة بين الحمام المستعمل لحمل الرسائل ، لأنه يدجن سريعا ويتعلم فى وقت قريب ، وأكثر أنواع الحمام تعلقا بوطنه وأحرصها على الإبقاء عليه والعودة سريعا إليه . ولا تزال الأسراب الكثيرة من نسل حمام السلاطين باقية بقرية كفتين على بعد عشرة أميال من حلب . وأسرع نوع من الحمام يقطع فى الساعة من أربعين ميلا إلى خمسين وأقل نوع منه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين ميلا والمعدل المتوسط لطيران الحمام خمسة وثلاثون ميلا بالساعة[٢] . وقد وصف أحد الرحالة الأوروبيين فى القرن السادس عشر الميلادى كيف كان الحمام يحمل الرسائل الهامة إلى ألف ميل من البصرة إلى القسطنطينية ومن بغداد إلى جميع أنحاء العالم العربى ، والذى جعل قطع هذه المسافات الطويلة أمرا ممكنا إنشاء أبراج الحمام على مسافات يبعد بعضها عن بعض بخمسين ميلا على طول طرق القوافل فى جميع البلاد الإسلامية . وقد استخدم التجار الأوربيون فى الأسكندرونة الحمام الزاجل فى نقل الرسائل إلى قناصلهم فى حلب يعلمونهم فيها بموعد وصول السفن . وهذه الطيور تأتى بالرسائل إلى حلب فى ظرف أربع ساعات أو خمس بدلا من أربعة أيام لو أرسلت بوسيلة أخرى . . . ومن طريف ما يذكر أن حمامة حملت مرة رسالة تنبىء بارتفاع عظيم فى سعر جوز العفص فى الأسواق الأوربية ولكنها قتلت فى أثناء طيرانها من الأسكندرونة إلى حلب ، ووقعت فى يدى أحد التجار الذى علم بهذا الخبر وأسرع فى الحال إلى جمع مقدار كبير من جوز العفص ربح من الاتجار فيه مبلغا طائلا من المال ؛ وسرعان ما نهج التجار الآخرون نهج هذا التاجر فى قتل الحمام سعيا وراء الحصول على الأنباء حتى لم يبق فى سماء سوريا طيرا واحدا آمنا . وفى هذه الحال قرر التجار الأوروبيون برضاهم على ما يقال عدم استخدام الحمام فى إرسال رسائلهم لأن أيامه قد انتهت فى عالم التجارة على ما زعموا[٣] .

(١) الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٦ .
ومن لطيف ما قاله أحدهم فى وصف هذا الطائر .

خضر تفوت الريح فى طيرانها … يا بعد بين غدوها ورواحها
تأتى بأخبار العدو عشية … لمير شهر تحت ريش جناحها
وكأنما الروح الأمين بوحيه … نفث الهداية منه فى أرواحها

(٢) الطائر الفريد ص ٨ .
(٣) الطائر الفريد ص ١١ — مجلة المستمع العربى العدد السابع من السنة الرابعة ص ٩ .

فى حمل رسائلها ، خصوصا فى الأوقات التى تعطل فيها التليفونات أو تشغل لعدة ساعات فيستعاض عنها بالحمام الذى يقطع مسافة مائة ميل فى نحو ساعة ونصف ساعة .

فلا غرابة إذن فيما أصدره الحاكم العسكرى فى مصر من أمر يمنع بمقتضاه اقتناء الحمام الزاجل ، ويوجب تسليم ما يوجد منه إلى جهات الإدارة . وإليك نص مواد هذا الأمر العسكرى(١) .

مادة ١ — يحظر حيازة حمام الزاجل بجميع أنواعه وكذلك استخدامه .

مادة ٢ — على كل حائز لحمام زاجل أن يسلمه فى خلال أسبوع من تاريخ العمل بهذا الأمر إلى جهة الإدارة التى يقيم فى دائرتها ويعوض أصحاب الحمام طبقا لأحكام المرسوم بقانون رقم ١٥٧ لسنة ١٩٣٩ والأمر رقم ٤٨ .

مادة ٣ — كل مخالفة لأحكام هذا الأمر يعاقب عليها بالحبس مدة لا تزيد على سنة وبغرامة لا تتجاوز مائة جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين ويضبط الحمام موضوع المخالفة ويحكم بمصادرته .

مادة ٤ — يعمل بهذا الأمر من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية .

(١) الوقائع المصرية العدد ١٥٢ الصادر فى ١٦ / ٨ / ١٩٤٢ أمر رقم ٣١٦ بحظر حيازة الحمام الزاجل .

يضاف إلى ما سبق من لحش أثمان الحمام تكاليف إنشاء أبراجه ومحطاته وتزويدها بالبغال السلطانية لنقله من برج إلى آخر ثم تعيين الموظفين على اختلاف رتبهم من نظار ومقدمين ومطيرين . ومن الغريب أن الرواية التاريخية قد سكتت عن ذكر مرتبات هؤلاء جميعا إلا أنها أشارت إلى ما يستهلكه الحمام يوميا من الغلال بقولها : « والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية فتبلغ النفقة عليها من الأموال مالا يحصى كثره ، وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول فى كل يوم(١) » .

الحمام فى الأزمنة الحديثة .

هذا غاية ما استوعبته عن حمام الزاجل من مختلف المصادر العربية والإفرنجية التى تيسر لى الاطلاع عليها . ثم أذيل أخيرا هذا الفصل بكلمة عن أثر الحمام فى الحروب الحديثة . فبالرغم من اكتشاف التلغراف اللاسلكى وانتقاصه الشىء الكثير من أهمية الحمام فى نقل الأخبار فإن الدول لم تكن فى غنى عنه ، بل لا زالت تتخذه وسيلة من وسائل الانتصار والظفر فى ساحات القتال ، وتفننت فى حمل هذه الطيور فى ميادينه ، واصطنعوا لكل منها غمدا من الحديد أو الصفيح يدخلون الطائر فيه وله غطاء يغطى الرأس ولا يمنع عنه الهواء . وإذا أرادوا إطعامه أو إرواءه رفعوا الغطاء وقدموا له الإناء . واصطنعوا للجند أحزمة بصنانير يعلق بها الطائر من غمده . والغالب أن يحمل هذه الطيور طلائع الجند فى خروجهم لاستطلاع أحوال العدو لأنهم يبعدون عن معسكرهم لاستكشاف مواقع الأعداء ، فيذهبون والحمام معلق فى أحزمتهم فإذا رأوا أمرا يدعو للمخابرة كتبوا البطاقة وأدخلوها فى أنبوب من الألومنيوم منبسط الشكل يعلق بذيل الحمامة ، وأطلقوا الطائر من غمده فيطلب المعسكر بأسرع من لمح البصر(٢) .

ولعل القارىء يعلم أن الطيار فى مقعد طائرته يجد سبيل عودته إلى مطاره بواسطة البصلة والراديو ، أما الحمام فيجد طريقه إلى برجه بواسطة غريزته الطبيعية التى تجذبه إلى بيته كما يجذب المغناطيس الحديد . لذا يحمل الطيارون معهم دائما فى قاذفاتهم صندوقين ملآنين بالحمام الزاجل ليكون واسطة إنقاذهم عند الخطر إذا أسعدهم الحظ وهذا سر ما نراه من أبراج الحمام منتشرة هنا وهناك بالقرب من المطارات . ويقال(٣) إن وزارة التموين البريطانية تستخدم فى كل يوم مايربو على ألف ومائتين وخمسين حمامة

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٧٥ — الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ١١٤
(٢) الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٧ .
(٣) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٩

الفصل السابع

نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء

(ا) المشاعل

(١) قبل الدولة الإسلامية : إن استخدام النار في التخاطب لم يكن بالأمر المستحدث فى العصور الإسلامية بل هو قديم بقدم التاريخ ومعروف من غابر العصور ، فمما يروى[١] عن الملك نخاو الثانى أنه اتخذ بحارة من الفينيقيين للطواف على سواحل أفريقية واكتشاف أقطار جديدة تدر الخير عليه وعلى بلاده . . . والرحلة فى حد ذاتها لا تعنينا بقدر ما يعنينا النوادر التى صادفت أعضاءها ، فمن ذلك عجزهم عن مخاطبة المواطنين أينما حلوا بالهيروغليفية أو غيرها من اللغات المصرية القديمة ، ولكن سرعان ما وجد البحارة فى النار وسيلة للتخاطب مع أهالى الساحل الغربى خصوصا . فيذكر هيرودوت أنهم كانوا يوقدون النار إذا ما نزلوا إلى البر ، ويضعون بضاعتهم بجانبها ويعودون إلى سفنهم فعندما يرى الأهالى الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطىء ويفحصون ما عليه من بضاعة ويضعون بجانبها ما تساويه فى نظرهم من الذهب ، ويتراجعون إلى مسافة بعيدة . . . عندئذ ينزل الفينيقيون إلى البر مرة أخرى فإذا ما راقهم ما تركه الأهالى من ذهب ورأوا أنه يكفى كثمن لبضاعتهم أخذوه ورحلوا ؛ أما إذا رغبوا ثمنا أعلى رفضوا ما ترك وأشعلوا النار وعادوا إلى سفنهم ثانية ، وانتظروا صابرين فيعود الوطنيون ، ويزيدون على الذهب ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضاء التجار . . . هذه الأسطورة عظيمة الأهمية من الناحية التاريخية لأنها تضع النار موضع المترجم فى عصورنا الحديثة ، فدخانها المتصاعد أخطر الأهالى بوجود نزلاء على الساحل ، واستمرار تصاعده أشعرهم بأن بحارة نخاو يطلبون المزيد من الثمن .

وهناك رواية تاريخية ثانية وردت فى القرآن الكريم تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخاطب سيدنا موسى عن طريق النار فتجلى نوره على الجبل . . . ولما رأى موسى عليه السلام النار على بعد توقع الخير من ورائها ، وتلمس أسباب النجاة من قومه .

(١) مصر فى العصور القديمة المقرر للمدارس الثانوية ص ١٤٣ للأستاذ شفيق غربال .

فلما آتاها خاطبه الله سبحانه وتعالى ، وطمأنه بالسلامة والخلاص ، وجاء على لسان القرآن[١] : « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى[٢] » .

وتاريخ بنى إسرائيل حافل بكثير من النصوص التاريخية التى تؤكد أنهم عولوا كثيرا على النار فى نقل أخبارهم . فمن ذلك أن بياربه (ملك السامرية) اتفق مع قومه على الطريقة التى يراسلهم بها عند بدء المعركة بينه وبين ملوك الروم وقساوستهم ورهبانهم ويقول المؤرخ[٣] فى ذلك : «نفذ بياربه إلى كل القرى التى فيها السامرة . وقال لهم كونوا على هيئة إلى نصف الليل ، فعندما تبصروا النار على قبة الزمان اقتلوا الوكلاء الذين عليكم ، ولا تخلوا حولكم من الروم إنسانا إلا واقتلوه » ثم أعطيت الإشارة ووصل الخبر وقام السامرة « وأشعلوا النار على رأس القبة فقام كل السامرة وقتلوا جميع الوكلاء الذين عليهم » وهكذا كانت النار علامة على وصول الخبر ونذيرا بشن الغارة على الروم فأحرقت كنائسهم ، وضربت رقاب ملوكهم ورهبانهم وقساوستهم وقامت الحرب بين الفئتين وكتب بعدها النصر لليهود . . .

لم يقتصر تعظيم شأن النار فى صدور بنى إسرائيل فحسب بل زاد ذلك التعظيم عند العرب أيضا ، ولعل العرب كانوا أكثر حرصا على تعظيمها من بنى إسرائيل بدليل اختلاف لغة النار عندهم باختلاف نوعها . فالنار عند عرب الجاهلية تعددت لهجاتها وتباينت مصطلحاتها ورموزها . من ذلك نار الاستمطار وكانوا يوقدونها إذا تتابعت عليهم الأزمان ، وركد عليهم البلاء واشتد الجدب واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ، ثم عقدوا فى أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ثم صعدوا بها جبل وعر وأشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع[٤] .

ونار التحالف[٥] فلا يعقدون حلفهم إلا عندها ، فيذكرون عند ذلك منافعها ويدعون

(١) سورة طه ص ٤٠٦ .

(٢) يقول الطبرى فى تفسيره (ج ١٦ ص ١٠٨) أجد على النار هدى دلالة تدل على الطريق الذى أضللناه ، أما من خير هاد يهدينا إليه ، وأما من بيان وعلم نتبينه به ونعرفه . وقال هدى عن علم الطريق الذى أضللناه نبعت من خبر . وقال أيضا (ج ١٦ ص ١٠٧) أن موسى سار بأهله فضل الطريق وكان فى الشتاء وقمت لهم نار ، فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله .

(٣) تاريخ اليهود ص ١٤٢ (٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٤٩ .

وفي ذلك قال أميه :

عاقدين النيران فى شكر الأذ ... ناب عهدا كيما تهيج البحورا

فـرآها الإله ترسم بالقط ... ر وأمسى جنابهم ممطـورا

(٥) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٠ :

إلى الله عز وجل بالحرمان والمنع من منافعها على الذى ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد . وكل قوم يذكرون جبلهم والمشهور من جبالهم وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم ، ويهولون على من يخاف عليه الغدر بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعتها .

ومنها أيضا نار القرى[١] وكانوا يوقدونها فى الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم إلى الضيافة والإكرام فكانت دليلا على علو الهمة والنفور من الجبن والبخل .

ونار أخرى وهى النار التى كانوا إذا أرادوا حربا وتوقعوا جيشا عظيما وأرادوا الاجتماع ، أوقدوا ليلا على جبلهم نارا ليبلغ الخبر أصحابهم[٢] .

ويقول الطبرى[٣] أن الحارث بن عمرو الكندى ملك الحيرة خرج بصحبة « تبع » ملك اليمن لفتح فارس ووصلا حتى الصين وجعلا النار فيما بينهما ، فإذا حدث حدث أوقد أحدهما النار بالليل فأتى الخبر فى ليله للآخر ، وآية ما بينهما أن إشعال نار واحدة يخالف المعنى فى حالة إشعال نارين أو ثلاثة ، وهكذا تغلبا على البعد المكانى فيما بينهما ، وكانا على إتصال دائم بواسطة النار .

ونار أخرى وهى النار التى كانوا ربما أوقدوها خلف المسافر وخلف الزائر الذى لا يحبون رجوعه وكانوا يقولون فى الدعاء أبعده الله وأسحقه وأوقد نارا خلفه[٤] .

ومازال الناس كافة والأمم قاطبة — حتى جاء الله بالحق — مولعين بتعظيم النار حتى ضل كثير من الناس لافراطهم فيها ، أنهم يعبدونها فى صورة الشمس وقال الله تعالى فى ذلك[٥] . « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . ويزعم[٦] أهل الكتاب أن الله تعالى أوصاهم بها وقال لا تطفئوا النيران من بيوتى فلذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات إلا وهى لا تخلو من نار أبدا ليلا ولا نهارا ؛ حتى اتخذت للنيران البيوت والسدنه ووقفوا عليها الغلات الكثيرة ، وانتشرت هذه البيوت على وجه الخصوص فى دولة فارس .

---

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادى .

(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٥١ .

وفى ذلك قال عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد فى خزاز   رفدنا فوق رفد الرافدينا

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ٨٨٨ طبعة بريل .

وقال الفرزدق يفتخر بآبائه فى الجاهلية :

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا   نارين أشرفنا على النيران

(٤) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٥١

(٥) سورة النمل   (٦) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٥٢

(٢) فى الدولة الإسلامية : ثم يتقدم الزمن بالنار فتحظى بنصيب وافر من العناية فى ظل الدولة الإسلامية ، فيوضع نظام لأشعالها ويخصص عمال لمراقبتها وترصد لها الأموال فى بيت المال وعرف المؤرخون الأماكن التى تشعل فيها النار بالمناور ، وهى كما ذكرت الرواية العربية[١] مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار . وذلك أن مملكة إيران لما أصبحت بيد هولاكو من التتار ووقعت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة صار من جملة احتياط أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلا ويثار الدخان نهارا للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون فى أبنية عالية ومواضعها معروفة ، تعرف بها أكثر السفارة ، وهى من أقصى ثغور[٢] الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى أن المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاء وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها إختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به بإختلاف حالاتها ، تارة فى العدد وتارة فى غير ذلك . وقد أرصد فى كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ماأمامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة . فأما فى طريق الرحبة فكان ينور بمدينة عانه قوم من النصاح بحجة أمر سوى التنوير ، ويستر عليهم أهل البلد حبا للمولكنا ، فترى ناره أو دخانة بخربة الروم وبالجرف أيضا ، ويرفع فيهماأو فى أحدهما فيرى من كل منها بوادى الهيكل ، ويرفع فيه فيرى بالقناطر ، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة ، ثم تستمر الرواية التاريخية فى تعداد المناور المتشعبة حتى غزه . وكلها مناور تتشعب إلى ما خرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنب جنوبا

---

(١) يقول المقدسى فى هذا (ص ٤٤٤) وبفارس عجائب بطرف أرجان نار تشتعل بالليالى وتدخن بالنهار .

(٢) يتحدث المقدسى (ص ١٧٧) عن مناور الساحل الشامى واتخاذها وسيله للتفاهم بين الروم والمسلمين عند افتداء أسرى الأخيرين، فيقول وعلى هذا الساحل رباطات على البحر يقع بها النفير وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم من أسارى المسلمين للمبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم فى الرسالات ويحمل إليهم صنوف الأطعمة ، وقد ضج بالنفير لما ترايت شلندياتهم فإن كانت ليل أو قدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهارا دخنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها قوم فتوقد المنارة ، التى تلى الرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلى وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ويؤدى إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أهل الرساتيق ثم يكون الفداء فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معهم .

وشمالا وشرقا وغربا . ومنذ أصلح الله بين الفئتين وأمن جانب الجهتين فقد قل بذلك الاحتفال ، وصرف عن البال . وهذه المناور رسوم قد عفت وجسوم أكلت شعل النار أرواحها فانطفت[١] .

نستنتج من هذا أنه لابد من اتباع الرموز والإشارات المتفق عليها بين جماعة المنورين عند نقل الخبر من جهة إلى أخرى ، كاختلاف حال النار بين شدة توهجها وضعفه ، وكتعداد مشاعلها فى الموضع الواحد ، وكمدى ارتفاعها فى السماء ، ثم تخصص الأخبار الحربية مثلا للحالة الأولى ، والأخبار الداخلية فى الولاية للحالة الثانية وهكذا . وهذا يذكرنا بما تجرى عليه الأمور الآن فى نقل الأخبار بين أفراد جمعيات الكشافة عن طريق الإشارات والرموز فى الهواء وبواسطة النار ، وهذا يتطلب ذكاء نادرا ويقظة تامة . نستنتج أيضا من هذا النص التاريخى أن استخدام المناور فى الدولة الإسلامية كان قاصرا على فترة معينة وهى فترة الفتن والقلاقل التى أحدثتها جموع المغول فى ربوع العالم الإسلامى وبانتهاء هذه الفترة غدت المناور أثرا بعد حين[٢] . وعلى الرغم من أن حركات التتار على حدود الدولة الإسلامية قد سببت إقامة هذه المناور فان القلقشندى[٣] يرجع هذه المناور إلى ملوك الهند بقوله : « وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند فقد رأيت فى بعض الكتب أن ببلادهم مناور على جبال مرتفعة ترى النار فيها على بعد أكثر من هذه . على أن مرتبها بهذه المملكة أولا أتى بحكمة ملوكية لا تساوى مقدارا ، إذ قد ترقى فى سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريد يأتى من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتى من الخبر بما هو أسرع فى البريد ، والمناور تأتى من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك أن يظهر عنوان الخبر فى الفرات بمصر فى مسافة يوم وليله » .

على أن الأستاذ أدم[٤] متز يقصر استعمال النار فى الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة عند المسلمين على البلاد التى كانت تابعة للدولة البيزنطية من قبل ، بحجة أن هذه الدولة كانت تستعملها ، أما فى غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل . ولذلك نرى حصونا كثيرة على قنن الجبال بأسبانيا هى من بناء العرب الأندلسيين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة متناوحة ومنتظمة بلبة الساحل الأيسر الإفرنسى والإيطالى اختاروا لها تلال

(١) التعريف ص ١٩٩ — ٢٠١ – القلقشندى ج ١٤ ص ٤٠٠ .

(٢) راجع Sauvaget p 39

(٣) القلقشقدى ج ١٤ ص ٤٠٠ (٤) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ٢ ص ٣٥٧

الجبال لتوقد بها النيران ويتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركتهم إيذانا بوقوع الحرب وطلبا للمدد وجمعا للقوة[١] .

والأمر الذى ألفت نظر القارى إليه هو أن عادة إيقاد النيران فى الأبراج ليست رومية أو تترية كما يتوهم البعض ، وإنما هى فى الغالب عادة عربية تتفق مع ما كان عليه حال العرب فى جاهليتهم الأولى على النحو الذى سبق الإشارة إليه . وأن كل ما حدث فى العصر الإسلامى إنما هو إدخال كثير من التحسينات على نظام المشاعل وغدت تستخدم استخداما حسنا . والعرب فى أوائل الفتح الإسلامى نشروا هذا النمط من الأبراج النارية من الإسكندرية إلى طنجة على طول الساحل الإفريقى الشمالى ، فكانت إذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج إلى برج حتى يبلغ ذلك الإسكندرية فى ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية تصل الرسالة النارية فى ثلاث ساعات إلى أربع[٢] .

وكثيرا ما لعبت النار دورها فى الحروب بين الجيوش المتقاتلة فكان إشعال أحدهما لها علامة على تحرك قواته نحو الأخير فيعد الأخير عدته للقائه . من ذلك أن يزيد ابن المهلب عند ماسيره سليمان بن عبد الملك لمقاتلة الأتراك بطبرستان أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو إلى النار فهالهم وحاموا للقتال آمنين خلفهم فناشبهم يزيد إلى العصر وإذا بالتكبير من ورائهم فهربوا إلى حصنهم واتبعهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد[٣] . فالنار فى تلك الحالة كانت كالعيون التى تبث فى صفوف الأعداء وتوهمهم أن خصمهم ضعيف فى ناحية معينة وهو فى الواقع قوى فيها فيقل اهتمامهم بها وتدور عليهم دائرة السوء منها وتحل بهم الهزيمة . هذا هو نظام المشاعل فى المراسلة كما تيسر لنا معرفته من مختلف الروايات التى وصلتنا وإليك الحديث عن الطبول .

(١) تاريخ غزوات العرب ذيل ص ٢٣٧

(٢) زبدة كشف الماليك ص١٩٣ — تاريخ غزوات العرب ذيل ص ٢٣٧ — وقد شاهد الأمير شكيب أرسلان « تاريخ غزوات العرب ص٢٣٧ — ٢٦٦ » فى رحلته سنة ١٩٣٠ ببلاد الإندلس أبراجا مخروطية الشكل من صنع العرب كما رأى برج العرب La tour des sarrazins فى مقاطعة لوزان بسويسرة .

(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ٧٤

(ب) الطبـــول

المعروف أن الملوك والأمراء كانوا يتخذون من قرع الطبول والنفخ فى الأبواق دليلا على ما ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف ، وتنويها بالملك وأهله ، فلا تعقد الألوية إلا ويتقدمها الطبول والأبواق . وعلل ابن خلدون السر فى ذلك بإرهاب العدو فى الحرب فإن الأصوات الهائلة تحدث روعة وتأثيرا فى النفوس[1] . وقد يكون كلامه صحيحا ببعض الاعتبارات لأن النفس يدركها الفرح والطرب عند سماع النغم والأصوات الجميلة ، كما يدركها الفزع والرعب عند سماع الأصوات المزعجة المحطمة للأعصاب وقد فسر القرآن الكريم ذلك المعنى فى الآية الكريمة « وإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير[2] » .

ولكن ليس من المعروف تماما أن الطبول اتخذت فى العصور الإسلامية السابقة كوسيلة من وسائل المراسلة ونقل الأخبار . ففى الجهات النائية عن عواصم الخلافة الإسلامية حيث يتعذر إنشاء نظام البريد العادى ، لوحشة فى الطريق ، أو لاقتصاد فى النفقات ، أو لكثرة فى الدروب والجبال ووعورتها ، فيستعاض عن ذلك بنقل الخبر عن طريق دق الطبول كما كان الحال قديما فى مملكة الهند ، فبين دلى وقبة الإسلام اللتين هما قاعدتا المملكة طبول مرتبة فى أمكنة خاصة ، فحيثما كان فى مدينة وفتح باب الأخرى أو أغلق يدق الطبل فإذا سمعه ما يجاوره دق فيعلم خبر فتح المدينة وفتح باب الأخرى وغلقه[3] .

يصف التاريخ الخليفة المأمون فى صدر خلافته بالرجل المغلوب على أمره لأسرة بنى سهل الفارسية ذات الخبرة الواسعة فى السياسة والإدارة ، وذلك لانصرافه إلى الحياة العلمية الهادئة ، حياة الفلاسفة المفكرين . الأمر الذى أحدث شغبا كثيرا وفتنا متعددة فى الأقطار الغربية على وجه الخصوص ، وكان المحرك لها جماعة الثائرين من بنى هاشم ، ولم يكن هناك من رجل مخلص حقيقة للمأمون سوى هرثمة ابن أعين ، فوكل إليه الخليفة أمر القضاء على فتن العلويين . ولما فرغ هرثمة منها وكتب له النجاح أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال بالأقطار الغربية والفضل يحجب أخبارها عنه ، ولم يكن ذلك مما يروق فى عين الفضل بن سهل فاجتهد فى منعه من المثول بين يدى

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٥

(٢) سورة المدثر ص ٧٧٦ (٣) القلقشندي ج ٥ ص ٩٨

الخليفة . ولكن هرثمة كقائد حربى صمم على ضرورة اللقاء فأمر رجاله بدق الطبول كى يسمعها المأمون ويصله خبره فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة فأمر بقدومه ولكن الفضل أسرع إلى المأمون وصور له هرثمة فى صورة رجل عاص خارج على الخليفة ، فاستاء الخليفة وزجره وقتل هرثمة فى النهاية ضحية خبث البطانة[1] .

وهناك حادثة أخرى هامة فى تاريخ العباسيين وهى حادثة الأفشين قائد الخليفة المعتصم مع أحد الثائرين على الدولة وهو بابك . تعذر على الأفشين الاتصال بجنده فى ميدان القتال عند محاربته لبابك وذلك لكثرة الدروب وتشعب الطرقات بين جبال أذربيجان العظيمة الارتفاع والكثيرة الالتواء ، فاستعان الأفشين بالطبول لإعلان قواته بحركات سيره ووقوفه . وقبل الكلام على حركات الأفشين ونظام دق الطبول يحسن أن نذكر كلمة قصيرة عن بابك لنقرب لذهن القارىء عناصر ربط الحوادث التاريخية بعضها ببعض .

ينسب بابك الخرمى إلى مدينة البد بمنطقة طبرستان ، وهو صاحب حركة شاذة من الناحية الاعتقادية وفى منتهى الخطورة من الناحية السياسية ، لأنها صادرة عن رغبة أساسية فى نفس بابك وهى محاولة إحياء القومية الوطنية الإيرانية التى قضى عليها العرب وأضعفوها إلى حد بعيد . وقد شغلت حركته دولة بنى العباس زمن المأمون لانصراف حكومته إلى المسائل الدينية والحركات الفكرية ، وزمن المعتصم لانشغال رجاله بحرب الروم[2] . ولكن المعتصم كان أقدر على المكائد العسكرية والعمليات الحربية مما تصوره بابك ، إذ سرعان ما أوقف حملاته نحو بيزنطه وسرعان ما زرع نظام البريد بأنواعه المختلفة من برى وجوى ومشاعل وطبول ، وسخره فى تنسيق عملياته الاستراتيجية وتجييش جنوده من عرب وعجم وترك فى الحوطة بهذا الثائر المتحصن بالجبال والوهاد . والمعروف أن عمال البريد على اختلاف رتبهم وتنوع أعمالهم فى كل تلك المناورات العسكرية هم حلقة الاتصال بين المعتصم فى مدينة سامرا وبين رئيس هيئة أركان حربه فى ميدان القتال وهو الأفشين الذى تقدم قليلا قليلا إلى حصن البد ، وهناك أحكم خططه ودبر أمره وأمر رجاله بضرب الطبل نصف النهار ويخرج بالشمع والنفاطات إلى باب الخندق وبالركوب ليلا للحراسة خوف البيات . وقد عرف كل إنسان منهم كردوسه ، من كان فى الميمنة ومن كان فى الميسرة ، فيخرج الناس فيقفون فى مواقفهم ومواضعهم والأفشين يحمل أعلاما سودا كبارا عددها اثنى عشر علما ، يحملها على البغال ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع يجعلها على اثنى عشر بغلا وبلغت طبوله الكبار واحدا وعشرين طبلا ،

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٤٦ — مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي .

(٢) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي .

والأعلام الصغار نحوا من خمسمائة علم فيقف أصحاب كل قوم على مرتبتهم من ربع الليل ، حتى إذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه فيؤذن المؤذن بين يديه ويصلى ثم يصلى الناس بغلس ، ثم يأمر فيضرب الطبول ويسير زحفا ؛ وعلامته فى المسير والوقوف تحريك الطبول وسكونها لكثرة الناس ومسيرهم فى الجبال والأذقة على مصافهم ، كلما استقبلوا جبلا صعدوه وإذا هبطوا واديا انصبوا فيه ، إلا أن يكون جبلا منيعا لا يمكنهم صعوده وهبوطه فإنهم كانوا ينضمون إلى العساكر ويرجعون إذا جاءوا إلى الجبل إلى مصافهم ومواضعهم ، وكانت علامة السير ضرب الطبول فإذا أراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول(١) .

أما مؤخرة جيشه فعلى اتصال دائم بالمعتصم الذى نظم البريد على طول الطريق ، فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فيركض بالخيل ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدا بيد ، ومن حلوان إلى أذربيجان رتب فيه دواب المرج ، يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ . وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار ، وأمروا أن ينعروا إذا جاءهم الخبر ، فاذا سمع الذى يليه النعير تهيأ ، فلا يبالغ إليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق ، فيأخذ الخريطة منه . فصارت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا فى أربعة أيام وأقل (٢) .

ولما أدرك بابك أنه واقع لامحالة فى شرك الأفشين هرب إلى الغرب صوب حلفائه من البيزنطيين والأرمنيين وأتبعه الأفشين بعيونه وجواسيسه فألفوه عند ملوك أرمينية وقبض عليه وطار خبر القبض عليه إلى المعتصم على جناح الحمام كما ورد فى الفصل السابق . وبذلك تكون أدوات البريد من خيول وحمام وطبول ومشاعل وسكك وخرائط وعمال قد عاونت الدولة العباسية معاونة صادقه فى الخلاص من أخطر حركة تعرضت لها الدولة منذ قيامها فشغلتها زهاء العشرين عاما . وقد عرفت الطبول فى العصر المملوكى بالطبلخانات والكوسات ، وهى طبول مجلدة بعضها بجلود البقر يضرب بها ضربا شديدا مزعجا ويبالغون فى الاستكثار منها ، ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر يتخذ من ذلك مايشاء(٣)

تلك هى الخدمات التى أسداها نظام التخاطب بالطبول إلى الدولة الإسلامية . ولم يبق من موضوع رسالتنا إلا التراسل بواسطة الماء .

(١) الطبرى مجموعة III ج ٢ ص ١٢٠٢ . ابن خلدون ج٣ ص ٢٥٩

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٧٢ — ٢٧٣

(٣) مقدمة بن خلدون ص ٢١٧ — Quatremere tome 1. ier parti P. P. 173 - 227

(ﺣ) البريد المائى والبحرى

سيكون حديثنا عن البريد المائى موجزا جدا لافتقارنا إلى مادة خصبة سبقت أن تناولته بالفحص والبحث . ولعل ذلك يرجع إلى أن استخدام الماء فى التراسل من الندرة بحيث أن المراجع التى تناولتها بحثا لزمت الصمت بشأنه ، وحتى المصادر العربية التى أشارت اليه نسبت استخدامه إلى بعض الأمم القديمة . وطريقته أن تكتب ورقة تعلق بقصبة وتغرس القصبة فى باقة حشيش وتلقى فى الماء فيعوم الحشيش ولا يزال جاريا بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه (١) .

وهناك طريقة أخرى وهى أن توضع الرساله ضمن صندوق محكم الإقفال ويجعل ثقله متوازنا بحيث لايطفو على وجه الماء ولا يغرق فى قاعه بل يكون متوسطا بينهما منعاً لظهوره أو وقوفه على الأرض ، ثم يلقى فى النهر أو الترعة فيندفع بالماء لغاية مركز الجيش الآخر ، وهناك يقع فى شباك معدة .

وقيل ان الهنود أول من استعمل هذه الطريقة ضمن النارجيل (جوز الهند) ، وقد عرفها الاسكندر الأكبر الذى ظن قواد جيشه أن سقوط الجوز من أشجاره بالماء طبيعياً أن يكون من قوارب النقل ، ولكن فطنة الاسكندر أبت الا الوقوف على الحقيقة ، فأمر بكسر بعض جوز النارجيل فوجد به رسائل هندية . ومن قول المؤرخ بلينيوس يظهر أن الرومانيين لم يجهلوا هذه الطريقة . وقيل ان القرطاجنيين استعملوا أيضا التراسل الحربى فى الماء ، وإنما عوضا عن وضعها فى صندوق كانوا يجعلونها فى جوف الحيوانات المقتولة ويلقونها فى الماء (٢) .

واضح من هذين النصين أن الطريقة الثانية أكثر احكاما وأسلم للرسالة من الأولى وانه يشترط عند إلقاء الصندوق الموضوع به الرسالة أن يلقى مع اتجاه تيار الماء وهذا لايتأتى طبعا إلا فى الانهار . وعليه إذا كان المسلمون قد استعملوا هذه الطريقة فان استعمالها كان محليا ومقصورا على الوديان كوادى النيل ووادى دجله والفرات وكذا أودية الهند . والبريد المائى على وجه العموم أكثر تعرضا للخطر من غيره ، فقد يتنبه العدو له فيراقب مجارى الأنهار ، كما أن الرسالة قد يعترضها صخرة فى النهر أو حيوان نهرى أو سفينة فيعوق سيرها مع التيار فتضطر أن تركن .

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٨٣

(٢) الطائر الفريد ص ١٤ — تاريخ البريد فى العالم ص ٦٠

ويغلب على الظن أن الدولة الإسلامية لم تهمل هذا النوع من التراسل خصوصاً البحرى ، وبالرغم من افتقارنا إلى مادة تاريخية تؤيد هذا الظن ، إلا أن رأينا الشخصى لابد وأن نسجله هنا لأنه نابع من عين الحقيقة والواقع ، ومؤيد من سبق الحوادث عليه . فالتاريخ ينبئنا بأن العرب أمه بدوية لاعهد لها بالبحر ، وأن الخليفة عمر كان يخشى عليها غائلة البحر ، فلما تجلت الحاجة إلى أسطول فى بحر المشرق أذن عثمان لمعاوية بإنشائه على أن تكون الخدمة فيه اختيارية بحته ، وبذلك تكونت نواة الأسطول العربى فى المياه الشامية والمصرية ، وبفضله فتح معاويه رودس وغزا كريت وقبرص وجزيرة رواد بالقرب من القسطنطينية ، وكان أول من غزا صقلية ولم تزل تغزى بعد ذلك حتى فتحها بنو الأغلب(١) . فكأن الغزوات الإسلامية البحرية فى صدر الاسلام موجهاً أكثرها إلى مملكة الروم . وإذا ما اتجهنا إلى غربى البحر الأبيض نلحظ أن العرب بعد استيلائهم على مدينة قرطاجنه لم يفكروا فى أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ولذلك بنوا مدينة القيروان على مسافة بعيدة من الشاطئ ، فلما غزا موسى بن نصير الأندلس وهو لايملك إلا أربع سفن أحس بضرورة بناء الأساطيل ، فأنشئت دور صنعه عظيمة فى تونس ، وأكثر موانى الأندلس كطرطوشه وأشبيلية ، وأصبح لهم فى الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء ، ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها(٢) .

ومن هذه الموانى تحركت غزوات المسلمين لجزر البحر الأبيض المتوسط كيورقه ومنورقه وسردينيا وكورسيكا ، ولم تنقطع المعارك البحرية بين أساطيل الإسلام وأساطيل النصارى ، سواء التابع منها لشرلمان فرنسا ، أو لابنه بين ملك إيطاليا ، أو لامبراطور بيزنطه ، أو لجمهورية جنوة ، وكانت الغلبة من غير شك لأساطيل العرب ، لأن أية قوة على وجه الأرض وقتذاك لا تستطيع أن تقف فى طريقهم ، فتمكنوا بقوة الإسلام من تثبيت أقدامهم فى جنوب القارة الأوربية . وأخيرا بعدموت الخليفة هارون الرشيد وانقضاء عهد تبادل السفارات السياسية بين الشرق والغرب ، تحولت مراسيهم فى تونس وسوسة وغيرهما بؤرة القرصان ، تنبث منها الغارات البحرية وتجبى الأتاوات من أعداء المسلمين .

وبناء عليه فإن قوة بحرية كهذه على الصورة الخاطفة التى بسطناها للقارىء ، لا يمكنها أن تبسط جناحيها فى ربوع البحار بهذه السرعة المدهشة إلا إذا كانت متكئة

(١) تاريخ غزوات العرب ص ١٥١
(٢) تاريخ غزوات العرب ص ١٠٩ ، ١٣٧

على بريد بحرى محكم الإدارة والتنظيم حتى يضمن لها سلامة خطوط تموينها الخلفية وخطوط دفاعها وتقهقرها . وآية ذلك ما رواه ابن الأثير من أن أبراج الحمام أقيمت فى جزيرة قوصره وهى ما بين المهدية وصقلية ، وأن أقفاص الحمام وضعت فى مراكب الأسطول الإسلامى ليحمل الحمام منها إلى المهدية وغيرها من الثغور المغربية أخبار الأعداء وحركاتهم فى طول البحر وعرضه(١) .

وأظن أن إنشاء الأبراج النارية على قمم الجبال كما وضحنا سابقا — سواء منها على سواحل إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا أو بلاد المغرب ومصر وسواحل الشام لم يكن عبثا . ولم يكن المقصود منه فقط نقل الأخبار والأحداث التى تتولد على البر وإلا كان نظام البريد البرى والعادى فيه الكفاية . . . وإنما لابد وأن يكون هناك غرضا بعيدا قصد من وراء تلك المناور ، هذا الغرض كما أفهمه وكما يقره المنطق السليم هو تنظيم إدارة بريدية بحرية تجعل ربان السفن وأميرال البحر على اتصال دائم بالبر وبقواعده . فرفع علم على سارية سفينة ما فى جزيرة مالطة مثلا على صورة من الصور يعطى معنى طلب المدد لمنورين فى منارة تونس . . وإعطاء إشارة نارية من برج بجنوب فرنسا مثلا قد يعطى البحارة فى عرض البحر معنى الأمان إذا ما أرادوا الوصول إلى الشاطىء .

ومثل هذا الاستنتاج يمكن أن يقال أيضا عن نشاط البريد البحرى فى جنوب آسيا صوب المياه الهندية وجزر المحيط الهادى جهة جاوة وسومطرة والفلبين حيث كانت السفن العربية لا تنقطع فى اليوم والليلة .

(١) ابن الأثير طبعة ليدن — جـ ١٠ ص ١٠٩ و جـ ١١ ص ٨٢ .

الخاتمة

ليس عيبا القول بأنه عندما شرعت فى البحث عن مادة البريد فى الدولة الإسلامية كان ذهنى فارغا تماما من كل ماله علاقة بالموضوع، مثلى فى ذلك مثل عابر سبيل أوكالغريب يهبط بلدا مجهولا فيجد نفسه حائرا بين طرق متشعبة هنا وهناك ، فتراه يتحسس الطريق السوى ويتلمسه ، عله يجد أثرا أودلالة يهتدى بهديها ويسير على ضوئها . . . . وكانت طريقتى فى ذلك قراءة كل ما يقع تحت يدى من مجلدات ومؤلفات قديمة وحديثة ، شرقية وغربية ، تاريخية وجغرافية ، أدبية وفقهية . . . وكنت أجد فيها إشارات خفيفة أو لا أجد البتة . على أن هذه الإشارات وتلك العبارات المفككة والمبعثرة قد أحدثت فى ذهنى كما يقول السيكولوجيون ارتباطات جديدة عن البريد . . . هذه الارتباطات أخذت تزداد يوما بعد يوم ، وفى إزديادها إزدياد إيمانى بالغاية السامية التى أرتجيها لبلادى وأعمل من أجلها . . . وعلى ضوء هذه المصابيح الخافتة شققت طريقى فى بطون الكتب غير مشفق على نفسى مما يصيبنى من العنت والإرهاق حتى استطعت بعون الله أن أحقق النتائج العلمية التى قرأتها فى الفصول السبعة السابقة والتى ألخصها فيما يأتى : —

الفصل الأول : وقد صدرناه بكلمة فسرنا بها معنى البريد اصطلاحا ولغة مستعرضين آراء المؤرخين عرب ومستشرقين ، واستنتجنا منها إرجاع لفظ «بريد» أصلا إلى الفرس مؤيدين ذلك بالبراهين والأدلة وأشرنا إلى طريقة قياس مسافة البريد عند العرب كما وردت فى كتب جغرافيهم . وأتبعت هذا بعرض تاريخى عن نشأة البريد عند الجماعات والأمم القديمة . وأن اليوم الذى فكر فيه زعيم القبيلة فى وضع الحراس على حدود منطقته لإنذاره بالغارات الأجنبية عد يوم الميلاد لنظام البريد ، وبذا تولدت الجاسوسية فى هذا النظام ، وغدت عملية نقل الأخبار هى لب نظام البريد فى العصور القديمة فجاء من وحى وصنع الحكومات لا الأفراد . . غير أن نصيب الأفراد والجمهور من هذا النظام يكاد يكون معدوما لأن البريد نشأ لحاجة من حاجات السلطة الحكومية وظل كذلك محصورا فى هذا النطاق لدى جميع الدول السابقة على الدولة الإسلامية بل وفى الدول الحديثة أيضا الى ما قبل قرنين أو ثلاثة . وليس معنى هذا أن الرسائل الخاصة كانت غير موجودة ، فهى كانت موجودة فعلا ولكن بوسائلها الخاصة

التى لم تؤثر عن قريب أو بعيد فى تطور نظام البريد . . . وقد استدللنا من وثيقة ترجع إلى عهد الأسرة ١٢ ومن رسائل تل العمارنة على معرفة الفراعنة لنظام البريد وتنظيمهم إياه داخل القطر وخارجه حتى جاء البطالمة فأولوه عنايتهم واهتمامهم كما ورد فى وثيقتين تاريخيتين ترجعان إلى هـذا العهد . . . أما بريد أباطرة الرومان فقد عنوا به عناية فائقة خصوصا بعد انقسام العالم الرومانى إلى شرقى وغربى ، وكان أوجسطس أكثرهم يقظة لأهمية هذا النظام الذى تعدت وظيفته إلى نقل الأطعمة والجنود والتجسس على العمال فى الولايات . . . كذلك الفرس لم يكن بريدهم أقل شأنا منه عند الروم ، فهم أصحاب الفضل فى ابتكاره وترتيبه فى ديوان خاص به لا يتولاه إلا من يوثق فيه ، وظهرت عناية الفرس بالجاسوسية المنظمة الداخلة فى نطاق البريد .

الفصل الثانى : فتح باب البحث بكلمة عن بريد عرب الجاهلية . وتدرجنا فى البحث إلى تعريف الدولة الإسلامية وتاريخ سقوطها . . . ويلاحظ القارىء أن تاريخ نظام البريد يتمشى مع تاريخ الدولة نفسها عندما اتخذ الرسول عبد الله بن أبى بكر ليأتيه بأخبار مكة — وهو فى الغار — يوما بيوم . وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد فى تاريخ الدولة ، كما كان عثمان بن عفان فى يوم الحديبية أول مفوض دبلوماسى أرسلته مصلحة البريد الإسلامية ، وأعقبه إرسال البعوث والسفارات إلى أكابر الملوك والأمراء المعاصرين . واتخذ الرسول الخاتم لتوقيع رسائل البريد ، وتوسع الخلفاء فى ترتيب ماورثوه من نظم حكومية عن صاحبهم صلوات الله عليه وسلامه ، واعتمد عمر كثيرا على نظام البريد فى تلقف أخبار قواده فى الأقاليم ، على أن إدارة البريد قد أهملت واجبها فى عهد الخليفة الثالث ودفعت ثمن الإهمال باهظا وهو هدر دم عثمان الذى تسبب عن غلطة ارتكبها صاحب بريده مروان . . . فإذا ما جاء عصر الأمويين نرى نظام البريد يتسلل من سذاجة البداوة إلى بحبوحة الحضارة ، فأقام له معاوية الخيول على الطرق لنقل البريد مستعينا فى ذلك بجمع الوثائق عن البريدين الفارسى والرومى ، واهتم من بعده عبد الملك بن مروان بالبريد وأباح لساعى البريد أن يدخل عليه أنى شاء ليلا أو نهارا ، وأضاف عمر بن عبد العزيز إصلاحات كثيرة على نظام البريد . وعلى الجملة فقد استفاد الأمويون من نظام البريد فى القضاء على ثورات الخوارج وغيرهم ممن خرج على طاعتهم . . . وفى العصر العباسى يلبس نظام البريد ثوبا جديدا يشير إلى الذوق الفارسى والعقلية الفارسية والتقاليد والنظم الكسروية القديمة ، فلا عجب أن يجعله الخليفة المنصور أحد القوائم الأربعة التى شيد عليها دولته ، وهى القضاء والشرطة والخراج والبريد

وتطور البريد تطوراً محمودا فى عهد خلفائه ، ولم يستثن من رقابته أصحاب الجاه والسلطان كالبرامكة مثلا الذين كانت أخبارهم تصل توا إلى مسامع الرشيد . . . ولعب البريد دورا فى الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وكانت الغلبة لبريد الأخير . . . وفى عصر الخلفاء المتأخرين اضطرب حال البريد ، فتارة يعلو صوته وأخرى ينخفض حسب شخصية الخليفة ومدى الغور الذى أحدثه السوس فى عظم الدولة . . . وزاد الطين بله هبوب عاصفة الصليبيين وتساقط أوراق البريد التى لم تكد الحياة تدب فيها من جديد حتى التهمتها جموع التتر ، ولم يكن ذلك عن جهلهم بفائدة البريد وإنما حرصا فى ألا تسبقهم أخبارهم إلى الدول التى لم تسمع بمجيئهم . . . ونخرج من هـذا الفصل مقتنعين بأن التراث الرومانى كان أكثر وضوحا فى عهد الأمويين عن زميله الفارسى ، بينما كان الحال على العكس فى عهد العباسيين .

الفصل الثالث : وقد أفردناه للكلام عن الإدارة العامة لنظام البريد فذكرنا اختصاصات صاحب البريد والشروط التى يجب توافرها فيه والصفات التى يجب أن يتحلى بها . وهو يرأس قوة من البوليس السرى يقومون بعمل الجاسوسية ، وله ثلاثة عينات رئيسية من موظفى البريد هم المرتبون والقائمون والفروانقيون ، كما له عمال فى الولايات ينوبون عنه ولكل من هؤلاء جميعا اختصاصات . ولعمال البريد علامة يتميزون بها عن سائر موظفى الحكومة ... وفى هذا الفصل ميزنا بين نوعين من البريد ، بريد الرجالة وقصد به جماعة السعاة ، ويرجع تاريخ استخدامهم فى الدولة الإسلامية إلى أيام بنى بويه ومن أشهرهم عدوا الصينيون ويليهم المصريون ، ويشترط فى من يلحق بوظيفة الساعى أن تثبت لياقته بامتحان . . أما بريد الخيالة فهو شائع من أقدم العصور واستخدم العرب الجمل فى بريدهم ثم استبدلوه بالخيل والبغال . ومن أشهر خيالة البريد التتر ثم الفرس . . . وختمت هـذا الفصل ببحث اقتصادى عن ميزانية البريد وفيه ناقشنا ودحضنا أراء الهيرشبرنجر بأدلة تاريخية عن بعض المؤرخين مستشرقين وشرقيين .

الفصل الرابع : وهو خاص بطرق البريد وسككه ، وبدأناه بكلمة عن الطرق الرومانية القديمة ، والمقارنة بين الإمبراطوريتين الرومانية والإسلامية ، وحاجة كليهما إلى الطرق العامة ثم أشرنا إلى أقدم وأشهر الطرق الرومانية ومميزاتها . . . أما طرق العرب فصدرناها بأراء المستشرقين عنها ، ثم سرعان ما تجد نفسك سائرا فى هذه الطرق مبتدأ بطريق المشرق مارا بأشهر سككه حتى تقف على ضفاف سيحون وجيحون ، وإذا ما عدت إلى بغداد تأخذ الطريق إلى نواحى الأهواز وفارس وأصبهان وكرمان

وسجستان ، وكذلك تستطيع أن تأخذ طريقا ثالثا إلى نواحى الشمال صوب أرمينيه والقوقاز . . . وطريق رابع ينتهى بك عند أم القرى وقبر الرسول اللتان تتصلان بطرق متشعبة إلى عواصم الأمصار جميعا . . . أما طريق المغرب فيبدأ من بغداد إلى الرقة فالثغور الشامية فالرملة إلى الفسطاط ، وأخيرا تأخذ طريقك إلى بلاد المغرب مارا ببرقة ومصليا بمسجد سيدى عقبة بالقيروان ومنها إلى تونس ، وإن رغبت فى قرطبة والحمراء عبرت البحر إليهما . وفى تعداد هـذه الطرق ذكرنا المسافة بين كل بلد وأخرى أحيانا بالفرسخ ، وأحيانا بالميل ، وأحيانا أخرى بالمرحلة ، وذلك حسب ماورد عند كل من الشيخين ابن خرداذبه وقدامه . . . أما السكك وقد بلغ عددها ٩٣٠ سكة فتستطيع أن تقرأها وتعرف تعدادها لكل طريق على انفراد ، حيث وزع العمال على هـذه السكك وناقشنا رأى شبرنجر الخاص بهذا . . . وأخيرا أغلقنا باب البحث فى الفصل الرابع بكلمة عن الرباطات وعلاقتها بنظام البريد .

الفصل الخامس : وخصصناه لبريدنا القومى أعنى بريد مصر الإسلامية ، وتكلمنا عنه فى عهدين العهد الأول من الفتح حتى عصر الظاهر بيبرس (٢٠ — ٦٥٦ هـ) وهذا العهد قسمناه إلى مراحل ثلاث . الأولى من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ . والثانية أيام الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين . والثالثة أيام الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧هـ) والعهد الثانى خصصناه للبريد الظاهرى لأن مصر فى عهده بلغت أوج عظمتها من حيث القوتين المادية والمعنوية . . . وأعقب هذا ذكر طرق البريد فى مصر الإسلامية وتزويد محطاتها بالدواب والعمال وإنشاء الخانات لراحة المسافرين . . . كذلك تكلمنا عن إدارة البريد المملوكية وموظفيها وعمالها وعلاماتهم وشروط توظفهم وقانون انتقال المسافرين من قطر إلى آخر . . . وينتهى هـذا الفصل بإشارة قصيرة إلى حمل الثلج من جبل لبنان زمن الصيف إلى قصور سلاطين القاهرة بواسطة دواب البريد وعماله .

الفصل السادس : وجاء فيه ذكر البريد الجوى ، مبتدئين بتاريخ استخدام الحمام فى البريد قبل الإسلام ، وأن عناية خلفاء المسلمين بالحمام الزاجل لم تظهر بوضوح إلا فى عهد العباسيين والفاطميين ، واعتمد عليه مؤسس فرقة القرامطة فى إحداث الفتن فى أنحاء دولة بنى العباس . وكما كان للبريد العادى محطات كذلك كان الحال بالنسبة للحمام وعرفناها بالمطارات الجوية وأوردنا خطوط هذه المطارات فى مصر المملوكية ، وشرحنا طريقة استخدام الحمام فى نقل الرسالة من مكان لآخر وكيفية التراسل الحربى بواسطته فى العصور القديمة . . . والغريب أن الفاطميين الذين لم يرد عنهم ما يثبت اهتمامهم

بالبريد العادى يكونون أسبق الخلفاء للعناية بالبريد الجوى . وأخيرا يرى القارىء علامات الحمام وأنواعه وأثمانه والمنافسة على اقتنائه وأثر الحمام فى الحروب الحديثة وإقامة أبراجه إلى جوار المطارات الحربية .

الفصل السابع والأخير : ويبحث فى نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء وفيه يقرأ الباحث نبذا طريفة عن استخدام النار فى التخاطب قبل الإسلام عند الفراعنة وبنى إسرائيل وعرب الجاهلية وأنواع النار عند الأخيرين . . . وفى الدولة الإسلامية نرى للنار نظاما خاصا ومناور يشرف عليها جماعة المنورين وطريقة التراسل بالنيران والأدوار التى لعبتها النيران فى الحروب . . . وفى القسم الخاص بالطبول يشعر القارىء بأنه فى مهرجانات رسمية بين دق الطبول وعزف الموسيقى التى تشنف الأذان والتى تختلف نغماتها فى بلاد التركستان عنها فى الهند أو تونس الخ . . . وكانت الطبول وسيلة من وسائل نصر القواد فى الحروب كما ذكرنا فى حادثة بابك والأفشين . . . أما البريد المائى فكان معروفا من أقدم العصور إلا أنه كان نادرا فى العصر الإسلامى وقاصرا على جهات دون الأخرى ، على عكس البريد البحرى فقد ضرب الرقم القياسى بين جميع أنواع البرد وبفضله أحرزت أساطيل الإسلام الغلبة فى معارك البحر الأبيض المتوسط وغيره من بحار العالم المعروفة وقتذاك .

بقى أن نتساءل ماهى الفوائد التى جنتها الدولة والأفراد من نظام البريد ؟ وما هى الأغراض التى حققها هـذا النظام بوجه عام ؟ . . . فى الواقع يستطيع القارىء بفطنته وذكائه أن يستخلص هذه الفوائد ويلخصها فيما يأتى : —

(١) استطاع ديوان البريد أن يحقق رغبة الخلفاء فى استتباب الأمن وضبط الأداة الحكومية في ربوع الإمبراطورية والإشراف الدقيق على جميع العمال سواء منهم من بأقاصى المشرق أو المغرب . . ولولا قيام نظام البريد ما استطاع الخليفه بشخصه الضعيف واتساع رقعة الامبراطورية وبطء المواصلات وقتذاك أن يهيمن بقوته وهيبته على العالم الإسلامى أجمع ، فيخشاه كل فرد من رعاياه كما خشيه معاصروه من أصحاب التيجان والعروش فيتبادلون معه الود والرسائل ، وما تبادل السفارات والوفود بين هارون الرشيد وشرلمان بخاف على أحد .

(٢) وعلى ضوء وطرق البريد المنبثة فى أنحاء المملكة ، وفى ظل محطاته وعماله تيسر الحج والزيارة لكل مسلم قادر وهو آمن على حياته وماله[١] . وغدت مكة تعج

(١) Lestrange. The lands of the eastern caliphate P. 9.

بالعناصر والأجناس المختلفة التى تصاهرت بعضها مع البعض الآخر واختلطت دما وعقلا وفكرا ، ونتج عن هذا أن دخل البيت العربى دم فارسى أو رومانى أو سورى أو مصرى أو بربرى الخ . ولم يعد البيت العربى بيتا عربيا بل أشبه بعصبة أمم نتيجة التوليد[١] . . . على أن تيسير الحج لم يكن بالنسبة للمسلمين فقط بل وأيضا للمسيحيين فالأمير شكيب أرسلان[٢] يقر أن الحجاج من الغرب ذهبوا فى سنة ٧٣٣ م إلى بيت المقدس والقاهرة وكانوا يجوبون آمنين فى الشام وفلسطين وزاروا قصر الخليفة نفسه فى دمشق ولم يعترضهم أحد ولا خافوا ولا حزنوا . ويقول فى موضع آخر[٣] أن شرلمان أمر رسوله اسحاق أن يتوسط لدى الرشيد فى تسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس حتى يزداد عدد التجار والزوار القاصدين إلى البقاع المقدسه . ويؤيد هذا مؤرخ آخر مسيحى وغربى هو الأستاذ بارتولد[٤] . بقوله « يقر حجاج نصارى أوربا الغربية الذاهبين إلى بيت المقدس بأن حياتهم وأموالهم فى البلاد الإسلامية كانت فى مأمن أكثر منها فى بلادهم » . هذا أثر البريد من الناحيتين الدينية والاجتماعية .

(٣) أما من الناحية الأدبيه والعلمية فانى أرى أن نظام البريد قد أعطى العلماء فرصة الارتحال من قطر إلى آخر طلبا فى العلم خصوصا فى العصور الإسلامية الأولى عندما تفرق الصحابة عند الفتح فى الأمصار فكان منهم من سكن فارس ومن سكن العراق ومن سكن الشام ومن سكن المغرب . . وكل هؤلاء يحملون حديثا عن رسول الله ، أخذ عنهم التابعون ومن بعدهم . وكان فى كل مصر طائفة من الحديث لا تعرف فى الأمصار الأخرى . نجد العلماء والمحدثون أمثال المقدسى والطبرى والشافعى والأوزاعى فى الرحلة يأخذون الحديث عن أهلها ويجمعون ما تفرق منها[٥] . وغدت مهمة نظام البريد بطرقه وعماله ودوابه وسككه أن يذلل كل عقبة تعترضهم ويسهل كل مشقة تقف فى طريقهم . . . وهكذا كانت المملكة الإسلامية فى سهولة انتقال العلماء من مكان فيها إلى مكان ، كأنها رقعة شطرنج وهم بيادقها فترى العالم فى المشرق فإذا هو فى الأندلس ، وفيما هو فى الأندلس إذا هو فى العراق ، وفيما هو فى العراق إذا هو بمصر والشام ، لا يعوقهم جبل ولا نهر ولا يفت فى عضدهم وعزمهم وحشة الطريق أو صعوبته وأخطاره ، سواء عليهم الصحراء وحرها والبحار وأمواجها . . . . على أن قيام علاقات وصلات وثيقة

(١) فجر الإسلام ج ٢ ص ١٠٨
(٢) تاريخ الغزوات ص ١١٦
(٣) تاريخ الغزوات ص ١٣٢
(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥١
(٥) ضحى الإسلام ج٢ ص ٧٠

بين الولايات الإسلامية المختلفه فى ظل نظام البريد وتحت سلطان خلافة إسلامية واحدة ساعد على نقل الحضارة الإسلامية من يد إلى يد ، وعلى إحداث اللقاح بين العقل العربى والعقل الأجنبى من فارسى ومغربى الخ . فتاريخ الطبرى مثلا وقد سبق الكلام عنه ألف فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى والذى يعتبر أوسع مرجع فى العصور الإسلامية الأولى انتشر فى القرن نفسه فى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه . . بدليل أنه ألف فى قرطبة للحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٥ هـ) ملك الأندلس كتاب تاريخى مقتبس من هذا الكتاب — مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس — كما كتب فى بخارى ملخص للطبرى باللغة الفارسية للأمير منصور السامانى[١] .

(٤) ومن الناحيتين الاقتصادية والتجارية نرى أن نظام البريد عمل على تنشيط التجارة بين الممالك الإسلامية، ووجد التجار فى طرق البريد ما يؤمنهم على حياتهم وأموالهم وأمتلأت الأسواق التجارية بالمنتجات المتنوعة، فنرى فى أسواق مصر منتجات الهند والسند وفى أسواق سمرقند منتجات مصر والشام . ووجد العرب فى الطرق فائدة كبيرة إذ فتحت لهم بابا للرزق كبيرا ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يستخدم فى التجاره كأن يكون سائقا أو حارسا أو دليلا . . كما وجدت الدولة فى النشاط التجارى وسيلة لملء خزائنها بالأموال التى تجبيها من التجار نظير حمايتها للطرق وتسهيل سبل الانتقال من مصر إلى أخر .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٩

ملحق للرســالة

خاص بمقارنة وحدة المقياس الطولى عند العرب به فى العصر الحاضر

سبق أن أشرنا فى الفصل الأول إلى طريقة قياس المسافات عند العرب ، ولكن عن لى أن أذكر أن موضوع بحثى هذا قد كشف لى عن ظاهرة قوية تعتبر دليلا واضحا وبرهانا ساطعا على ما وصل إليه العرب من دقة التصور وعمق التفكير فى مختلف شئون الدولة . فكما نرى فى عصرنا الحالى اتفاق الدول على اتخاذ الميل الإنجليزى (= ١٧٦٠ ياردة) وهو مضاعفات للياردة فالقدم فالبوصة وحدة للمقياس الطولى ، أو الكيلومتر الفرنسى (= ١٠٠٠ مترا) وهو مضاعفات للمتر فالسنتيمتر فالمليمتر وحدة أخرى مصطلح عليها كوحدة للأطوال . . . بينما هذا كله قد أتفق عليه بين الدول الحديثة نجد أن العرب قد سبقت هذه الدول الغربية فى استنباط وحدة عربية لقياس المسافات بين البلدان المختلفة للاستعانة بها على إدارة شئونهم ، سموها بريدا وقد أجمعت كل الروايات التاريخية على هذه التسمية .

أما تقدير البريد فقد اختلف فيه القول ، فابن فضل الله العمرى[١] يقول أن البريد المحرر هو أربعة فراسخ ، والفرسخ هو ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ، والإصبع أربع شعيرات ، ظهر واحده إلى بطن أخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل ، فهذا هو البريد المعمول عليه كل عمل .

ويذكر القلقشندى[٢] أن البريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى ، وهو أربعة وعشرون إصبعا ، كل اصبع ست شعرات معترضات ظهر أحدها لبطن الأخرى، والشعيرة سبع شعرات معترضات من ذنب بغل أو برذون .

ومن مذكرة غير مطبوعة للمهندس الدرسى[٣] يتبين لنا أن الفرسخ ثلاثة أميال هاشمية ، والميل الهاشمى قدر منتهى مد البصر عن الأرض ، وهو أن ينظر إلى شخص من أرض مسطحة فلا يدرى أهو رجل أو امرأة أو هو ذاهب أو آت . ولم يرد فى كتب اللغة ماهى المسافة المعبر عنها بالميل ، أما فى كتب الفقه[٤] فقد ذكر أن مسافة القصر فى

(١) المصطلح الشريف ص ١٨٤ . (٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٦ .
(٣) مدير قلم الحساب بمصلحة المساحة المصرية .
(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ج ١ ص ٧٢

الصلاة هى أربعة برد أو ستة عشر فرسخا ، وهى مسيرة اثنين وعشرين ساعة بالإبل ، وقدرت هذه المسافة بما يساوى ٨٨ كيلومترا . وبذلك يكون الميل الهاشمى ١٨٣٣ مترا وهذا يساوى تقريبا ما يعبر عنه بالميل البحرى ، وهو القوس من خط الاستواء المقابل لدقيقة واحدة (ومقداره ١٨٥٤) وعلى هذا الاعتبار يكون الفرسخ ٥٥٠٠ مترا أو ٣٫٤٢ ميلا[١]

ومن أعجب ما صادفنى فى هذا البحث أن أرى العرب وقد اعتادوا أن يعبروا عن كل شىء فى حياتهم بالشعر ألا يفوتهم أن يتخذوا من وحدة القياس عندهم مادة خصبة لصوغ شعرهم ومناجاة بعضهم . فمن مختارات الفقيد محمد سرسى مأمون لتعريف مقدار البريد .

إن البريد من الفراسخ أربع — ولفرسخ فثلاث أميال ضعوا
والميل ألف أى من الباعات قل — والباع أربع أذرع فتتبعوا
ثم الذراع من الأصابع أربع — من بعدها العشرون ثم الإصبع
ست شعيرات فظهر شعيرة — منها إلى بطن الأخرى توضع
ثم الشعيرة ست شعرات فقط — من ذيل بغل ليس عن ذا مرجع

فكما نرى أن أحدهم ذكر الباع ليكون من أجزاء الميل ، نجد الآخرين ذكروا الذراع ليكون من أجزائه مباشرة ، على أنهم جميعا قد أجمعوا على الحد الأدنى لأصغر جزء من هذا البريد يمكن تصوره ويمكن تقديره ، وهو اختيار بديع حقا يدل على اتساع التفكير وطول الروية أن يقع على قطر شعرة البغل أو البرذون ، لأن اختيار قطر الشعرة يعتبر أساس ثابت يمكن الاعتماد عليه فى مختلف الأمكنة والأيام ، فلا يختلف بالأبيض ولا بالأسود من الخيل ولا بفرس الشمال أو الجنوب . ولكن أولهم قال أن الشعيرة أربع شعرات والثانى قدرها بسبع شعرات والأخير ذكرها بست شعرات وهذه ناحية تحتاج إلى توضيح. وأذكر أن تضارب هذه الروايات يرجع أصلا إلى اختلاف حجم ونوع الشعيرة . ولا يفوتنى أن أشير إلى إعجابى بالأستاذ الدرسى لاجتهاده فى تقريب مقدار الميل الهاشمى إلى العقل والذهن .

وقد دفعنى حب المقارنة والتجربة بين القديم والحديث أن أقوم بعملية حسابية على « أساس الرأى الأخير » لأعرف النسبه بين الميل العربى والكيلو متر الفرنسى أو الميل الانجليزى المستعملين فى زمننا هذا . وخلاصة هذه التجربة أنى تمكنت من قياس قطر

(١) مذكرة غير مطبوعة للأستاذ الدرسى .

شعرة الخيل بواسطة آلة القياس الدقيقة المعروفة بالميكرومتر « Micrometre »[١] فتبين لى أن : —

قطر الشعرة الواحدة		= ٠٫٠٠٧	من البوصة
والشعيرة	= ست شعرات	= ٠٫٠٤٢	« «
والأصبع	= ست شعيرات	= ٠٫٢٥٢	« «
والذراع	= ٢٤ أصبعا	= ٦٫٠٤٨	بوصة
والباع	= أربع أذرع	= ٢٤٫١٩٢	«
والميل	= ألف باع	= ٢٤١٩٢٠	«
		= ٦٧٢	ياردة
		= ٦١٥	مترا
والفرسخ	= ثلاث أميال	= ٢٠١٦	ياردة
		= ١٨٤٠	مترا
والبريد	= أربعة فراسخ	= ٨٠٦٤	ياردة
		= ٧٣٧٥	مترا

ومن هذه النتيجة يتضح لنا الفرق الواضح بين مقدار الميل العربى بالمتر كما ورد فى مذكرة الأستاذ الدرسى (= ١٨٣٣ مترا) وكما ورد فى مقدمة الهيرشبرنجر (= ٢٠٠٠ مترا) بينما فى تقديرنا قد بلغ ٦١٥ مترا . ولسنا نعرف أينا أصح ولنترك الحكم للقارىء ، ولما يجد من أبحاث خاصة بهذا الموضوع فى المستقبل .

وحسبى أن أذكر فى نهاية بحثى هذا حاجة الأمة العربية الموحدة فى اللغة والدين والتى تسعى لوحدة السياسة والاقتصاد أن تعمل لوحدة البحث العلمى والعلم وأن تعيد للميل العربى ماضيه ، أو أن تتفق على أساس لوحدة جديدة للأطوال وتكون دولية معترف بها ، بدلا من استعمال الميل الانجليزى أو الكيلو متر الفرنسى يعرفها البدو الصحراء والحضر فى المدرسة والمدينة ونكون بذلك قد أحيينا تراث الماضى واتفقنا فى الحاضر .

هذا خلاصة ما قمت به من بحث وتنقيب واستقصاء عن مادة « نظام البريد فى الدولة الإسلامية » وكان رائدى أبدا الصدق والإخلاص للحق ، فإن أصبت فحمدا لله على توفيقه ، وإن أخطأت فالحق أردت ولكل امرىء مانوى .

(١) قام بهذا التحقيق العلمي الأستاذ محمود حسان سعداوي المدرس بكلية الهندسة جامعة القاهرة .

مصادر الرسالة

نورد فى الثبت الآتى مجموعة المصادر العربية والإفرنجية التى اعتمدنا عليها وقد رتبت أسماء المؤلفين فى جميعها حسب أحرف الهجاء : —

(أولا) مصادر قديمة :

(١) ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم
الكامل فى التاريخ : ١٢ جزءاً طبعة مصر ١٢٧٤

(٢) ابن الأثير : (٦٠٦هـ و ١٢١٠م) مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى
النهاية فى غريب الحديث والأثر . المطبعة العثمانية بمصر

(٣) ابن بطوطه : (+ ٧٧٩ هـ و ١٣٧٧ م) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله
تحفة النظار فى غرائب الأمصار . جزأين . المطبعة الأميرية

(٤) الجاحظ : (٢٢٥ هـ و ٨٣٩ م) أبو عثمان بن بحر
كتاب الحيوان ٧ جزء

(٥) ابن حوقل : (٣٦٧ هـ و ٩٧٧ م) : أبو القاسم محمد بن حوقل
المسالك والممالك . طبعة ليدن

(٦) ابن خرداذبه : (٣٠٠هـ و ٩١٢ — ٩١٣م) : أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله
المسالك والممالك . طبعة ليدن

(٧) ابن خلدون : (+٨٠٨هـ و ١٤٠٥م) : أبوزيد ولى الدين عبدالرحمن بن محمد
(ا) مقدمة بن خلدون . طبعة بولاق

(٨) : (ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٧ جزأ . القاهرة ١٢٨٤ هـ

(٩) السامرى : ( ) : أبو الفتح بن أبى الحسن
تاريخ اليهود . طبعة جوتا بألمانيا ١٨٦٥ م

(١٠) السيوطى : (+ ٩١١هـ و ١٥٠٥م) : عبدالرحمن بن أبى بكر جمال الدين
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . جزءان . مطبعة الموسوعات بمصر

(١١) ابن شاهين الظاهرى (٨٧٢ هـ و ١٤٦٧ م) : فرس الدين خليل
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك طبعة باريس ١٨٩٣م

(١٢) الاصطخرى : (٣٠٩ هـ و ٩٢١ م) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى
مسالك الممالك . طبعة ليدن

(١٣) الطبرى : (+ ٣١٠ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير
(ا) تاريخ الأمم والملوك طبعة دى غويه ٧ جزء (ليدن ١٨٨١ — ١٨٨٣ م)

(١٤) : (ب) تفسير الطبرى

(١٥) عريب بن سعد : (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ م) : القرطبى
صلة تاريخ الطبرى . القاهرة ١٢٨٤ هـ

(١٦) العمرى : (٧٤٩ هـ و ١٣٤٨ م) شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله
التعريف بالمصطلح الشريف . طبعة مصر

(١٧) أبو الفدا : (+٧٣٢هـ و ١٣٣١م) : إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه
المختصر فى أخبار البشر . طبعة ليدن

(١٨) القرآن الكريم

(١٩) القلقشندى : (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : ١٤ جزءاً القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧م

(٢٠) الماوردى : (+٤٥٠هـ و ١٠٥٨م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى
الأحكام السلطانية . القاهرة ١٢٩٨ هـ

(٢١) المسعودى : (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على
مروج الذهب ومعادن الجوهر . طبعة دار الرجاء ببغداد

(٢٢) مسكويه : (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو على أحمد بن محمد
كتاب تجارب الأمم . طبعة ليدن

(٢٣) المقدسى : (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . طبعة ليدن ١٩٠٦

(٢٤) المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على
(ا) السلوك فى معرفة دول الملوك . طبعة دار الكتب

(٢٥) : (ب) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . مطبعة النيل بمصر ١٣٢٥ هـ

(٢٦) ابن منظور : (٧١١هـ و ١٣١١م) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخزرجى الإفريقى — لسان العرب

(٢٧) ياقوت : (٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى
معجم البلدان : ١٢ جزءاً . القاهرة ١٣٢٣ هـ

(ثانياً) مصادر حديثة :

(١) و (٢) أحمد أمين : الأستاذ : (ا) فجر الإسلام ج ١
(ب) ضحى الإسلام جزءان
(٣) بارتولد . الأستاذ : تاريخ الحضارة الإسلامية
(٤) جمال الدين سرور : الدكتور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده
(٥) جمال العربى : تاريخ البريد فى العالم
(٦) جورجى زيدان . المرحوم الأستاذ : تاريخ التمدن الإسلامى ٦ جزء
(٧) حسن إبراهيم حسن . الدكتور : (ا) النظم الإسلامية
(ب) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣
(٨) الخضرى . المرحوم الأستاذ محمد : محاضرات تاريخ الدولة العباسية
(٩) دائرة معارف البستانى ج ٥
(١٠) « المعارف الإسلامية ج ٣
(١١) « معارف القرن العشرين ج ٢
(١٢) سليم حسن . الأستاذ : مصر القديمة جزءان
(١٣) شكيب أرسلان . المرحوم الأمير : تاريخ غزوات العرب
(١٤) كرد على . الأستاذ محمد : (ا) خط الشام ج ١
(١٥) (ب) الإدارة الإسلامية فى عز العرب
(١٦) (ج) الإسلام والحضارة العربية
(١٧) عبد الحميد العبادى . الأستاذ : مذكرات غير مطبوعة
(١٨) مصلحة البريد المصرية : تاريخ البريد فى مصر
(١٩) الكتانى . الأستاذ : التراتيب الإدارية جزأين
(٢٠) نعمان أنطون . المرحوم : الطائر الفريد فى وصف البريد

(ثالثاً) مجلات :

(١) الراديو المصرى : العدد ٤٦٤
(٢) الرسالة : العدد ٤٢ من السنة الثانية
العدد ١٠٧ لسنة ١٩٣٥
(٣) المستمع العربى : العدد السابع من السنة الرابعة

(٤) المقتطف : عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧
(٥) الهلال : المجلد السابع من السنة العاشرة
(٦) الوقائع المصرية : العدد ١٥٢ الصادر فى ١٩٤٢/٨/١٦

(رابعاً) المصادر الإفرنجية :

1) Amir Ali. Sayed
A Short History of the Saracens. London 1931.
2) Arnold : W. T.
The Roman System of Provincial Administration. Oxford 1906.
3) Charles Diehl :
The Government and Administration of the Byzantine Empire-Cambridge Ancient History. Vol. X-II.
4) Christensen, A. :
L'Empire des Sassanide.
5) Gibbon, Edward :
The Rise & Fall of the Roman Empire-London.
6) Henri Lamens :
L'Empire des Omayadies.
7) Herbert, M. J. L.
The Mongols-Cambridge Mediavel History Vol. IV.
8) Lamb, H.
La Vie de Tamerlan — Paris 1931.
9) Lane Poole, Stanely.
(a) A History of Egypt in the Middle Ages, 2nd Edition.
(b) Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerusalem. 1898.
10) Lestrange, G.
The lands of the Eastern Caliphate. Camphridge 1930.
11) Mez, Adam.
Die Renaissance des Islams.
نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر
12) Nassiri Khosrau :
Relation du Voyage en Syrie, en Palestine et en Egypte.
13) Pierre Larousse :
Grand Dictionnaire Universel — Vol XII. Paris.
14) Quatrèmere : Histoiredes Sultans Mamlouksde l'Egyptn. Paris. Vol. Iier.
15) Sauvaget, J.
La Pos'te au Cheveaux dans L'Empire des Mamelouks. Paris 1941.
16) Sprenger :
Die Poste — Und Reiserouten des Orients Leipzig 1864.
17) Wiet et Henri Murier :
Precit de L'histoire de L'Egypte.
(18) Encyclopaedia Britannica, Fourteenth edition.
(See post in vol '18 and Pigeon Post in vol ' 17.)

الفهـــرس

صفحة

تصدير للأستاذ عبد الحميد العبادى ... ... ا
تمهيد وبحث فى مصادر الرسالة ... ... ١ — ١٨

الفصل الأول

البريد قبل الإسلام ... ... ١٩ — ٣٨
١ — معنى كلمة بريد ... ... ١٩ — ٢٢
٢ — البريد عند الجماعات والأمم القديمة ... ... ٢٢ — ٢٤
٣ — نصيب الأفراد من نظام البريد ... ... ٢٤ — ٢٥
٤ — البريد عند الفراعنة ... ... ٢٥ — ٢٨
٥ — البريد عند البطالمه ... ... ٢٨ — ٣١
٦ — البريد عند الرومان .. .. ٣١ — ٣٤
٧ — البريد عند الفرس ... ... ٣٥ — ٣٨

الفصل الثانى

البريد فى الدولة الإسلامية ... ... ٣٩ — ٦٥
١ — بريد الجاهلية ... ... ٣٩ — ٤٠
٢ — المقصود من الدولة الإسلامية ... ... ٤٠ — ٤١
٣ — البريد النبوى ... ... ٤٢ — ٤٧
٤ — بريد الخلفاء الراشدين ... ... ٤٧ — ٥١
٥ — بريد الأمويين ... ... ٥١ — ٥٣
٦ — بريد المروانيين ... ... ٥٣ — ٥٦
٧ — بريد العباسيين ... ... ٥٦ — ٦٥
(ا) عصر المنصور والمهدى ... ... ٥٦ — ٥٩
(ب) عصر الرشيد والمأمون ... ... ٥٩ — ٦٢
(ح) عصر الخلفاء المتأخرين ... ... ٦٢ — ٦٥

الفصل الثالث

ديوان البريد وعماله ... ... ٦٦ — ٨٣
١ — صاحب البريد ... ... ٦٦ — ٦٩
٢ — موظفو البريد ... ... ٦٩ — ٧٥
٣ — عمال البريد فى الولايات ... ... ٧٥ — ٧٦
٤ — بريد الرجالة ... ... ٧٦ — ٧٨
٥ — بريد الخياله ... ... ٧٨ — ٨
٦ — ميزانية البريد ... ... ٨ — ٨٣

الفصل الرابع

طرق البريد وسككه ... ... ٨٤ — ١١٨
١ — الطرق عند الرومان ... ... ٨٤ — ٨٨
٢ — الطرق عند العرب (إلى الشرق ونواحيه — إلى الشمال — إلى مكة — إلى المغرب ونواحيه الخ .) ... ... ٨٨ — ١٠٩
٣ — السكك ... ... ١٩ — ١١٥
٤ — الرباطات ... ... ١١٥ — ١١٨

الفصل الخامس

البريد فى مصر الإسلامية ١١٩ ١٣٣
١ — البريد المصرى من النتح حتى عصر الظاهر بيبرس ... ... ١١٩ — ١٢٣
٢ — بريد السلطان الظاهر بيبرس ... ... ١٢٣ — ١٢٨
٣ — ادارة البريد المملوكى ... ... ١٣٨ — ١٣٣

الفصل السادس

البريد الجوى ... ... ١٣٤ — ١٤٧
١ — بريد الحمام الزاجل قبل الإسلام ... ... ١٣٤ — ١٣٦
٢ — بريد الحمام الزاجل فى الدول الإسلامية ... ... ١٣٦ — ١٣٩
٣ — المطارات الجوية ... ... ١٣٩ — ١٤٢
٤ — حمام الزاجل في مصر الإسلامية ... ... ١٤٢ — ١٤٧

الفصل السابع

نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء ... ... ١٤٨ — ١٥٨
(ا) المشاعل : —
١ — قبل الدولة الإسلامية ... ... ١٤٨ — ١٥٠
٢ — فى الدولة الإسلامية ... ... ١٥١ — ١٥٣
(ب) الطبول ... ... ١٥٤ — ١٥٦
(ح) البريد المائى والبحرى ... ... ١٥٧ — ١٦٠
الخاتمة ... ... ١٦٠ — ١٦٦
ملحق خاص بمقارنة وحدة المقياس الطولى عند العرب ... ... ١٦٧ — ١٦٩
فى العصر الحاضر ... ...
مصادر الرسالة ... ... ١٧٠ — ١٧٣
خرائط لبعض طرق البريد البرى والبحرى ... ... ١٧٦ — ١٧٩
تعريف للكتاب بالإنجليزية ١٨٠

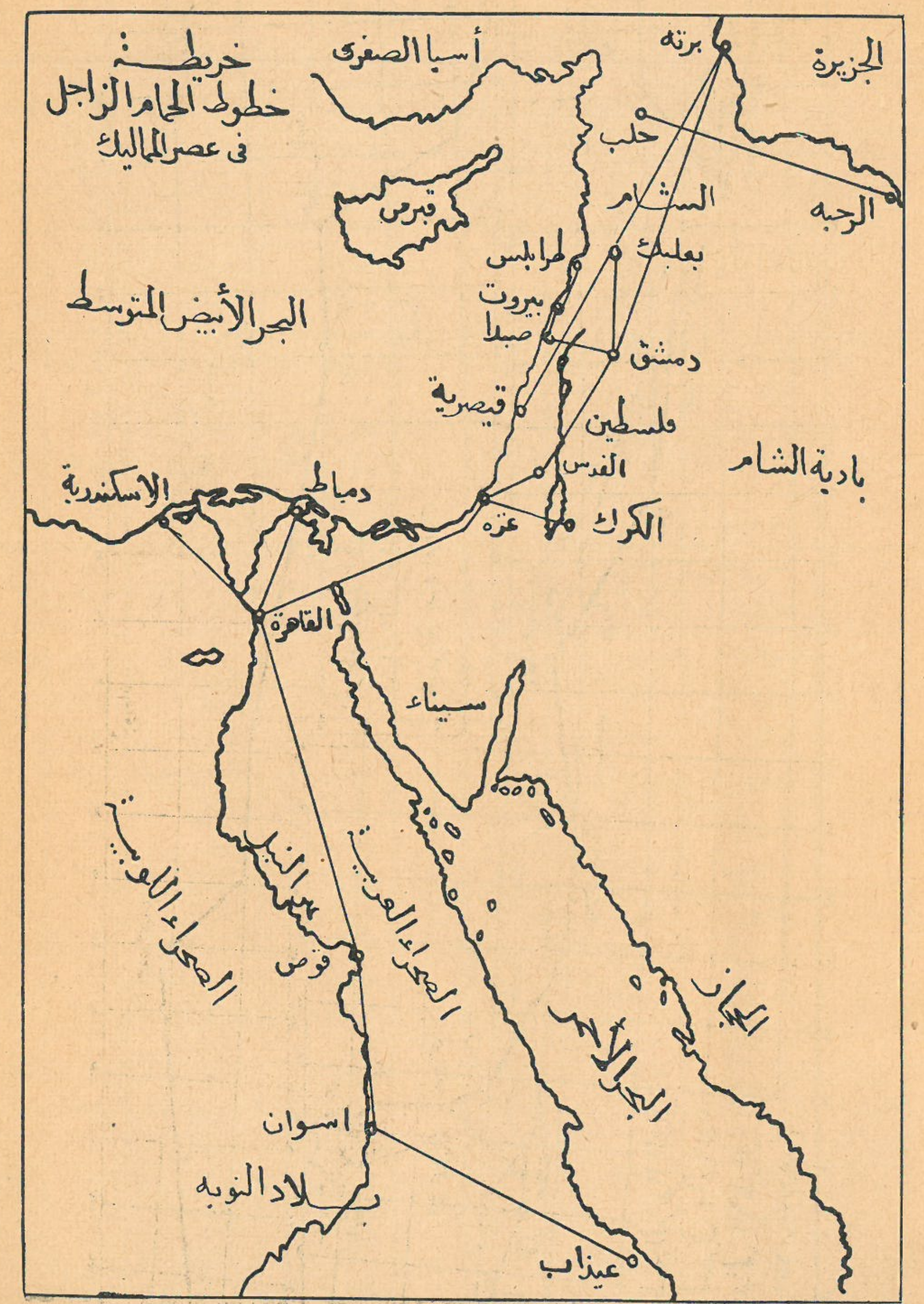
خريطة
خطوط الحمام الزاجل
فى عصر المماليك
أسيا الصغرى
برته
الجزيرة
حلب
الرحبه
قبرص
الشام
بعلبك
طرابلس
بيروت
صيدا
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
قيصرية
فلسطين
بادية الشام
القدس
دمياط
الاسكندرية
غزه
الكرك
القاهرة
سيناء
بحر النيل
الصحراء الغربية
الصحراء العربية
قوص
البحر الأحمر
الحجاز
اسوان
بلاد النوبه
عيذاب

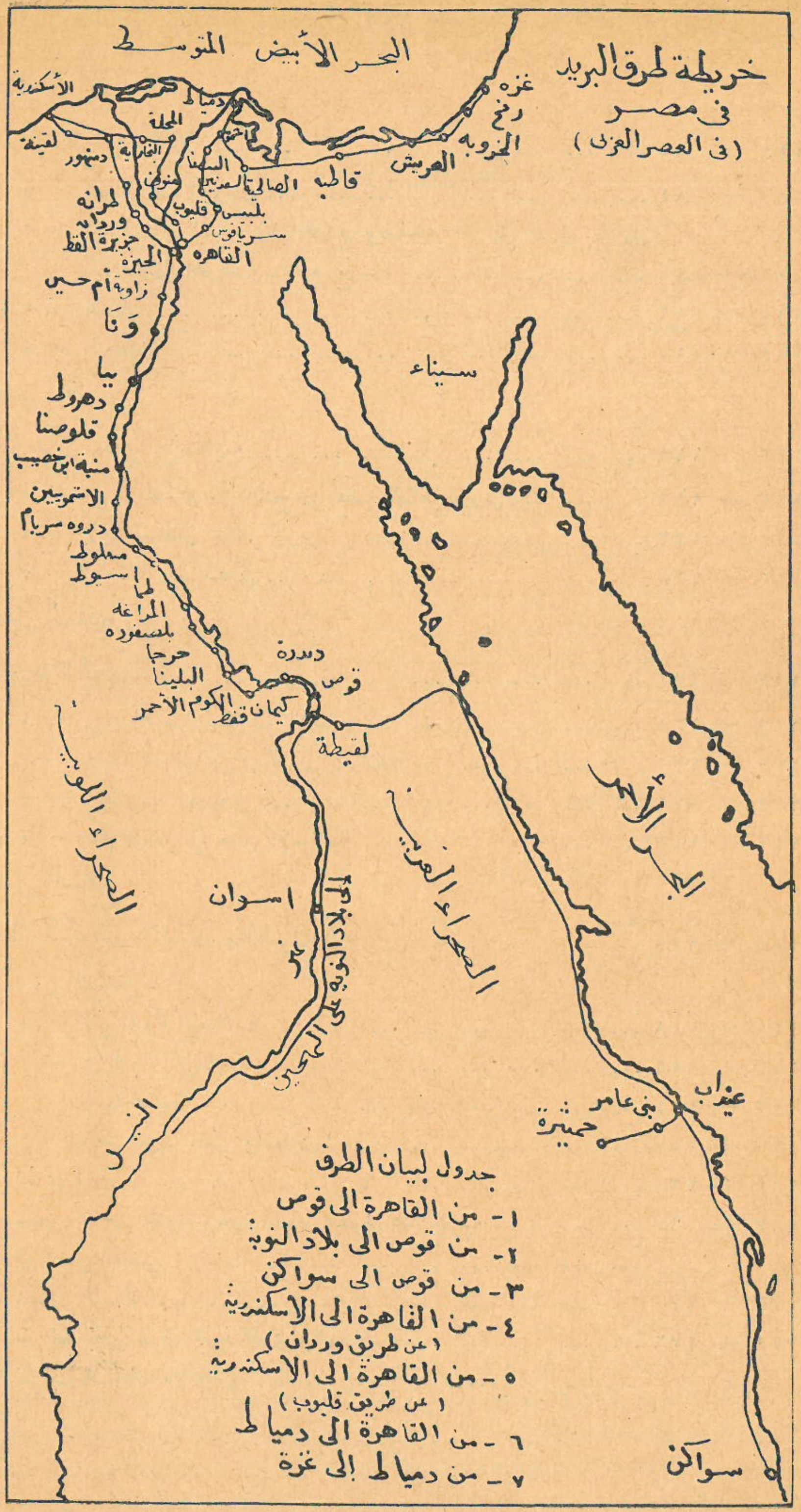
خريطة لطرق البريد
فى مصر
البحر الأبيض المتوسط
غزه
رفح
الخروبه
العريش
قاطيه
القاهره
سيناء
قوص
لقيطة
اسوان
الصحراء الغربية
الصحراء العربية
البحر الأحمر
النيل
عيذاب
حميثرة
سواكن
جدول لبيان الطرق
١ - من القاهرة الى قوص
٢ - من قوص الى بلاد النوبة
٣ - من قوص الى سواكن
٤ - من القاهرة الى الاسكندرية
(عن طريق وردان)
٥ - من القاهرة الى الاسكندرية
(عن طريق قليوب)
٦ - من القاهرة الى دمياط
٧ - من دمياط الى غزة

جـدول رقم (١)

يبين المسافات على طريق البريد إلى الشمال الشرقي والطرق المتفرعة منه إلى رازم « نقلا عن شبرنجر »

جـدول رقم (٢)

يبين المسافات على طريق البريد إلى الشمال الشرقي وإلى بيرونى وإلى الأطوال « نقلا عن شبرنجر »

من بغداد إلى بخارا جدول رقم (١)

من	إلى	المسافة بالفرسخ
بغداد	نهروان	٤
نهروان	دسكيره	١٢
دسكيرة	جليلة	٧
جليلة	قصر شريان	١٥
قصر شريان	حلوان	٤
حلوان	كرمسيس	٣٠
كرمسيس	قصر لوسس	١٤
قصر لوسس	همدان	١٥
همدان	سوا	٣٧
سوا	ری	٢٤
ری	سمنان	٣١
سمنان	دمغان	١٧
دمغان	بهمن أباد	٤٦
بهمن أباد	خسراوجاد	١٢
خسراوجاد	نيسابور	١٥
نيسابور	تيس	١٣
تيس	ساراش	٢٥
ساراش	دندانجان	٢٠
دندانجان	مروسججان	١٦
مروسججان	آمی	٣٦
آمی	فربير	٢
فربير	بايقند	—
بايقند	بخارا	—
مروسججان	مرواريد	٤٧

من بغداد إلى بخارا جدول رقم (٢)

من	إلى	المسافة بالفرسخ
بغـداد	نهروان	٤
نهروان	دسكيره	١٢
دسكيره	جليلة	٧
جليلة	شنجنيان	٩
شنجنيان	قصر شريان	٦
قصر شريان	حلوان	٤
حلوان	كرمسين	٣٠
كرمسين	قصر لوسس	١٤
قصر لوسس	أسد أباد	٧
أسد أباد	همدان	٨
همدان	سوا	٣٧
سوا	ری	٢٤
ری	شوار	٣١
شوار	سمنان	٢٢
سمنان	دمغان	١٧
دمغان	خسراوجارد	٥٨
خسراوجارد	نيسابور	١٥
نيسابور	تيس	١٣
تيس	نيجان	٦
نيجان	ساراش	٢٠
ساراش	داندانجان	٢٠
داندانجان	مروسججان	١٦
مروسججان	فربير	٣٨
فربير	بايقند	١٢
بايقند	بخارا	٥
مروسججان	كرينيان	٢٥
كرينيان	مرواديد	٢٢
مرواريد	تلجان	٢٣
تلجان	فرياب	١٩
فرياب	بلخ	—
قصر شريان	دير كران	٢
دير كران	شهرازير	١٨

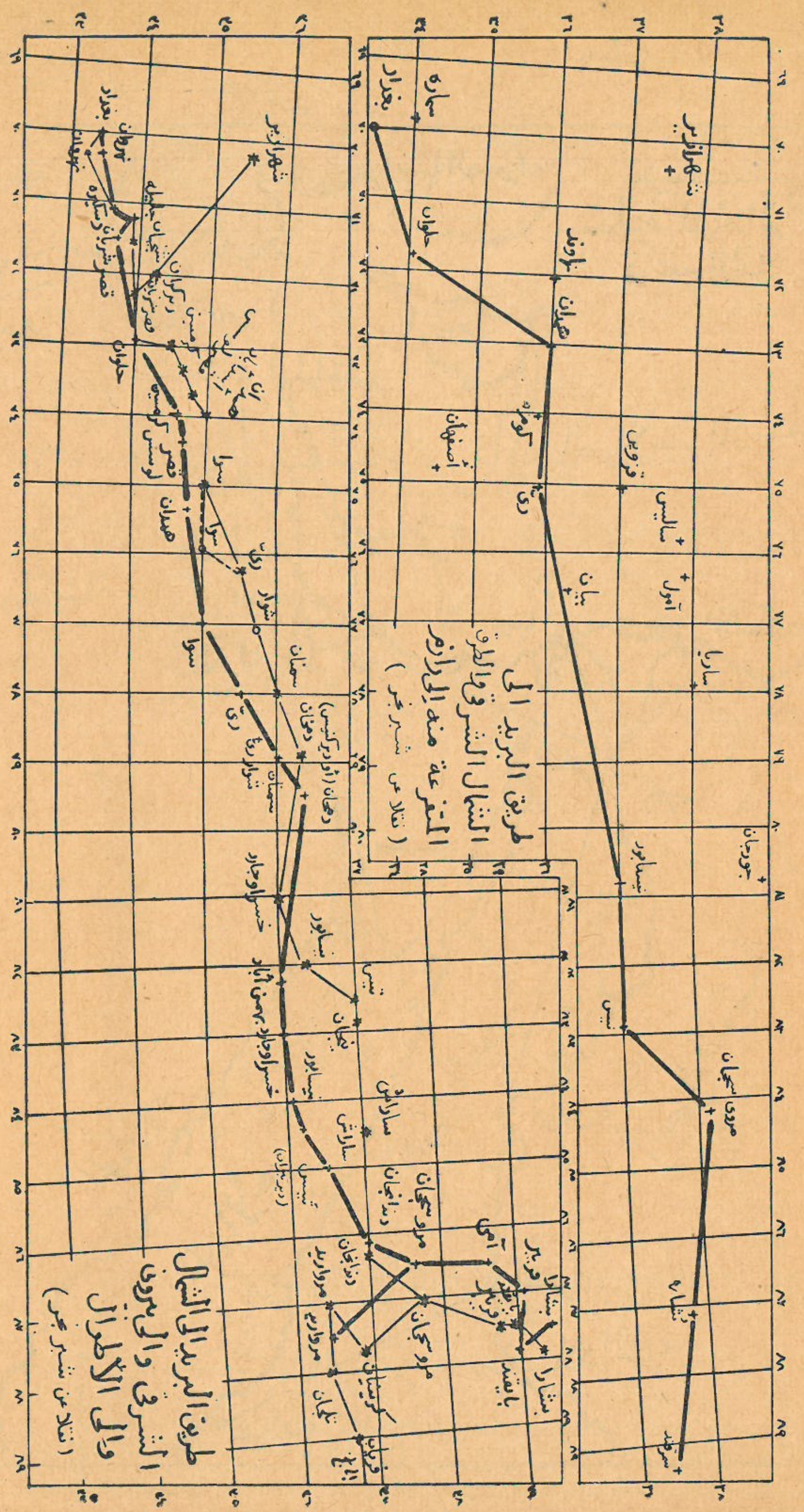

تصـــويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١	٦	وأعي	وأعنى
٥	١٥	الحالة	الحاجة
٦	٢٧	ذرعه	زرعه
١٢	٢٤	الفريد	الغريد (وفى غيرها من الصفحات حيث ذكرت)
٢٠	١٦	الفراتق	الفرانق
٣٠	١٦	Oxgrhgnchos	Oxyrhynchos
٣١	٢٠	الغالبيين	الغاليين
٣١	٢٩	pirre	pierre
٣٢	١٧	القسطنطينه	القسطنطينية
٣٣	١	جتنيان	جستنيان
٣٦	٤	بختم	تختم
٤٠	٤	جمالا لها	جمالها
٤٧	٢	يحتمون	يختمون
٤٩	٩	ايا فاتح	أيا فاتحا
٥٣	١٠	مستعينا	معتمدا
٥٣	٢٣	على انفراده	على انفراد
٥٥	١٩	أفعم هشام	تعجب هشام
٥٦	٢٤	وأن كانت	وإن كانت (نأسف لأخطاء الهمزة المطبعية فى بعض الصفحات)
٦٠	٢٢	أخير	أخبر
٧٣	٢٥	أخذ	آخذ
٧٨	١٧	والخيل هى	والحصان هو
٨٠	١١	والفرانقيين	والفروانقيين
٨٥	٢٣	laps	Alp₀
١١٠	٢٠	دينوار	دينور
١٢٢	٦	الاخشدين	الإخشيديين
١٢٩	٧	وقد عهد إلا	وقد عهد إلى
١٣٣	١	المحاذى	المحازى
١٧٣	٢٤	L'Egyptn	L'Egypte

Introductory Note

The Post System in Moslem State

A thesis for which the author has been granted the M. A. degree from the Faculty of Arts, Cairo University. As it was written with the guidance of Professor Abd el Hamid el Abady, previous dean of the Faculty of Arts, Alexandria University, he has been so kind as to introduce the book.

The book begins with an explanatory note and a short criticism of the main referrences on which the author relied. The first chapter gives an idea of the Egyptian, Roman and Persian Post and how it developped for state affairs and not for personal needs.

In the second chapter the author surveys the history of the post during the time of Prophet Mohammed, the four khalifs, the Omayyades and the Abbassides. The effect of the Roman and Persian Post is clear.

Thedepartment of post, its administrator. officials, couriers, horsemen and finance are dealt with in the third chapter. The writer enumerates the Post roads, the post stops and the inns in the Islamic Empire in the next chapter.

The fifth chapter is devoted to the Egyptian Post from the Arabic conquer to the epoc of es-Sultan ez-Zahir Bebars.

The pigeon Post, pigeonry, various kinds of pigeons and its roads occupy the sixth chapter. The last chapter explains the different ways of sending messages, by fire, drums and water.

In conclusion, the post system helps the Khalifs to carry on their duty in the whole empire from end to end as it enables the pilgrimages to go to Mecca & Jerusalem, and the intellectuals to go to and fro. Cultural and commercial relations develop due to the post system.

Cairo 1953 — Nazir Hassaan Saadawi.